غدا تشرق الشمس

السعيد صبري

غداً تشرق الشمس

السعيد صبري
تدقيق لغوي : عبدالله أبو الوفا
تصميم الغلاف : عمرو علاء
رقم ايداع: 2020/3916
ترقيم دولي: 978-977-6810-07-5



دار فصلة للنشر والتوزيع
العزيزيه - منيا القمح - مصر
٠٠٢٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١
fasla.pub@gmail.com
Www.FaslaPub.Com

الطبعه الأولي يناير ٢٠٢٠



٢

غدًا تشرق الشمس

السعيد صبري



- إهداء -

إلى من يشيدون مهما قَصفت الغارات،
ويزرعون مهما التهمت النيران.
إلى الأجيال التي ولدت وسط جور الحروب،
ولم يتسن لهم شيئًا سوى مجابهة القدر بالصبرِ،
والبارود بالحجارةِ والأبدانِ المُجردة.
لا تتلافوا وجود الظلام، ولا تنسوا،
غدًا.. تَشرّقُ الشمسُ.

"مُستوحاة عن أحداث حقيقية"

٢٠٠١

روعة الجمال تكمن في كونه يستطيع تَخلل أي شيء، أي شيء حتى البشاعة نفسها!

كعادة كل يوم، كان الجو مشحونًا بالتوتر والترقب، وكانت الحركة بالغة ذروتها في كافة طوابق ذلك المشفى المطل على النيل.

بالردهة، هناك أطباء ينهضون عن مقاعدهم بغتة، ويحثون الخُطى كي يلبوا نداء الواجب إن دلف للمكان مريض ما، أو إن نودي اسم أحدهم عبر مكبرات الصوت المتناثرة فوق الجدران، وداخل كل غرفة ثمت ممرضات ينتصبن لجوار أسرة المرضى ويراقبن بعيون يقظة كشوفات تطور الحالة، وبمساحة أغلب الأروقة، هناك ممرضون يدفعون كراسي متحركة نحو غرف العلاج الكيميائي، وآخرون يركضون بالحوامل المتحركة صوب حجرات العمليات.

من النظرة الأولى للمكان، ستشعرون بوجود ملائكة رعاية في كل زاوية، وستلتمسون وقوف ملك الموت بالمنتصف، ففي كل ساعة تقريبًا، يفقد البعض حياتهم، ويُكتب لآخرين عمرًا جديدًا.

الآن، نحن واقفون أمام إحدى غرف العمليات بالطابق الثاني، وكُل أبصار الموجودين شاخصة نحو المصباح المضيء باللون الأحمر.

الثواني تمضي ببطءٍ بالغ، وكأن ثقبًا أسود قد ابتلع المكان، ورغم هذا لم يكن لأهل المريض أن يتبرموا ولو قليلًا، فالفريق الطبي بالداخل منذ أربع ساعات ويزيد، ومن الحين للآخر تفتح إحدى الممرضات الباب، وتهرول بالرواق لتجلب شيئًا ما دون أن تتحدث لأحد، وسرعان ما تعود أدراجها.

بعد الظهيرة، انطفأ المصباح الأحمر، وبدأ الفريق الطبي يخرج تباعًا وقد بدا عليه الإرهاق، تسير بينهم طبيبة حسناء تكاد تكون على مشارف الثلاثين، لها قامة متوسطة، وقوام متناسق، ووجه بيضاوي أبيض تغلب عليه الحُمرة.

كانت عيناها البنيتان تضويان بشعلتي الرضا والنصر، وقد زينت شفتيها بسمة عنفوانية مغتبطة، يبدو أن التوفيق كان من نصيبها اليوم.

توقفت أمام عائلة المريض وقالت بنبرة هادئة تشع سكينة فيما تبسط كفيها مخففة:

- "لا داعِ للقلق، لقد تم استئصال الورم بنجاح، ولكن المريض تحت التخدير وسيتم نقله للعناَية المركزة، يمكنكم الاطمئنان عليه بالمساء حين يفيق".

نهضت زوجة المريض بغتة ودموعها تنهمر من وقع الخبر، ودون حرف عانقت الطبيبة لفرط سعادتها، وحينها شعرت سلمى محمود أن كل جهودها المبذولة طيلة ساعات لم تضع عبثًا، فلقد أعادت لتلك العائلة سرورها من جديد بعدما كادوا يفقدونه بسبب هذا الداء المستعصي.

لو أنها تملك كنوز الأرض كافة، لم تكن ستسعدها كما هذا العناق. عل أفضل وأرقى صنعًا بالكون هو إنقاذ حياة أحدهم، دون معرفته مسبقًا، أو انتظار شكره لاحقًا.

- "شكرًا لك يا ابنتي، شكرًا لك".

كررت الزوجة بنبرة باكية، فتراجعت سلمى للخلف بعد لحظات وهمست في خجل:

- "لقد فعلت ما أجيده، وكان التوفيق من الله، بعد إذنكم".

ابتسمت مودعة، وبدأت تنسحب نحو مكتبها بخطوات متوترة، وحين باتت خلف جدرانه البيضاء، تهاوت فوق مقعد مكتبها، وأمسكت رأسها الذي يكاد ينفلق نصفين، وظلت تبتسم في فرح بالغ، فيما الأدرينالين يتدفق داخلها ويجعلها ترتجف.

تلك اللحظة من لحظات النشوة المرجوة، والمتاحة لديها، فسلمى رغم أنها جميلة وذكية لا تزال عزباء حتى الآن، ذلك لأنها تُكرس أغلب وقتها لمحاربة داء السرطان، وتأخذ قسم أبقراط على محمل الجد كما لو أنها آخر الطبيبات على سطح الكوكب.

بغتة، سمعت نقرًا على الباب المفتوح، فنظرت نحوه بتحفز خشية أن تكون هناك حالة أخرى تنتظر مساعدتها، ولكنها وجدت رئيس القسم يقف أمامها مبتسمًا.

- "لقد أديتي عملًا صعبًا اليوم، وأعلم أنكِ مرهقة، ولكن يجب أن أعرف قرارك؟"

بادر فيما يدخل الغرفة بخطوات ثابتة، فنظرت سلمى نحوه وتساءلت ببلادة لفرط تشتتها:

- "قراري بخصوص ماذا؟"

كان يتفهم كم الضغوط الموضوعة على عاتقيها، فعقب مُذكرًا وهو يجلس أمامها:

- "بخصوص مؤتمر الطب الذي سيعقد في لندن، هل ستسافرين إلى هناك؟"

تنهدت سلمى وعيناها تنظران للساعة، ومن ثم نهضت لتسير نحو المشجب القريب، وهناك خلعت المعطف الأبيض وعلقته، وبقيت ساهمة وصامتة.

أضاف رئيس القسم مُلحًا حين طال صمتها:

- "أنت الأفضل يا سلمى، ووجودك هناك سيكون فائدة للمشفى وللطبيبات كافة، يمكنك أن تكوني أيقونة في عالم الطب الحديث، ومثلًا أعلى لطبيبات كُثر يعانين من العنصرية بهذا المجال الذي هيمن عليه الذكور قرونًا، يمكنكِ إثبات أن الأفضلية الطبية أساسها التفاني في العمل، وليس الجنس البيولوجي".

تمتمت سلمى وهي تهز رأسها بضيقٍ متوارٍ:

- "مع الأسف، لن أتمكن من فعل هذا، أنت تعلم أنني لا أستطيع ترك جدي وحده".

صمت لحظات ليفكر في عرض لا يمكن رفضه.

- "يمكنك اصطحابه معك، ستكون نزهة جيدة لأجله، وبالتأكيد هو لن يقاوم جمال لندن".

ضحكت سلمى بطريقة شبه ساخرة قبل أن تصرح:

- "يبدو أنك لا تدري شيئًا عن جدي".

ودامت لحظات صمت حتى أضافت وهي تلتقط حقيبتها:

- "سأتصل بك في المساء لأخبركَ بقراري النهائي. إلى اللقاء الآن، فلقد انتهت نوبة عملي وأنا منهكة للغاية".

هز رأسه متفهمًا، وموافقًا، وبدأ يغادر الحجرة برفقتها حتى يعود أدراجه لمكتبه، وتحركت سلمى نحو أقرب المصاعد وسرعان ما غابت داخله.

ضغطت زر المرأب تحت الأرضي، وطالعت نفسها في المرآة، عيناها محمرتان قليلًا وتحيطهما بعض الهالات السوداء بسبب قلة النوم، ولكنها ما تزال تمتلك جمال الشباب وحيويته، إن فكرت الآن في الارتباط فستجد صفًا طويلًا يبدأ من المشفى وحتى كوبري أكتوبر، ولكنها تغض الطرف عن ذلك الأمر.

فُتح باب المصعد بعد وقت لم يطل فتحركت بخطوات متعثرة صوب سيارتها، وسرعان ما أدارت محركها وشرعت تتحرك بإسراع.

لا بد أن جدها لم يأكل شيئًا حتى الآن، يجب أن تسرع.

***

هرولت خروجًا من المصعد حين توقف بالطابق المراد، وسرعان ما دست المقلاد بباب الشقة وأدارته لتدخل. كان المكان غارقًا في ظلام دامس على عكس ما كانت تظن، فأضاءت الأنوار تباعًا وبدأت تسير للمطبخ لترى إن كان جدها قد أكل شيئًا.

تنهدت بضيق لما وجدت الطعام الذي أعدته ببواكير الصباح وغلفته بورق الألومنيوم، لم يُلمس، وبدت قسماتها منزعجة للغاية، فلقد طلبت من جدها مرارًا أن يهتم بتناول الطعام، خصوصًا أنه يتناول عقاقير مختلفة تحتاج تغذية سليمة كي لا تعود بنتيجة عكسية.

وضعت يديها فوق ردفيها وزفرت بضيق، ثم شرعت تفك حجابها فيما تتجه لغرفة الجد الواقعة ببداية الرواق المواجه للمطبخ.

طرقت الباب بضعة مرات دون أن تلقى إجابة، فتقدمت للداخل بقلق وتحفز.

سلمى تعلم يقينًا أن نوم جدها خفيف، وقد توقظه بعوضة تطن قرب فراشه، ولكن توجسها تلاشى سريعًا لما رأته جالسًا بالشرفة.

كان متخذًا وضعية النبي سليمان لما أسلم الروح، رأسه مستندًا إلى عكازه المعقوف، ملامحه متجمدة، وعيناه معلقتان على قضبان القطار الممتدة في مرمي البصر البعيد، دون أن ترمشا أو تتابعا شيئًا مختلفًا.

بادرته بشيء من اللوم والاستفسار:

- "ألم تأكل حتى الآن يا جدي؟"

التفت نحوها ببطء بسبب خشونة المفاصل، ونظر لها بعينيه الغائرتين قبل أن يتمتم:

- "ضرسي يؤلمني بشدة، لا أرغب بتناول الطعام الآن".

تأملت سلمى قسمات وجهه المُسنة بعينين حانيتين تلمعان بالحب، أينعم التجاعيد تملأ وجهه البيضاوي وتجعله أشبه بتربة طينية متشققة، ووجنتاه مترهلتان من الأسفل لدرجة أنهما جذبتا جفنيه وأظهرتا لحم مُقلتيه، ولكن وقاره وتضاريس ملامحه الأصيلة يجعلانه يبدو وديعًا، لا يستطيع إيذاء بعوضة، ولعل هذا هو السبب في اهتمامها الزائد به.

إنه طاعن في السن، ولكنه بحاجة للرعاية والمعاملة بصبر ولطف كما الأطفال.

توجهت نحوه وقالت بحنو فيما تربت على يديه:

- "دعنا نذهب للطبيب إذن".

نهض ببطء وبدأ يتجه لفراشه وهو يتأفف، وحين بلغه تمتم بتبرم وهو يجلس على حافته:

- "لقد مللت من الذهاب للأطباء، أنا كومة خردة ولا فائدة تُرجى مني".

تبعته سلمى في الجلوس ولم تُعقب فأكمل موضحًا:

- "لقد تجاوزت الثمانين يا سلمى، أنا رجل يودع الحياة الآن، وما يؤلمني هو أنني سأتركك وحيدة، فأنت بالتأكيد لن تسافري لوالديكِ، وهما لن يأتيا لك".

تنهدت بضجر، ونوهت بتوسل لعلمها مسبقًا بالمجرى الذي سيسلكه الحديث:

- "لا تتطرق لموضوع الزواج أرجوك".

لم يبال وتساءل في استنكار:

- "وما الموضوع الأهم؟ أن تظلي عازبة لكي ترعيني، ليتني أموت وأريحك من همي".

دمعت عيناها وهمهمت فيما تنهض:

- "لا تقل هذا، أنت عائلتي الوحيدة، لقد قمت بتربيتي ورعايتي حين تركني والداي وهاجرا، فلم تستاء لأنني أحبك كثيرًا، ومتعلقة بك؟"

دب به الجزع والندم حين رأى دموعها، فنهض ليربت عليها وقال بنبرة هادئة:

- "لا تغضبي مني يا بنيتي، ولكنك تحملين الكثير فوق كتفيك، طهو وتنظيف، وعمل بساعات متأخرة من الليل أو مبكرة للغاية، وكل هذا لجانب الاهتمام بي، أنتِ لا تعيشين الحياة كما يجب، وأنا أرغب في رؤيتكِ سعيدة لا أكثر".

رمقته بعين راجية.

- "سأكون سعيدة حين تستمع لي، العمل لا يتعبني كما تظن، بل يسعدني كثيرًا، والزواج سيأتي بوقته، ولكن المهم الآن هو أن تهتم بصحتكَ، وأن تتناول طعامك كي لا تسوء حالة الأنيميا لديك، وحتى يقوى جسدك على احتمال الأدوية، الآن هل ستدعني أجهز لك الطعام أم لا؟"

هز رأسه في خنوع ليرضيها، وظل ينقر الأرضية بعكازه فيما يتجه للصالة رفقتها، ولكنه لم يكد يبلغ نصف المسافة حتى سمع دوي صافرة القطار الذي يعبر بعيدًا.

استفسر بنبرة راجية وهو يعدل عدسات النظر السميكة:

- "هل يمكنني تناول قهوتي أولًا؟"

سبقته للمطبخ المُطل على الردهة بينما تنوه برصانة:

- "بعد الطعام يا جدي، وحاول أن تقلل الكافيين، فضغطك لا يحتمل".

- "إنها الثالثة تقريبًا، ولا بد أن أشربها أولًا، فنجان صغير لن يضر".

كان يتحايل كما صبي صغير يطالب أمه ببعض المثلجات، فلم تتمكن من الرفض.

- "هذه المرة فقط، ولكن على أي أساس تدعي أنها الثالثة؟"

تنهد قبل أن يفسر بتمهل وقد شردت عيناه مع صور خفية:

- "القاطرة التي مرت للتو صنعت في أربعينات القرن الماضي، محركها قوي ويحتمل جر عشرات العربات، كما يتحمل الحرارة والسفر البعيد، بأيامي كان الإنجليز يستخدمونها في نقل المؤن والسلاح من ميناء حيفا، والسودان، والآن باتت موكلة بالسفر لوجه قبلي، الذي عبر للتو هو قطار الصعيد".

وضعت سلمى "كَنكَة" القهوة على النار وهي تعقب بمرح ودهشة:

ـ "تتذكر كل هذا بسهولة، ولا تتذكر أخذ الدواء! أنت غريب الطباع يا جدي".

توجه الجد ليرتاح فوق المقعد المقابل للمائدة ووضح من هناك:

ـ "كنت سائق قطار بالماضي كما تعرفين، لذلك بعض الأمور لا تزال عالقة معي حتى الآن، هناك بعض الأشياء لا يمكننا تجاوزها مهما مر الوقت يا طفلتي".

بدأت تسير نحوه وبيديها فنجانًا صغيرًا، ولما وضعته أمامه، قام بالتقاطه في لهفة المدمن، وطفق يرتشف بتلذذ، ولكن استمتاعه لم يَطل، فلقد عاودته نوبة السعال فجأة.

تنضل منديلًا قماشيًا من جيبه، وكتم به الرذاذ، وحين انتهى وضعه على الطاولة وعاد يمسك الفنجان بكلتا يديه كي لا يسقط منه، فشهقت سلمى في فزع بالغ.

لقد رأت بالمنديل بقع دماء، إنها حديثة، وبالطبع انطلقت مع سعاله الجاف.

أثيرت وساوسها، وتفجرت بها مخاوف شتى، ربما بلهارسيا، ولكن لا يوجد ارتفاع في درجة الحرارة ولا تضخم بالمعدة، ولا آثار حكة على الجلد.

اتسعت عيناها في رهبة، وفي تلك اللحظات كان عقلها يستعيد كل الأعراض الخاصة بمرض سرطان الرئة، التي درستها بالجامعة مرارًا وتكرارًا، كما استعادت الحالات الكثيرة التي عملت على تشخيصها ومعالجتها طيلة فترة عملها بالمشفى.

لقد مر ردح من الزمن كان جدها يتنفس فيه بصعوبة، ويسعل بلا تمهل، هذا إلى جانب فقدان الشهية، ونقص الوزن، والإعياء المفاجئ.

اللعنة، إنه هو بعينه.

تركت وساوسها للحظة، وهرولت لغرفتها كي تحضر حقيبة الكشف، ولكنها عدلت عن فتحها لما عادت أدراجها، إنها تعلم يقينًا ما سيؤكده الكشف، وليست بحاجة إليه، تمامًا كما نتيقن نحن من أن السماء هي السماء دون أن نلمسها، هكذا فقط باستخدام النظر المجرد والاستدلال بوجود السحب والأزهرين.

كل الأعراض تؤكد أن جدها مريض بسرطان الرئة، وتلك الدماء تفضي إلى أنه بمرحلة متأخرة.

نظرت نحو جدها الذي لاحظ الدماء لتوه بعدما تابع ركضها المفاجئ، وقالت بصوتٍ باكٍ فيما تضع يديها على صدره الذي يلتقط الأنفاس بصعوبة:

ـ "لا أريدك أن تقلق، ستكون بخير".

رد بهدوء وهو يهز رأسه:

ـ "أنا لست قلقًا، ولكنك كذلك، بصراحة أنا لا أفهم سبب خوفك وجلبك حقيبة الكشف، إنها مجرد دماء!"

ردت سلمى بانفعال:

ـ "تلك الدماء ليست أمرًا هينًا، إنها من عوارض مرض سرطاني خطير".

صمتت لحظات لتستجمع شتات نفسها، ثم أضافت بجدية:

ـ "منذ أيام وأنا مترددة في قبول عرض السفر، ولكننا سنسافر يا جدي، ولا ترفض طلبي أرجوك".

التقط المنديل وظل ينظر له بتأمل، لقد أضيف داء جديد للائحة أمراضه الكثيرة.

ـ "سنسافر إلى أين؟! أنا لا أريد أن أسافر".

صاحت سلمى بينما تسير نحو غرفته لتعد له الحقيبة.

ـ "أخشى أنه لا خيار لديك، سنسافر إلى لندن بأقصى سرعة".

انتصب واقفًا وقال بفزع:

ـ "كـــــلا، لن أذهب لهناك مهما حدث".

تراجعت للصالة وغمغمت بنبرة باكية فيما تحرك يديها بضيق:

ـ "يجب أن تفعل وإلا ستتفاقم حالتك، أنا لا أشتهي فقدانك، فاستجب لي أرجوك".

تهاوى فوق المقعد من جديد وهمهم بخفوت وذعر:

ـ "افعلي بي ما تريدين ولكن في بلادي، لا حاجة لنا في السفر للندن تلك!"

فسرت سلمى ودموعها تنساب عبر مقلتيها:

- "لا يوجد تقدم طبي هنا يتيح لي علاجك بتلك المرحلة المتأخرة، في لندن سأجد المعدات التي ستساعدني والفريق المحترف، الأمر صعب ولكن ليكن الله معي، فأنا لن أستسلم يا جدي، هل تفهم؟ لن أستسلم".

لم يعلق بشيء حتى لا يرهق أعصابها زيادة، وعن نفسه لم يكن خائفًا أو قلقًا، ففي تلك السن يمكنه تلقي خبر الإصابة بمرض قاتل، دون أن يطرف له جفن.

في الحقيقة هو مبتهج للغاية، فهو يموت باليوم أكثر من مرة، أحيانًا وهو يتلقى إبر الفيتامينات، ومرة حين يحاول النظر لشيء فلا يراه بوضوح، وأخرى حين يبتلع حبوب الضغط، والروماتيزم، والمسكنات الخاصة بالأسنان، والصداع، والعظام.

ولكن كل هذا لا يُذكر إذا ما قورن بما يعانيه في أغلب حاجاته اليومية.

بهذا السن هو لا يقدر على نزع ملابسه بنفسه، أو إمساك ملعقة دون أن تهتز يده وتسقط محتوياتها، كما لا يستطيع قضاء حاجته بيسر بسبب البواسير.

ذات يوم، قرر أن يملأ لنفسه كأس ماء حتى يشرب، فتوجه لحامل الأطباق والأكواب، وشب على ساقيه حتى يبلغه، ولكن بسبب أعصابه التالفة، لم تتمكن قدماه من حمله في تلك الوضعية، وسرعان ما ارتعشتا كقطعتي هلام.

شعر حينها أنه سيسقط، فامتدت يده كرد فعل تلقائي نحو حامل الأطباق لتتمسك به، وكانت النتيجة أن كلاهما سقط أرضًا.

لم يستطع وقتها أن ينهض بمفرده، ولما عادت سلمى من العمل وجدته نائمًا وسط شظايا الزجاج، وقطع الأطباق الخزفية المتكسرة.

هذا الموت الذي قد يلقاه يعتبر رحمة واسعة ستخلصه من تلك الحياة البائسة، التي لم يعد يستسيغها.

لقد عاش حياة طويلة، وهو ليس حزينًا على أي أمر، سوى سلمى.

تلك الصغيرة يبدو أنها لا تتقبل الأمر، رغم أنها تعلم، بسبب طبيعة عملها، كيف ستسير الأمور.

****

مطار هيثرو، العاصمة لندن.

العاشر من سبتمبر.

ارتفع صرير مدوي فور أن لامست الطائرة مدرج المطار، وشيئًا فشيئًا راحت السرعة تتباطأ حتى تجمدت الحركة تمامًا، ثم خبا المصباح الداخلي المُنوه بضرورة لزوم المقاعد.

خَلعت سلمى حزام الأمان الذي قيد خصرها إبان الهبوط، وانتصبت واقفة لتُنزلَ حقيبة متوسطة الحجم من رفِ التخزين العلوي، ثم نظرت نحو جدها الذي كان يتنفس بصعوبة ويكاد يغيب عن الوعي من رهبته بسبب تحليقهما على ارتفاع ستة عشر ألف قدم.

ـ "لا بأس، لقد عدنا للأرض يا جدي".

قالت مطمئنة بينما تمسد كتفه، فابتلع ريقه وهمهم بخوف واختناق:

ـ "لدي ذكريات سيئة مع الطائرات، تلك الرحلة تثير قرفي للغاية".

ـ "سننتهي بأسرع وقت، الآن دعنا نهبط".

نهض مستجيبًا، وتحركا مع الحشود المغادرة نحو باب الطائرة، وبخطوات ضيقة بدآ ينزلان الدرج قاصدين صالة الوصول.

هناك، ظل الجد يحملق بالوجوه الأوربية والسحنات الحمراء المتناثرة حوله في وجل وغيظ، إنه بآخر مكان تمنى زيارته، وهذا يؤلمه أكثر من كافة أمراضه.

أمسكت سلمى يده برقة، وشرعت تتحرك به لينهيا الإجراءات.

بدت بتلك الدقائق مرهقة ومتعجلة للغاية، فهي تعلم أنها ستقطع شوطًا طويلًا حتى تبلغ شارع هارلي، معقل الطب الحديث في لندن، لجانب أنها بقيت ساهدة طيلة ليليتين بسبب حالة جدها، وتكاد جمجمتها تنفجر بأي لحظة، ولكن لا بأس ببعض التعب فهناك ستجد راحتها وغايتها.

لقد رتبت مع مدير المشفى حيث تعمل، ومع القائمين على المؤتمر كل شيء، بدءًا من السكن الفندقي، وحتى تأشيرة الدخول الخاصة بجدها، وكي لا تواجه صعوبة في التحرك داخل البلاد، تكفل المضيفين بإرسال إحدى الطبيبات المقيمات بالعاصمة كي ترافقها ريثما ينعقد المؤتمر وتنتهي الفحوصات اللازمة لبدء علاج

جدها، ولذا كانت عيناها تجوسان في صالة الوصول بحثًا عن فتاة شابة تحمل لافتة مدون عليها اسمها الخاص.

لمحتها بعد وقتٍ قصير.

كانت شقراء عشرينية، لها وجه ماسي، وقامة متوسطة، وتضع عدسات طبية على عينيها الخضراوين.

توجهت صوبها بخطى حثيثة وحين بلغتها بادرت بتواضع بينما تشير للوحة:

ـ "أنا سلمى محمود، وهذا جدي، الأستاذ سالم عبد الحق".

أنزلت الفتاة لوحتها، وقالت بينما تصافحهما:

ـ "أنا كلير بيترسون، سأرافقكما حتى يبدأ المؤتمر، أتمنى أن الرحلة كانت مريحة بالنسبة لكما".

ـ "لا بأس بها، ولكن هناك رحلة أخرى بدأت لتوها".

هزت كلير رأسها حين فهمت المغزى من جملتها، وقالت بينما تسير معهما للخارج:

ـ "سأوصلكما للفندق أولًا حتى ترتاحا، وفي المساء سنهتم بهذا الأمر".

التفتت سلمى نحوها وقالت بنبرةٍ صارمة:

ـ "لن أرتاح قبل أن أنهي أمر التحاليل والأشعة، وأطمئن على جدي".

نظرت لها كلير بهدوء، ولم يبد عليها الانزعاج مُطلقًا، وقالت حين بلغوا السيارة المنتظرة:

ـ "لكِ ما تريدين، فالفندق والمركز الطبي بذات الشارع، تفضلا بالدخول".

تحركت السيارة نحو شارع هارلي، وكان الصمت مُخيمًا، لا يقطعه سوى بُوق العربة، أو صوت رسائل الدردشة التي بدأتها كلير مع الفريق الطبي، حتى تخبرهم بضرورة التأهب.

وبعد نصف ساعة من القيادة، توقفت السيارة بنقطة الوصول، فنظرت كلير نحوهما وأعلنت:

ـ "لقد وصلنا، أأنتما مستعدان؟"

فتحت سلمى الباب لنفسها كإجابة على السؤال، وظل الجد يطالع عبوسها فيما يترجل خلفها، وحين هبطت كلير وضعت يدها على كتفه وقالت في محاولة لبث الأمل:

- "سيكون كل شيء بخير، لا تخف".

نظر لها شزرًا وهو يحرك كتفه بانزعاج، وهمهم بإنجليزية فصيحة فيما يتحسس فكه:

- "لست خائفًا من الموت نفسه، ولكن لقاء خالقي يرعبني، أنا اكتفيت من الحياة".

عقبت كلير بينما تشير للفريق بالاقتراب:

- "لا أحد يكتفي من الحياة، الكل يريد الخلود".

- "إن طلب أحدهم الخلود على هذا الكوكب، فهو أبله بلا شك لأنه يطلب عذاب مستمر دون أن يدري".

- "لا أظنني أفهمك!"

نظر بحذر نحو الفريق الذي يحيطه وقال بخشونة فيما يسير معهم:

- "هذا خطأي، فلقد ظننتك متخرجة من جامعة عريقة!"

هزت كلير كتفيها بلا اكتراث لحديثه الجاف، وانضمت لسلمى، وسريعًا بدأتا في التحرك خلف الفريق الذي سيجري الفحوصات اللازمة لسالم.

انصرمت ساعة وأكثر، جرى فيها أخذ عينات من الدم والبول، أشعة مقطعية، رنين مغناطيسي، تفقد ضغط الدم، قياس نسبة السكري، حتى جلسوا بمكتب كلير المريح ينتظرون الأخبار بلهفة.

كان المكتب الواقع بالطابق السابع عشر، تحده ألواح زجاجية ضد الكسر، ويتسنى للواقف أمامها مطالعة الشارع الصاخب.

في كل ركن، هناك لوحات مضيئة، وشاشات بلازما ضخمة، تنقل إعلانات خاصة بتطور الأدوية، لجانب برامج توعية للحد من الإصابة بالأمراض، وفي قارعة الطريق كانت حركة السير لا تتوقف ولو للحظة واحدة، وكل دقيقتين تقريبًا تمر سيارة إسعاف، أو شاحنة نقل طبية.

كان الوقت وحده هو الذي يمر ببطء، ولم يكن سالم من هواة الانتظار، لذلك سَلَمَ للنوم فور أن دق أجفانه، وبقيت سلمى لجواره على الأريكة، تطالع مجلات البحث الطبي بعيون شرهة، ومن الحين للآخر كانت تطالعه بعينين ملتاعتين، وخائفتين. إنها لا تحتمل فراقه ولو للحظات قلائل، يمكنها أن تتخلى عن أي شيء، وأي أحد، إلا هو.

منذ هاجر والديها للخارج، تولى سالم الاهتمام بها. آنذاك كانت بعمر العاشرة تقريبًا، ولكنها لم تشعر أبدًا بالوحدة رفقته، أو بالخواء الأسري، فلقد كان دائمًا وأبدًا حاضرًا لأجلها. في أوقات المرض، كان يلزم الجلوس قرب فراشها ليعطيها الدواء ويطعمها، وفي أيام الدراسة، كان ينقلها من وإلى المدرسة حتى دخلت الجامعة.

علاقته بها لم تكن مجرد علاقة أسرية جامدة، بل كانا أقرب لصديقين، يفهمان بعضهما البعض حتى النخاع، وإن كانت سلمى بطور نضوجها قد وجدت حرجًا في التحدث إليه بخصوص بعض الأمور النسائية، فهي لم تكن تتردد في إخباره بأي شيء آخر.

ارتفع صوت دقات على الباب، تلاها دخول إحدى الطبيبات، فهرعت سلمى ناحيتها رفقة كلير، وكان سالم قد تنبه من الدقة الأولى.

التقطت كلير أوراق النتائج وطالعتها بعينيها، وسرعان ما نوهت بابتسامة عريضة:

- "مستر سالم على ما يرام، لا يوجد أثر لأي مرض سرطاني".

التقطت سلمى الأوراق من يدها وراحت ترمقها بعينين تدمعان من الفرحة حتى تتيقن بنفسها، وسرعان ما نظرت لسالم ببهجة، نتيجة الفحوصات سلبية بالفعل.

أمسكت رأسها للحظة، وبدت غير مستوعبة للأمر، أتكون هلعت من رؤية الدماء وظنت أنه مصاب بسبب خوفها من المرض الذي تجابهه بكل ما تملك؟

هذا محتمل، ففي النهاية هي لم تتفحصه، واكتفت بتشخيص الحالة، ولكن إن كان الأمر كذلك فما سبب تلك الدماء؟

راحت تحملق بجدها الذي يضع يديه على فكه فيما تعتصر ذهنها، وكما إلهام ملائكي، تذكرت تشكيه من ألم ضروسه الذي لم يتوقف منذ يومها وحتى الآن، فتناولت كشافًا بحجم القلم من فوق مكتب كلير وهمست بينما تحيط صدغه:

- "سأتفقد شيئًا ما يا جدي، ابق ثابتًا".

سلطت الضوء على الضروس الداخلية بفكيه وكان وقت الإعراض قد فات بالنسبة لسالم، فلزم السكون والتعجب من أمرها.

لماذا تعاملني تلك الفتاة كما جرذ تجارب!

مضت لحظات قليلة حتى عثرت على المكان الذي تطايرت منه الدماء.

كانت لثة سالم منكمشة للغاية ونتيجة لذلك تحرك الضرس المصاب حين سعل بقوة، فسالت الدماء مع الرذاذ نحو منديله.

كم أنتِ مرتابة يا سلمى.

تركت وجهه بلطف ثم تنهدت بارتياح وهي تعلن:

- "أنت بخير تمامًا، فقط تحتاج لزيارة طبيب الأسنان".

بقي يراقبها باكتئاب بعدما خابت ظنونه، وهوت صروح أحلامه أرضًا، ألم تستطيع حتى أن تكتشف ذلك بمصر، بدلًا من سحبه حتى تلك البلاد التي تثير حنقه.

- "لنذهب للفندق يا سلمى. أريد أن أرتاح، فأنا متعب".

لفظها بصعوبة فربتت على يديه بينما تعقب:

- "لك ما تريد يا جدي، أنا أيضًا منهكة".

والتفتت صوب كلير وأضافت بامتنان:

- "شكرًا لمساعدتك، سننصرف الآن للفندق حتى نرتاح لبعض الوقت".

- "لا داعٍ للشكر، دعاني أوصلكما إلى هناك.

نهضت بحماس لتوصلهما حتى الفندق رغم أنه على بعد بضعة بنايات، وأضافت بسيرها نحو المصعد:

- "مسرورة أن النتيجة ظهرت سلبية، بلا شك أنتِ لم تهتمي بفحصه، أليس كذلك؟"

دخلت سلمى للمصعد وتمتمت بينما تفرك جبهتها:

- "الحق يقال لم أفعل، لقد سيطرت عليّ الوساوس بشدة حين رأيت بقع الدماء، إنها حالة فوبيا تصيب الطبيب المعالج، وتجعله يشك أن المرض الذي يسعى لإنهائه، يقوم بمطاردته بدوره. الموضوع يشبه خوف المطربين من الإصابة بالزكام، أو رهبة الخيالة من كسور العظام، هل تفهمين ما أعنيه؟"

توقف المصعد بالبهو فردت كلير بتحركها معهما نحو الشارع:

- "بالطبع أتفهم، فلقد حدث لي مرة أن شككت في كون خطيبي مصاب بورم سرطاني في المخ، لمجرد أنه أمسك رأسه أثناء تناول العشاء! الأمر قد يبدو لغيري مثيرًا للضحك، ولكنني أعلم أننا والمرض نتناحر، ولذا يخيل لنا أحيانًا أنه يحاول قتلنا كما نحاول قتله".

توقفوا بالشارع لحظات. كانت الشمس تميل للغروب، وكان الهواء منعشًا يريح الأعصاب، فراحت الفتاتان تتنفسان بقوة فيما تتبسمان للموقف الغريب، أما سالم فكان يشعر بالاختناق من هذا الهواء الإنجليزي.

لقد عانى طيلة شبابه بسبب هذا البلد، خصوصًا أنه ولد بفترة عصيبة من القرن الماضي، إنه يود لو ينتقل آنيًا إلى مصر، هواؤها يروقه وإن كان محملًا بكل أنواع التلوث، إنها في النهاية وطنه، وطنه الذي كان محتلًا من قبل تلك الدولة التي يقف بأحد شوارعها الآن.

بعد حين، تحركوا صوب الفندق بخطوات متهدجة، ولما بلغوه، اهتمت كلير بأمر الحجز، ونقل الحقيبة، وأوصت بتجهيز عشاء محترم، وفيما كانوا يصعدون نحو الحجرة المرادة رفقة موظف خدمة الغرف، تساءلت بهدوء موجهة حديثها لسلمى:

- "إذن، ستحضرين المؤتمر وتعودين للقاهرة؟"

أومأت سلمى برأسها وهي تبدي ملامح مضطرة.

- "نعم، فجدي ليس من هواة السفر".

توقفوا أمام الغرفة، وهناك قام الموظف بوضع الحقيبة أرضًا، وفتح لهم الباب، فنقدته كلير إكرامية قبل أن تنوه ببعض الأسف:

- "ما دمتِ مصرة على الرحيل، سأنصرف الآن لترتاحا، وسأمر عليكِ بالثامنة صباحًا لنمضي للمؤتمر، ووقتها سأخبرك بموعد رحلة العودة".

مدت سلمى يدها كي تصافحها وعقبت بتهذيب:

- "وهو كذلك، وشكرًا لمساعدتك مرة أخرى، طابت ليلتك".

سحبت يدها ودخلت الغرفة بخطى متوترة لفرط تعبها، فأضافت كلير وقد توجهت بالحديث لسالم، البادي عليه الشرود:

- "مسرورة أنكَ بخير، فالسرطان داء لا يستهان به ومن الجيد أنكَ لم تواجهه".

طالعها لوهلة ثم عقب بجمود:

- "لقد واجهت الأسوأ، صدقيني، شكرًا للطفك على أية حال".

دلف للغرفة دون أن ينتظر تعقيبها وأغلق الباب عقبه، فمشيت كلير بالرواق وقد علتها الدهشة بسبب تصرفاته الغريبة، ولكنها فسرتها بكونها الشيخوخة.

***

أوى سالم إلى فراشه تلك الليلة مُغتمًا، ومحبطًا، لقد تلاشت آماله وذهبت مع الرياح، كما ذهبت كل الأشياء من قبل. سيضطر مرغمًا أن يحيا في وحدته وذكرياته القديمة، التي لجأ إليهما ليفر من صخب الحياة الباهت، عديم الجدوى.

إنه يعاني جسديًا بسبب أمراضه المختلفة، ونفسيًا، بسبب هذا العصر الذي عُكست فيه المفاهيم، ونُسيت به التقاليد، والذي ينافي كل ما نشأ عليه.

إنه لا يستطيع التأقلم، وللأسف لم يصب بالألزهايمر وإلا لكان نسي بعض أحزانه وذكرياته، شعور الغربة الملازم له يوجعه، إنه كما سمكة مجبرة على العيش وسط سرب حَبار.

أيقظته سلمى صباحًا بنفس الوجه المبتسم الذي يهون عليه بؤسه، وقالت وهي تجذب الغطاء عنه بمرح:

- "هيا يا جدي وإلا سنفوت الطائرة، سوف تُقلع بالثانية ونصف".

اعتدل بجسده لينظر لها، وتمتم مستفسرًا:

ـ "ماذا عن المؤتمر؟"

ـ "لقد حضرته بالفعل وأنت نائم، إنها الواحدة الآن".

حاول أن ينهض بسرعة كي يتجنبا التأخير، ولكن جسده لم يساعده، فبدت حركته بطيئة للغاية، وكالعادة استغرق وقتًا في المرحاض بسبب البواسير التي يعاني منها، ثم ساعدته سلمى في ارتداء ملابسه، وتناول إفطاره وأدويته، واستغرق هذا ساعة إضافية، ما جعل سلمى تحث سائق التاكسي على الإسراع طوال طريقهم لمطار هيثرو.

وصلا متأخرين رغم كل الجهود، ولكنهما علما من موظفة الاستعلامات أن الرحلات كلها توقفت منذ ساعة لسبب غير معروف، ولوقت غير معلوم، ومنها طائرتهما العائدة للقاهرة.

نظرت سلمى للحشود الجالسة بالانتظار ومن ثم لجدها وقالت بتفاؤل:

ـ "على الأقل لم نفوت الرحلة، دعنا ننتظر".

قرب سالم ساعة يده من عينيه بمقدار إنشين حتى يرى الوقت، وحين أنزلها قال برجاء:

ـ "أيمكننا الانتظار بأي مقهى، إنه موعد قهوتي".

عقدت حاجبيها لتفكر، وسرعان ما نوهت:

ـ "لا بأس، فأنا أيضًا أحتاج لبعض الكافيين، فلقد استيقظت باكرًا".

بدآ يتحركان نحو منطقة الأسواق الحرة، وهناك وجدا المكان مزدحمًا للغاية، فلقد قرر أغلبية المسافرين أن يقوموا بجولة تسوق وتنزه حتى يسمعوا نداء طائرتهم، وبصعوبة شديدة تمكنت سلمى من إيجاد طاولة فارغة بإحدى المقاهي.

ساعدت سالم في الجلوس، وبدأت تبحث بعينيها عن النادل وسط الزحام، وحين أملت عليه الطلب شرعت تجلس بارتياح.

طالعها سالم بعينيه وندت منه ابتسامة قلما تُرسم على وجهه، وقال بعد وقت وهو يستند على عكازه:

- "أنا فخور بكِ للغاية يا سلمى، أنت فتاة مثابرة ومتفائلة كجدتك، وهذا يطمئنني كثيرًا".

شعرت سلمى بالخجل بسبب إطرائه النادر، وهمهمت بوصول القهوة:

- "أنت عودتني على هذا يا جدي".

التقط سالم فنجانه وبدأ يرتشف بتلذذ، ولم يمض كثيرٌ من الوقت حتى أقبل على طاولتهم رجلًا خمسيني العمر، يرافق والدته المسنة، وأبناءه الثلاثة إضافة لزوجته.

تساءل برجاء بالغ بينما يشير للمقعد الثالث أمام الطاولة:

- "هل يمكن لوالدتي الجلوس هنا؟ أعلم أنني أزعجكما ولكن المقهى ممتلئ كما ترون، وساقيها تعبتا بسبب السير".

نظر سالم إلى قامتها المنحنية بإمعان وسرعان ما وضع فنجانه وقال بتهذيب:

- "بالطبع يمكنها، فأنا أعرف هذا الشعور جيدًا، تفضلي".

جلست المرأة وتنهدت بارتياح، وهمست بينما تومئ برأسها:

- "أشكرك جزيلًا، أتمنى أنني لم أقاطعكما".

- "على الإطلاق، لقد كنا نحتسي القهوة، ولقد شاءت الأقدار أن تنضمي لنا".

نظرت له مليًا بوجه ملائكي يبث السكينة رغم تجاعيده الجلية، ثم قالت بتوتر وهي تلتفت لأسرتها:

- "يمكنكم إكمال التسوق دوني، لن أفوت تلك الدعوة".

غادرت العائلة ممتثلة فشبكت أصابعها الرفيعة والمُجعدة فوق الطاولة وبسطت ساقيها المتورمتين من السير وطالعت جليسيها بتفحص ودون حرف حتى عاد النادل بقهوتها.

١٩٣٩

"والعجيب أنني بتلك الظروف القاسية، أسيرُ بالطرقات الممتدة، وأقف بالنواصي لأطالعِ كل الوجوه بحثًا عنك، وحينما أفقدُ الأمل في إيجادك، أصطدم بكَ عند المنعطف القريب فأشعر أن السماء تسعدني بكَ للحظات".

من مُذكرات فيرونا جوهان

القاهرة، مصر.

أواخر أغسطس لعام تسعة وثلاثين.

حملق بقرص الشمس المتوهج، ثم تنهد بقوة فيما يجفف عرقه الغزير، وما لبث أن تفقد المنديل القماشي الذي يكسو ياقة قميصه، فقط كي يتأكد من كونه ما يزال يتشرب العرق المنساب على طول عنقه.

إنه ليس في حاجة لغسيل أي ملابس اليوم، فلسوف يعود متأخرًا، وبالكاد ستتاح له فرصة البحث عن أي نزل، هذا وإلا سينام بأي قطار مُخزن داخل المحطة.

فتح نافذة الترام المفصلية على أمل أن يتدفق إليه الهواء قبل أن يتبخر جسده، فالسحب غائبة منذ أيام، ولا يوجد سوى السماء الصافية وموجة الحر تلك، ولكن رغم كل شيء يجب على سالم أن يحافظ على مستواه في العمل.

لقد صار سائق قطار في محطة سكك حديد مصر منذ شهور قلائل، وتلك وظيفة مرموقة يطمح إليها أي أفندي، ففي الغالب تحصل الأقليات الأجنبية على المراكز الأفضل كل موسم تعيين.

شعر بالترام يُبطئ من حركته بسبب الزحام الكثيف، فنهض بخفة وقفز للخارج مُقررًا أن يسير حتى المحطة كي يتجنب التأخر عن موعد نوبة العمل.

مشى بخطوات واسعة وسط الأفواج المتباينة الملامح، ففي تلك الآونة، هناك ما يقارب عشرات الجنسيات تلوذ بأرض مصر بحثًا عن العمل والاستقرار، ولعل ذلك هو السبب في تسميتها بأم الدنيا، ولكن بقي كل إنسان يرتدي وفق ثقافة بلاده وأفكارها.

الملابس قد تخدع أحيانًا، ولكن القبعات بتلك الآونة، تعتبر ورقة انتماء غير مصرح بها حكوميًا، ويمكن للعامة بسهولة بحتة أن يعرفوا من خلالها التركي من الإنجليزي، وملاحظة الهندي، والأوروبي.

الإنجليز مثلًا يفضلون ارتداء القبعات العالية، أما الفرنسيون فيكتفون بقبعات قماشية مدببة، فيما يلجأ الإيطاليون للنوع الدائري المتوسط الارتفاع، ويلوذ الأتراك بالطربوش، ويتزين الهنود، والإفريقيون بالعمامات.

لم يكن سالم مائلًا لأي ثقافة أخرى سوى الخاصة ببلده، وكذلك لم يكن يرتدي أي شيء إلا إن كان صناعة محلية.

بذلك اليوم، كان يرتدي سروالًا قطنيًا، وقميصًا قصير الأكمام، وبدت قامته المتوسطة مفعمة بالنشاط، فيما وجهه البيضاوي وعيناه البنيتان في أوج نضارتهما. شعره الأسود كان مُسرح بعناية، وحذائه يلمع بشدة يكاد يعكس أشعة الشمس.

لقد تخرج من الأزهر قبل عامين، وصار شابًا محملًا بمشاعر جياشة تنصب كلها في دائرة حب الوطن بجميع ملامحه، وكره المستعمر بكافة أفكاره وحداثته، ولكن الأمور تغيرت قليلًا منذ توقيع المعاهدة المصرية - البريطانية.

كان من بنود تلك المعاهدة، أن تسحب بريطانيا قواتها التي تمركزت بمصر عقب الحرب العظمى، ما عدا قوات الحماية التي تؤمن المواصلات، وقناة السويس، وأن تدافع عن مصر في حالة الحرب، ولقد بدأ سالم يرى أن البلاد بتلك الآونة في حاجة للمستعمر الذي يبغضه على عكس ما تعلم وما يريد.

خصوصًا، أن الجيوش الإيطالية المنتشرة على حدود ليبيا قد تشكل خطرًا داهمًا، وما يزيد الطين بلة هو دخول موسوليني؛ الزعيم الفاشي، فيما يدعى ميثاق الصلب مع هتلر منذ شهرين تقريبًا، وهذا يعني أن البلدين ستعملان معًا في ظل أي حرب وشيكة، ومصر لن تحتمل الدخول في حرب مع دول عظمى.

حال مصر كما أغلب دول المنطقة، ما تزال تعاني من خسائر الحرب العظمى، وتحاول أن تتماثل إلى الازدهار.

توقف عن السير حين بلغ ميدان النهضة -رمسيس حاليًا- وطفق ينظر للساعة الكبيرة بمبنى محطة مصر، وحين وجدها التاسعة؛ تنفس الصعداء، فما زال لديه فسحة من الوقت قبل بدء نوبة عمله.

خطى للداخل بتريث فيما عيناه تجوسان بصالة القطار، هناك الكثير من الجنود البريطانيين، وأغلبهم يحمل المخل، هذا يعني أنهم حديثو الوصول.

أسرع الخطى حين لمح ناظر المحطة يقف على مقربة، بقامته القصيرة، ورأسه الأصلع الذي لم يفلح الطربوش في إخفائه، وحين بلغه بادر قائلًا:

ـ "السلام عليكم يا أمين أفندي".

التفت أمين بتمهل نحو الصوت، وحين لمح سالم يقترب منه مبتسمًا، التقط ساعة جيبه المتدلية كي ينظر بها أولًا، ثم قال بنبرة باردة وهو يُعدل طربوشه:

ـ "وعليكم السلام يا سالم أفندي، اذهب للمكتب كي تعرف أين سيتجه قطارك".

قال سالم ببسمةٍ واثقة، وهو يرفع صوته قليلًا كي يسمعه رغم الصخب المحيط:

ـ "إلى الإسكندرية، وسيتحرك بالعاشرة".

نظر أمين صوبه ثم عقد يديه خلف ظهره وبدأ يتجه للرصيف القريب.

ـ "آه، هذا يعني أنك ستزور شقيقك قبل أن تعود بقطار التاسعة مساءً".

هز سالم رأسه بالإيجاب، ونظر نحو الأفق، كان هناك قطار يقترب بإسراع، ولم يكف عن إطلاق النفير حتى توقف أمامهما.

لم يكن على متنه سوى طغمة من المدنيين، وكانت البقية كلها من الجنود الذين يرتدون الشورتات، والأقمصة القصيرة الأكمام.

مكث يطالعهم بوجل، كل هؤلاء لا يمكن أن يكونوا هنا لأجل تأمين المواصلات والقناة، إنهم أقرب ما يكونون لجيش كامل، لا ينقصه سوى الدبابات والطائرات.

كانوا متلاصقين جوار بعضهم البعض في العربات، ولكنهم لم يبدوا مبالين بضيق المسافة، عيونهم تُبدي وميضًا غريبًا، كما لو أنهم مسيرين دون إرادة كما الآلات.

كلا، كلا، لا تهلع.

لم يبال بخواطره واستفسر في دهشة يشوبها بعض القلق:

ـ "لم أعداد الإنجليز كثيرة هكذا؟"

عدل أمين نظارته السميكة فيما ينظر للجنود وقد اصطفوا بطول الرصيف، منتظرين قطارًا آخر ينقلهم، عوضًا عن ذلك المتكدس.

ـ "إنهم يتوافدون منذ الصباح ويتخذون قطارات مختلفة ولا أحد يدري ماذا يحدث".

شعر سالم بانقباض في قلبه، ودام يحملق بالأفواج وقد شرد في التفكير، جزءٌ منه يدري السبب، زيادة أعداد الجنود يعني زيادة الخطر.

تحرك دون حرف غير مبالٍ بالتعقيب، ومشي ساهمًا خلف الصفوف التي تلبس الزي الكاكي والقبعات الحمراء. كم يبغض رؤيتهم، وكم يرجوا رحيلهم عن البلاد. في البداية كان العثمانيون يديرون كل شيء، ولكن بعد تفكيك الإمبراطورية العثمانية عقب الحرب العظمى، تربص هؤلاء ببلاده، ورفعوا شعار حماية الشعب، ولكن كل هذا لا يتعدى كذب سياسي، فالكل يعلم أنهم محتل جديد.

شعوره ينذره أن القادم أسوأ مما مضى، ولكنه يمني نفسه باحتمالية خطأ أحاسيسه.

سيتحدث لحسين شقيقه فور بلوغه الإسكندرية، بالتأكيد لديه أخبار.

***

بعد الظهيرة، هرع حسين من مطعمه الواقع قرب ميناء الإسكندرية نحو الشارع، وظل يتابع الشاحنات الكبيرة التي تحمل الجنود الإنجليز، والدراجات البخارية التي تحيطها في تعجب ووجل.

كان ذا شعر أسود متوسط الطول، ولديه عينان عسليتان، وشارب كثيف مهندم بعناية، وكان رغم كونه لم يحصل على الشهادة التوجيهية، يتحدث لغات شتى.

لم يكن أمر التعلم صعبًا، فهناك العديد من الجنسيات تسكن بالإسكندرية منذ عقود، وبسبب التعايش والتواصل تمكن من تعلم اللغات بسهولةٍ ويسر، لجانب بناء علاقات متنوعة داخل الجاليتين اليونانية والفرنسية.

مشي بحذر حين مر الموكب قاصدًا دكان بقالة يقع على الجانب الآخر من الطريق، ولما دلف إليه ظل ينظر للخضر والفواكه المصطفة، وبادر بعد لحظات حين ظهر المالك:

- "كيف الحال يا سيد ماركو؟"

وضع ماركو جريدة الإيجيبشان جازيت من يديه، ونظر نحو حسين بهلع، ثم أجاب وهو يرفع يديه نحو رأسه:

- "الجحيم بدأ بالفعل".

عقد حسين حاجبيه وتمتم:

ـ "أي جحيم يا رجل؟ هل بدأت تهذي من الحر؟"

تحرك ماركو نحوه بسرعة لا تناسب سنه، وقال بنبرة غاضبة:

ـ "الأوضاع غير مستقرة، وإذاعة لندن والصحف تنقلان منذ الصباح أحداث توسعات هتلر، لقد غزا النمسا، وتشيكوسلوفاكيا، ويتجه الآن نحو بولندا. إن فعل فيها أي شيء ستقوم الحرب، لأن مهاجمتها خرقًا لبنود الهدنة".

صمت هُنيهة ليزدرد ريقه ثم أضاف وهو يتهاوى فوق المقعد:

ـ "الإيطاليون يتقدمون في ليبيا، وتلك الشاحنات التي تراها تنقل جنودًا متجهين للحدود، جنودٌ جاؤوا عبر البحر من بريطانيا. الإيطاليون قد يدخلون البلاد في أية لحظة الآن".

ابتلع حسين ريقه هو الآخر ونظر بالأرجاء في هلع، وفي تلفته لمح سالم يقف أمام المطعم بالجهة المقابلة، فركض نحوه بسرعة البرق، وحين أدركه نسي كل شيء.

بادره بينما يفتح ذراعيه:

ـ "مرحبًا يا سالم".

غمره في مودة، وحين تراجع بدأ يلاحظ عبوسه المرتسم على وجهه، فأضاف بنبرة قلقة وهو يمسك يديه ويسير به لداخل المطعم:

ـ "ماذا هناك؟ إنها المرة الأولى التي أراك بها عابسًا، أهناك مشاكل بالعمل؟"

لم يجب سالم بحرف، فأردف حسين بتربيته على كتفه:

ـ "أنت تعلم أن المطعم ملكك مثلي تمامًا، ويمكنك القدوم لبيت..."

قاطعه سالم بإشارة من يده وقال:

ـ "لا يوجد مشاكل بالعمل، لقد رأيت جنودًا كثر منتشرين بمحطة مصر وإسكندرية، وأشعر أن هناك خطب ما".

ضحك حسين رغم خوفه وقال مُهونًا:

- "لا تقلق من بعض الحرص، فمن المستحيل أن تقوم الحرب مرةً أخرى. الآن دعنا نذهب للمنزل، فلا بد أنكَ ستعود بالمساء كما العادة".

تشمم سالم ثيابه فوجدها تعرقت بالفعل وتحتاج للتبديل، فنهض ممتثلًا وخرجا للطريق، وكان طوال سيرهما لحي الإبراهيمية حيث منزل العائلة، يسحب الهواء بقوة ويطرده، محاولًا أن ينظف رئتيه بالهواء المنعش القادم من البحر، في حين مشي حسين لجواره مبتسمًا رغم قلقه العارم.

قد تتغير الأمور بصورة جذرية، ولكنه يأمل أن تكون بريطانيا قوية لتحتمل تغيرًا مثل هذا.

***

مدينة ويستمنستر، بريطانيا.

pm١٢:٥٧

فتح عينيه الزرقاوين فزعًا، وأطلق صرخة مرتفعة، ثم راح ينظر حوله ليتفقد مكانه، كانت عينا روبرت فيلد رغم كونهما خدرتين، تتفحصان مساحة الغرفة بدقة وذُعر، وسرعان ما قرر أنها غرفته الخاصة.

تنفس: "إنه مجرد كابوس آخر".

نهض عن الفراش الناضح بعرقه فيما يفرك شعره الأشقر القصير، وبدأ يشق طريقه نحو الستائر ليرفعها، وكانت قدميه لا تنفك تصطدم بزجاجات الخمر التي استهلكها البارحة.

فجا النافذة وطل برأسه منها، وبقي ينظر للمارة بعينين ساهمتين.

لقد اشتاق للندن كثيرًا بسبب تغيبه عنها طيلة الفترة الماضية، ولكن لا بأس، فهو الآن بفترة إجازة يمكنه فيها أن يعوض نفسه، كما إنه بحاجة للراحة بعد مهمته الأخيرة.

دقت ساعة بيج بين، وكان صداها يدرك منزله، فوقف ينصت للدقات وهي تُسمع مدينة ويستمنستر بأسرها قبل أن يتحرك نحو خزانة الملابس ليخرج حُلته الرسمية.

إنها الواحدة ظهرًا، ويجب أن يكون على أهبة الاستعداد فلديه استدعاء هام.

لم يكد يغلق آخر زر حتى سمع نقرات على باب شقته، فتحرك نحو الخارج بينما يهندم نفسه، وحين اطمأن لمظهره، فتح الباب بهدوء.

وجد جنديين يقدمان له التحية العسكرية فور أن رأياه، وقال أحدهما بصوت جهوري:

- "حضرة الرقيب روبرت، نحن جاهزان لنقلك".

أدى روبرت التحية وقال بهدوء فيما يخرج سجائره:

- "استرح أيها الجندي، أتدخن؟"

هز المجند رأسه بالنفي، وتبعه الآخر، فأشعل روبرت سيجارة لنفسه، وبدأ يهبط الدرج نحو الأسفل بتثاقل، وحين بات أمام باب البيت الخارجي تلفت يمنة ويسرى كما اعتاد، ولما اطمأن أنه ما من مترصدين بالجوار بدأ يتحرك نحو سيارة سوداء من ماركة آستون مارتن، لها أبواب تفتح للوراء، وكشافات أمامية كبيرة.

تبعه الجنديان، وبغضون ثوانٍ قلائل جلس أحدهما قبالة عجلة القيادة وأدار المحرك وشرع يقود، فأغلق روبرت زجاج النافذة.

كل الأشخاص يطالعونه بفضول، ولا شك أنهم يرغبون بإجابات تهدئ تساؤلاتهم عن تطور الأحوال، ولكنه لا يعرف شيء، فلقد منعه تواجده بمستعمرات الهند طيلة الأشهر المنصرمة، عن متابعة مستجدات الأمور.

إنه بطريقه ليعلم.

فتح نافذة السيارة وألقى عقب سيجارته، وصوب عينيه ناحية نهر التايمز الذي ظهر بالقرب، وبدا عليه الشرود حتى توقفت السيارة وانتبه لما يجري.

رفع رأسه فشاهد ساعة بيج بن وحينها أدرك أنه بات أمام قصر ويستمنستر.

ترجل من العربة، وشرع يتحرك مع الرجلين نحو القصر، وهناك أظهر أحدهما بطاقة ما ليدخلوا، كان الأمن مشدد بالداخل أكثر من الخارج، وكان الجميع في حالة حركة لا تهدأ، بدءًا من الموظفين وحتى القيادات العليا.

كانوا أشبه بجيش من النمل، ما أثار تعجب روبرت الذي بدأ هو الآخر يشعر بالفضول، ويطرح الأسئلة بعقله، إنه لم يبصر تلكم الحركة والتجهيزات الأمنية منذ الحرب العظمى.

توقفوا أمام غرفة ما، وطرق أحد الجنود الباب ودلف للداخل، ثم عاد بعد مضي دقيقة.

- "تفضل بالدخول يا رقيب روبرت".

دلف روبرت ببطء، وأدى التحية العسكرية لرجل رفيع القامة، رمادي الشعر، يقف أمام النافذة وقد عقد يديه خلف ظهره، فالتفت الرجل بتمهل وأدى التحية له، ثم أشار نحو مقعد أمام مكتبه.

- "استرح أيها الرقيب، هل ترغب بشرب شيء؟"

أجاب روبرت وهو يسير ليجلس:

- "كلا يا سيدي، أنا بخير".

توجه القائد ناحية مكتبه بخطى ثابتة، وفتح درجًا غائرًا حين جلس قبالة روبرت، والتقط منه كأسين صغيرتين للغاية، ومن ثم بدأ يخرج علبة خمر من جيب حُلته، وعقب وهو يملأ الكأسين:

- "يمكنك دعوتي جنرال طومسون، وأنا أريدك أن تكون مرتاحًا أيها الرقيب، كما أريدك أن تعلم شيئًا واحدًا".

تساءل روبرت وهو يلتقط الكأس:

- "وما هو يا سيدي؟"

أجابه طومسون فيما يفتح ملفه:

- "أنا أعرف عنك كل شيء".

ابتلع روبرت ريقه، وقال بنبرةٍ دبلوماسية وهو ينظر لملف خدمته المبسوط أمامه:

- "أتمنى أن تكون معجب بما عرفته يا سيدي".

ابتسم القائد وتجرع الكأس دفعة واحدة ثم نهض ليسير بالأرجاء.

- "أنت رقيب بسلاح الجو البريطاني الملكي، ولقد أديت كافة المهمات التي أوكلت إليك في إفريقيا، وأوروبا، والهند ببراعة وحزم. ولكنك لم تحصل على ترقية منذ

سنوات لأنك تخرق القوانين كثيرًا، كما أنك عصبي وسريع الانفعال، ودائمًا تفتعل المشاجرات مع أي أحد حتى الأعلى منك رتبة".

رانت لحظات صمت ثقيلة كان روبرت قلقًا حتى النُخاع خلالها، ولكن قلقه تبدد حين أضاف طومسون وهو ينتقل ليجلس أمامه مباشرة:

- "أظنني معجب بلا شك أيها الرقيب!"

بدأ يسكب كأسين أخريين ثم أضاف بنبرة متفهمة بينما يمد الكأس نحو روبرت:

- "الحرب تعبث بعقولنا أحيانًا حين نخوضها، ولهذا أنت تشرب كثيرًا وبالتالي تفقد السيطرة".

بدأ روبرت يرتشف ببطء وسرعان ما قال بنبرة واجمة:

- "الضمير هو ما يجعلني أشرب يا سيدي، لقد قتلت المئات ولا أدري هل كانوا يستحقون الموت أم لا، لقد قصفت بلاد وحقول خضراء، ورأيت رجالًا صالحين يتحولون لمتعطشي دماء ويركضون خلف الدمار، وليس السلام، وأخشى أن أصير مثلهم، هذا إن لم أكن صرت بالفعل. الحرب لا تعبث بعقولنا وحسب، إنها تعبث حتى بشخصيتنا، الحرب تحولنا من بشر إلى شياطين".

عقد القائد حاجبيه وقال بصرامة:

- "نحن نريد حماية بريطانيا وشعبها، والرب والملكة يباركان مسيرتنا، فلم تنعتنا بالشياطين؟"

ابتلع روبرت ريقه وتمتم بصراحة لم يستطع كبحها:

- "لأن العدو يحمي أرضه وشعبه كذلك، ويظن أن الرب يبارك مسيرته، لا يمكن أن نكون نحن والعدو ملائكة، جميعنا شياطين يا سيدي، شياطين تحول الأخضر ليابس، وتجلب الدمار أينما حلت!"

نهض طومسون وقال بلهجةٍ غاضبة:

- "إن سمعك أحدهم وأنت تتحدث هكذا سيظن أنك لست وفيًا لجلالة الملكة، ولا للقسم العسكري، فأحسن اختيار ألفاظك أيها الرقيب!"

صمت هنيهة ليطلق تنهد طويل ثم أضاف بنبرة سريعة:

- "هناك العديد من الأمور التي طرأت أثناء سفرك، لقد تحالفت اليابان وإيطاليا مع ألمانيا وقاموا بتشكيل قوات المحور، ولقد بات هتلر قويًا بعد إقناعه للألمان على مختلف أعمارهم بضرورة استعادة الأراضي المأخوذة منذ الحرب العظمى، مثل دانزينج، كما أنه قام بغزو النمسا ثم تشيكوسلوفاكيا ليوسع حدوده، ومصادرنا تقول بأن رئيس الوزراء الألماني أجرى تحالف مع ستالين، الزعيم السوفييتي".

فغر روبرت فاه وقال في دهشة:

- "ولكن هتلر يكره الشيوعية، فكيف يتحالف مع ستالين؟"

- "لأن روسيا تريد بعضًا من بولندا، وتفضل أن تتحالف مع الفيرماخت* بدلًا من قتالهم، وموسوليني من ناحيةٍ أخرى يوسع دائرة الإمدادات بإفريقيا، لقد غزا إثيوبيا ووضع قواته بها، وهناك قرابة ربع مليون جندي في طبرق الليبية، غير الجنود في الصومال".

ارتمى طومسون فوق المقعد وبدأ يجفف عرقه ويلتقط أنفاسه، ثم استطرد:

- "توسعات هتلر في الغرب يتم دعمها بالموارد المجلوبة من إفريقيا، وأنت تعلم أن بمصر ثلاثة موانئ عميقة، بالإضافة لخط سكة حديد يربط السويس بميناء حيفا في فلسطين، ويمتد كذلك للسودان، ناهيك عن الأيدي العاملة، إن حاز على مصر فقد تميل له كفة الحرب".

شَحب وجه روبرت وتساءل في خشية رغم أنه يخمن الإجابة:

- "وماذا سنفعل إن تقدم موسوليني من طبرق نحو صحراء مصر؟"

- "مصر قاعدة عسكرية كبيرة بالنسبة لنا وهي تحت الحماية بموجب وثيقة عام ٣٦، وأي اعتداء عليها يمثل اعتداء على بريطانيا، وكذلك لا يمكننا السماح له بغزو دانزينج، ففرنسا ستعتبرها خرقًا لمعاهدة فرساي*".

كان لمدينة دانزينج موقع استراتيجي ممتاز، فهي تمثل نقطة وصل بين ألمانيا وروسيا، وتحتوي كذلك على ممرٍ مباشرٍ لبحر البلطيق، ولذا لم يكن لدى روبرت شك في كون بريطانيا ستعترض على غزّوها، فهي مهمة لحركة الملاحة كما قناة السويس، وكذلك ستفعل فرنسا، وخصوصًا أن الاتفاقية وقعت بأراضيها.

همهم بصوتٍ مبحوح:

- "أتعني أننا قد نخوض حربًا يا سيدي؟"

هز طومسون رأسه بالإيجاب، وقال بصوتٍ رخيم:

- "هناك جنود الآن بمصر يعيدون تجهيز المنشآت العسكرية التي تركناها بعد الحرب العظمى من مطارات وطرق، وآخرون يبنون ورش عمل، ومستودعات ذخيرة، وخطوط اتصال، ومحطات تحلية مياه داخل الصحراء، كما أن قواتنا بدأت تتشكل مع القوات الفرنسية، الحرب قادمة يا بني ويجب أن نتأهب لها بكل وسيلةٍ ممكنة".

دفن روبرت وجهه بين يديه ولزم الصمت، فأضاف طومسون:

- "أنت بإجازة حتى تصدر أوامر جديدة، لذا احظ ببعض الراحة أيها الرقيب، فقد تحتاجها مستقبلًا".

ترك روبرت مقعده، وأدى التحية العسكرية، وبدأ يغادر ونبض قلبه يتسارع كمحرك الطائرة، وكانت راحتاه تتعرقان بشدة.

إنه يعلم كم الفظائع التي جرت بالحرب العظمى وإن لم يخضها، ولا يتصور أنه قد يشارك بمثيلة لها.

خرج من القصر شاردًا ومكتئبًا، وظل يتحرك بخطى ضيقة حتى توقف أمام ضفة النهر، وهناك التفت لينظر المارة، وكادت عيناه تدمعان وهو يطالع الأزواج السعداء، والأطفال الصغار.

تلك الحرب لن تكون بين جيشين في العراء، وإنما ستكون بين دول عظمى، وسيكون ميدان الحرب العالم نفسه.

إن قامت حربًا عالمية ثانية بين دول المحور والحلفاء فالكل سيتأذى حتى المدنيين.

***: اسم القوات المسلحة الألمانية منذ عام ٣٥، وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية.**

***: معاهدة أجريت بين الحلفاء والمحور -ألمانيا، النمسا، الدولة العثمانية- بعد الحرب العظمى، وكان من بنودها اقتصاص دانزينج من ألمانيا ووهبها لبولندا.**

أيما كانوا، وأينما كانوا.

***

ألقت جريدة التايمز بحركة عصبية، فتطايرت الأوراق حولها للحظات قبل أن تهبط نحو أرضية الشقة الإنجليزية الرونق فتكسوها، ولم تهدأ فيرونا جوهان رغم هذا، بل ظل وجهها البيضاوي ينكمش حول أنفها المرتفع الأرنبة في نفور، وأخذت عيناها الخضراوان تضيقان وتلمعان بوهج ساخط.

لقد مرت أسابيع وهي تتعرض للمعاملة العنصرية، سواء في العمل أو الحي الذي تقطن به في ويستمنستر، ومما قرأته، باتت متيقنة أن التصرفات العدوانية لن تتوقف، بل ستزداد حدة.

إنها تتعرض للمضايقات بسبب جنسيتها الألمانية التي لم تخترها، وبسبب أهداف الحزب النازي الذي لم تبال بالتصويت له.

لقد تركت ألمانيا منذ سنوات واستقرت في لندن، وبعد أعمال متنوعة كموظفة استقبال، ومندوبة مبيعات، وعناء يسلب الروح، حصلت على وظيفة في عيادة شهيرة تقع على بُعد بضعة أحياء من شقتها المستأجرة.

لم يكن الأجر بخسًا فالطبيب معروف، ويربح جيدًا، ومن الحين للآخر كانت تترك عملها المكتبي وتسانده بمهمات التقطيب العاجلة، أو تُرسل بواسطته لرعاية أحد المرضى المسنين مقابل مبلغ محترم.

عشقت تلك المهنة، ووجدت فيها غايتها السامية، ولكنها رغم ذلك لم توفر أموالًا تذكر لكونها من هواة التسوق، والتنزه، ولم يحدث قط أنها حرمت نفسها من شراء شيء تريده، ولكن يبدو أن أيام الترف ستمضي بلا رجعة.

نهضت في كسل واضح يصاحبه تردد، واتجهت لغرفتها، وهناك بدأت تُبدل ثيابها وتصفف خصلها الشقراء حتى تستعد للعمل، ولم تمض عشر دقائق حتى غادرت الشقة وقد ارتدت فستانًا مزركشًا يضم تصميمه قطنًا مستوردًا من مصر، وحريرًا تُركيًا.

مكثت تنقر الأرض بحذائها ذي الكعب العالي حتى أدركت الشارع، ومن ثم استقلت سيارة أجرة.

أملت على السائق وجهتها، وأخرجت من حقيبة يدها مرآة صغيرة وانهمكت في تعديل زينتها لتتوقف عن التشاؤم، وحين قال السائق بالوصول شعرت بالخوف على غير العادة، كما لو أنها تبدأ العمل للمرة الأولى، ولكن هذا لم يمنعها من الصعود، فهي بطبيعة الحال أنثى مقاتلة، وتفضل أن تواجه المخاوف بدلًا من الهرب منها.

كان هناك فتاة أخرى تعمل لجوارها في الفترة الصباحية، ولم تكد فيرونا تضع يدها بشقة العيادة حتى وجدتها تنظر لها في ازدراء، وسرعان ما تمتمت بنفور:

ـ "لقد تأخرت عشرة دقائق، أنا أعمل في مناوبتكِ الآن ولدي موعد مهم".

علقت فيرونا حقيبة يدها على مشجب قريب وقالت وهي تضم يديها:

ـ "اعذريني، فلم أتعمد هذا".

لم تبال الفتاة بالاعتذار وهمهمت وهي تسير للخارج:

ـ "نازية لعينة!"

ابتلعت فيرونا الإهانة وبدأت تطالع المرضى المتواجدين ببهو العيادة حتى خرج الطبيب وقال آمرًا:

ـ "أدخلي المريض التالي يا فيرونا".

ركضت فيرونا صوبه ولحقت بالباب قبل أن يُغلق وسألته بتمتمة راجية:

ـ "سيدي، ماذا فعلت لأجلي فيما يتعلق بأمر المشفى؟"

نظر لها الطبيب شزرًا بعينيه، وأجاب وهو يرتب أدواته:

ـ "لقد حاولت أن أجد لكِ عملًا هناك، ولكنهم لم يقبلوا بتوظيفكِ؛ فأنت ألمانية".

نطق جملته الأخيرة وكأنها تهمة لا تغتفر، فنظرت فيرونا لأسفل وقالت بضيق:

ـ "ولكنني مجرد فتاة تسعى لكسب قوت يومها، أنا لا أحارب مع هتلر، أنا أساهم في إنقاذ المرضى أيًا كانت جنسيتهم".

زفر الطبيب وعقب وهو يهز رأسه:

ـ "أعلم هذا، ولذلك لم أفصلك كما يفعل الكل بتلك الآونة، فأنت تعملين لدي منذ سنتين ويزيد، ولكن بخصوص المشفى أخشى أنني لا أستطيع مساعدتكِ".

أومأت برأسها متفهمة وعادت للخارج لتطالع تسلسل المرضى بعينين تكادان تبكيان، وبصوتٍ خفيض كانت تنازع لتُخرجه، نطقت الرقم التالي في تسلسل المرضى، وظلت كذلك حتى انتهت نوبة العمل، وكان المساء قد حل منذ ساعات.

خرج الطبيب من غرفة الكشف، وكان قد أعد لها ظرفًا به الأجر الخاص بشهر أغسطس، فتناولته منه شاكرة، وبدأت تدسه في حقيبة الكتف قبل أن ترتديها، وحين أغلقا العيادة وهبطا للطريق سلك كلٌّ منهما طريقًا مُختلفًا.

قررت فيرونا أن تتمشى رغم إرهاقها، حتى تمنح نفسها مهلة للتفكير في تطورات الأمور، فظلت تسير بين الطرقات تجاه الجادة التي تقطن فيها بقلب محمل بالكمد، وعقل مشتت، وملامح متجهمة، وحين لمعت أضواء حانةٍ ما بالطريق، لم تتردد لحظات في الدخول إليها كي تشرب قنينة جعة.

هناك، تفاجأت أن المكان مكتظٌّ بالجنود وفتيات الليل، ولكنها لم تحتمل قرار البحث عن حانة أخرى، فجلست على مقعدٍ مقابل للبار وطلبت زجاجة الجعة من الساقي.

جلب لها طلبها بغضون ثوانٍ، ووقف يُلمع الكؤوس، وظلت هي ترتشف فيما عيناها تجوسان بالحانة التي فاضت ببائعات الهوى والجنود السكارى.

رائحة التبغ والخمور تطغى على كل شيء هنا، وبالكاد تستطيع سحب أنفاسها، لا سيما أنها تخوض حالة نفسية حرجة.

في ذات الحانة، كان روبرت يجلس منفردًا كما عادته المنطوية، وكان قريب منها بما يكفي لتستفسر منه عن تطور الأوضاع، فمن ملابسه باتت تعلم أنه بالجيش.

اعتدلت بجلستها لتنظر نحوه، وترددت كثيرًا في سؤاله، ولكن فضولها تكفل بجعلها تنهض حتى طاولته.

ـ "معذرة، ولكن هل ستقوم الحرب حقًا؟"

قالتها بسرعة وظلت تنظر له بوجهٍ متوتر، فرفع روبرت رأسه ببطء ودام يطالعها بعينين مغمومتين طويلًا، حتى تمتم باقتضاب وهو يضع كأسه الفارغ على المنضدة:

ـ "هذا صحيح".

صُدمت فيرونا وبقيت صامتة لوهلة ثم همهمت مجددًا فيما يعيد ملء كأسه:

ـ "برأيك من سيربح الحرب؟"

ابتلع روبرت جرعة الشراب دفعة واحدة وأجاب وهو يضحك مستهزءًا:

ـ "لا أحد بالطبع، فالكل يخسر ولكن بنسب متفاوتة. الحرب ليست مباراة كرة أو ملاكمة، إنها نهاية كل شيء جميل".

دام الصمت طويلًا، وكانت فيرونا في أقصى حالات الخوف لدرجة أنها تجرعت القنينة دفعة واحدة، وظلت تنظر للفراغ وتتخيل ما سيجري لها إن بدأت الحرب وهي ببريطانيا، وبينما هي كذلك شعرت بيدٍ تمسك كتفها، فالتفتت فزعًا وأطلقت شهقة مرتفعة، ولكن ذاك الجندي الذي حسبها فتاة ليل لم يتراجع وبادرها بينما يترنح:

ـ "مرحبًا أيتها الحسناء، هل أدعوك لشراب؟"

نظرت فيرونا أمامها وأجابت بلهجة راجية وهي تنزع يده عنها:

ـ "دعني وشأني".

لم يبال بما قالته ومد يده ليضعها على كتفها من جديد بينما ينوه باستماتة:

ـ "هيا يا فتاة، سنحظى بوقتٍ جيد".

تقدمت فيرونا بجسدها لتفلت من يده، فوقف روبرت وقال بلهجة صارمة:

ـ "لقد رفضت طلبك أيها المجند فابحث عن أخرى، لا أريد إزعاجًا حولي".

لم يميز المجند رتبة روبرت لفرط ثمالته فأخذ يقترب من فيرونا بإصرار، وهنا تذكر روبرت الفظائع التي حضرها بالهند، من اقتحام وسلب، وتحرش ونهب، وقتل واغتصاب.

استبد الغضب بعقله، واندفعت الدماء لرأسه كبركان ثائر، فالتقط قنينته وهوى بها على رأس المجند، فتطايرت دمائه على الفور، وسقط مغشيًا عليه.

أصيبت فيرونا بالفزع حينما تناثرت بقع الدماء على ملابسها، وحدقت في روبرت بعينين خائفتين، ومندهشتين، وحين شعرت أن الأفراد بالحانة انتبهوا لما يجري، وكذلك الشرطي الذي يهرول نحوهما من منتصف الشارع، التقطت يده وركضت به نحو الخارج قبل أن تصل الشرطة ويحدث تحقيقًا يكتشف فيه جنسيتها التي تجاهد في إخفائها.

كان المفترض أن تتركه وتهرب، ولكنها ظلت تعدو به حتى بلغا زقاق مظلم، وكانت صافرة الشرطي تنادي على بقية زملائه القريبين، ولم تمض ثوانٍ حتى ارتفعت عدة صافرات مُلبية.

طفقت عيناها تنظران نحو الطريق في تحفز رغم قلة الضوء، فسحب روبرت يديه من كفها وهتف بغيظ:

- "لماذا ركضتِ بي هكذا؟"

وضعت يدها على فمه بسرعة وعادت تثبت عينيها على الطريق.

- "هوش، لا تتحدث فلقد جلبت لنا المشاكل".

أفلت روبرت من يدها وعاد يصيح فيما يتمايل:

- "لقد ساعدتكِ أيتها الناكرة للجميل، أنت جلبتِ لنا المشاكل حين دخلتِ حانة لا يرتادها إلا الساقطات والجنود".

كان صوته مرتفعًا لدرجة أنه بلغ أفراد الشرطة الذين يمشطون الطريق المضيء، فبدأوا يخرجون مصابيحهم اليدوية ويتوجهون نحو الزقاق المظلم ليفحصوه، وكان روبرت لا يزال يصيح غير مكترثٍ ولا واعٍ.

"تصرفي وإلا ستهلكين".

أمسكته من كتفيه حين اقترب أفراد الشرطة ودفعته للحائط، وحين بلغتهما أضواء المصابيح كانت قد أحاطت وجهه براحتيها وأخذت تُقبله دون توقف.

نظر الشرطيون لبعضهم البعض وسرعان ما غادروا، فهو أمر معتاد أن يرافق الجنود فتيات الليل، ويأتون بهن للأزقة المظلمة لأجل معاشرة سريعة.

بقي روبرت ملتصقًا بالجدار، لا يُبدي أي مقاومة رغم أنه فوجئ، وحين تراجعت فيرونا بشفتيها بدأ يفتح عينيه وينظر حوله كأنه استفاق من سُكره للتو، ولما لاحظ انسحاب الشرطة عند مقدمة الشارع، تفهم الدافع وراء فعلتها فلزم الصمت ولم يُعلق.

تنهدت فيرونا بقوة ثم تلفتت بالأنحاء، وحين اطمأنت أن الخطر قد زال، قررت أن ترحل بسرعة بسبب خجلها الناجم جراء فعلتها الارتجالية.

هرولت للطريق دون وداع وبلا تنويه، تاركةً روبرت ساكنًا في الظلام، يتحسس شفتيه بابتسامة واسعة.

***

مدينة خانيا، جزيرة كريت، اليونان.

هبت الرياح نحو غرفتها وقد حملَت رائحة البحر، فنهضت من فوق فراشها مبتسمة رغم أنها لم تحظ بكثيرٍ من النوم، وسرعان ما توجهت للشرفة بخطى متعثرة فيما تفرك عينيها العسليتَّين.

كان القمر ساطعًا تلك الليلة فوق العادة، ولأن سماء جزيرة كريت بدت أكثرُ صفاءً كان من اليسير رؤية ملايين النجوم البراقة بأرجائها، كانت خلابة بإفراط كما مصابيح متناهية الصغر تكاد تنير كل شيء، لدرجة أن كارلا أليخاندرو تمكنت من رؤية حواف الجزيرة وصخورها المدببة، التي زينتها الطحالب الخضراء.

فيما تفرك خُصلات شعرها البُنية المموجة كأمواج من الشوكولاتة، نظرت للبستان المحيط بمنزل العائلة في فرح وبهجة يرتسمان على وجهها الماسي ذي النمش الخفيف، فلقد تمكنت اليوم من غمره بالمياه قبل أن ينحسر الموج.

كان البستان الأمامي يضم أشجار معينة من أنواع الزينة والنخيل، لأنهم لا يموتون بسبب الملوحة الزائدة في الماء، فيما تُسقى المحاصيل المزروعة خلف المنزل بمياه الآبار المتناثرة بطول الحقل، وكان هناك حظيرة واسعة لجانب البيت، وفيها أقتنى أليخاندرو مجموعة مختلفة من صنوف الماشية والطيور.

لم يكن لدى كارلا أي شكوى في الحياة، فهي تحيا وسط جمال الطبيعة الساحرة، وفي وضع اجتماعي يفوق المتوسط، كما أن علاقتها بأسرتها رائعة للغاية، وهادئة كالمياه الراكدة.

سمعت طرقًا على الباب وميزت أنه شقيقها الأكبر فقالت بينما تبتسم بعذوبة:

- "ادخل يا توماس".

دلف توماس بسرعة فيما يداه قابعتان بجيب بنطاله، وقال وهو يهز رأسه برضا:

- "أنت تميزين طرقاتي يا أختاه، هذا مبهج".

كان توماس يرتدي قميصًا مخططًا، وبنطالًا ذا أحزمة معلقة على الكتف، ويضع فوق شعره الأسود قبعة جلدية مدببة، فنظرت له كارلا بإعجاب وقالت ضاحكة:

ـ "هذا لأنك لا تطرق الباب مثل أبي وأمي أيها الوسيم، أنت تركله بكاحلك".

أخرج يديه من جيبه ووضعها على درابزين الشرفة، وظل يبتسم لقولها فترة قبل أن يتمتم بفخر:

ـ "لقد أديتِ عملًا جيدًا في المرج اليوم".

نظرت كارلا لعينيه الداكنتين، فلمحت حزنًا متواريًا، وكان أكثر شيء يزعجها هو أن ترى شقيقها حزينًا.

اقتربت منه لتضع يديها فوق يده بحنو، وتساءلت برجاء:

ـ "تبدو مختلفًا يا توماس، ماذا هناك؟"

رسم توماس ابتسامة كاذبة وقال وهو يهز رأسه وكتفيه:

ـ "لا شيء، أظنني مرهق بسبب الصيد لا أكثر، لقد جئت لأخبركِ أن العشاء وُضع على الطاولة، ووالدينا ينتظران، لقد اصِطدتُ لكِ بعضًا من سمك القاروس".

لم تُعقب كارلا حتى لا تضغط عليه، ولم تشعر كذلك بالبهجة رغم أن القاروس هو نوعها المفضل في الأسماك، وسارعت بالهبوط للطابق السفلي كي تتحرى عن الأمر، وتبعها توماس بخطى ضيقة حتى باتا بالردهة السفلية.

كان الوالدان يجلسان أمام المائدة الواقعة بجزء جانبي من المطبخ، فتوجهت لهما على الفور وتساءلت فيما تتخذ مقعدها:

ـ "لم يبد توماس على غير عادته، أهناك خطب ما؟"

نظر لها والداها في حيرة لثوانٍ، وحين ظهر توماس بمقدمة المطبخ، قال أليخاندرو وهو يشير بيده نحو المقعد:

ـ "اجلس يا بني، وأعدك أنني لن أفاتحكَ في الأمر مجددًا".

عقدت كارلا حاجبيها وهمهمت:

ـ "أي أمر؟ لماذا لا يجيبني أحد؟!"

عقبت والدتها وهي تضع صحاف الطعام:

- "أمر الزواج يا كارلا، لقد عثر والدكِ على فتاة مناسبة لأخيكِ، ولكنه لا يرغب برؤيتها حتى، لا أدري لم يتصرف هكذا".

تهاوى توماس على مقعده وغمغم بصوتٍ رخيم:

- "لأنني لستُ مهتمًا بالزواج الآن".

تدخلت كارلا وقالت بهدوء وهي تنظر لتوماس:

- "لكَ ما تريد يا أخي فكف عن العبوس".

ثم نظرت لوالديها وأضافت:

- "أرجوكما، دعاه ينتقي زوجته بنفسه، فهو من سيتزوج. الآن من سيتلو صلاة الشكر فأنا جوعانة للغاية؟"

ابتسم أليخاندرو لرقة ابنته، ولطريقتها الدبلوماسية في الحديث، وبسط يديه على الجانبين في رضوخ، وفي وهلةٍ تشابكت الأربعة أزواجٍ من الأيدي وتصاعد صوت الصلاة، ولكن بقي توماس عابسًا، وكانت كارلا تُطالعه بعدما تركت عينيها مفتوحتين.

****

كانت عقارب الساعة تشير للثامنة مساءً، وقتما استلمت أميرة رُستم التلغراف المَبعوث من قبل والدها، ولم يمض كثيرٌ من الوقت حتى صعدت لغرفتها بالسكن الجامعي التابع لكلية فيكتوريا، وشرعت بقراءته.

كان مكتوبًا باللغة التركية لأن والدها رُستم باشا رجل عثماني صرف، وهو من القلائل الذين لم يغادروا القاهرة بعد هزيمة الدولة العثمانية بالحرب الأولى، وانتهاء عصر السلاطين ونشأة الملكية، وكان يحتم على أميرة بصغرها؛ أن تتعلم التركية قبل العربية رغم أنها ولدت بالقاهرة ولم تر إستانبول ولو مرة.

بدا تلغراف رُستم القليل الكلمات مقلقًا فوق العادة، فهو لم يطلب منها سوى العودة للقاهرة بأسرع وقت، ولم يقل لماذا، وكان هذا تصرفًا غريبًا، فوالدها معتاد على الإسهاب في الحديث، ولذلك خشيت أميرة أن تكون الرسالة مبعوثة من قبل أحد الخادمين بالقصر، وليست من قبل رستم نفسه.

نظرت بعينيها السوداوين نحو خزانة الملابس، ولم يتطلب الأمر سوى دقيقة لتقرر العودة، فهي تعلم أن والدها مُصاب بداء السكري، ولذا قد يكون هذا الخطاب الاستدعائي مبعوث بالفعل من قبل أحد الخدم.

انتصبت واقفة بقامتها المتوسطة، وبكل معاني الارتباك ظلت تعض شفتها الصغيرة، والتي يقبع فوقها من ناحية اليمين، شامة سمراء، تبدو كما نُقطة حبر.

فجت بابي الخزانة، وسحبت حقيبتها من الرف السفلي وفتحتها فوق الفراش، وبقيت ترفع خُصلها السوداء بنفاد صبر كلما سقطت على وجهها فيما تنقل الملابس، وكان وجهها الدائري الأبيض يزداد احمرارًا مع الوقت بسبب تسارع نبضها.

أغلقت الحقيبة بعد دقيقتين، والتقطت وشاح من فوق المشجب لتحيط به رأسها، ثم بدأت تتحرك نحو الخارج بخطى ضيقة وأقدام متعثرة.

بئسًا، كان حري بي أن أغير تلك التنورة.

من حسن حظها وجدت حنطورًا يقف قبالة السكن، فقالت للسائق بلهجة أقرب للرجاء فيما تصعد إليه:

- "محطة القطار بسرعة".

رفع السائق سوطه وأصدر به فرقعة متعمدة قرب الفرس، فبدأ الأخير يركض على الأسفلت في سلاسة وثبات، مصدرًا من قوائمه الأربعة صوتًا يكاد يشكل لحنًا، ولكن أميرة لم تكن تستسيغ أي شيء بتلك اللحظات، وكان شغلها الشاغل هو الاطمئنان على والدها، لدرجة أنها تركت للسائق لدى الوصول عشرة قروش كاملة، ولم تضيع الثواني في تحصيل الباقي.

تحركت صوب عمق المحطة، ولما باتت أمام شباك التذاكر، قالت وهي تضع الحقيبة الثقيلة عن يدها ليستلمها أحد الشياليين:

- "تذكرة لمصر لو سمحت".

مد لها الموظف التذكرة وقال بجدية:

- "هناك قطار على وشك التحرك يا آنسة، والتالي سيتحرك بعد ساعتين".

بالكاد أنهى جملته قبل أن يرتفع دوي صافرة الرحيل، التي يطلقها سالم بصخب بالغ، فنظرت أميرة نحو القطار الذي شرع يتحرك فيما تنقد الشيال أجرته مقدمًا، وبسرعة البرق كشفت عن ساقيها وأطلقتهما للريح، كي لا تفوته.

تبعها الشيال خلال لحظات، وحين باتا على باب الرصيف صرخت أميرة بصوتٍ جلجال:

- "تمهل، تمهل، أرجوك!"

تلفت سالم حوله ليرى من يصيح فأبصرها تركض خلف القطار باستماتة وتهور، محاولةً أن تصل للباب الأخير، وكان الأمر صعبًا للغاية بسبب تنورتها الضيقة، التي تمنعها من الوثب كما تعيقها في الركض رغم أنها رفعتها بيديها، وهنا بدأ سالم يهدئ من سرعته لتلحق به، قبل أن ينتهي الرصيف من تحت أقدامها.

أمسكت مقبض الباب الضخم وقفزت نحو الداخل برشاقة، وباللحظات الأخيرة قذف لها الشيال حقيبتها، وحين اطمأن سالم لدخولها بدأ يُسرع ويُطلق الصافرة بوتيرة معينة، كأنه يهتف فرحًا بسبب تنفيذهما عملية الالتقاط بنجاح، وكانت هي داخل عربتها تبتسم لعدم تأخرها فيما تنصت أذنيها لصوت قعقعة القضبان.

تناست في خضم الأحداث المتسارعة، مشاعرها القلقة، وأفكارها المتشائمة، وغطت في نوم عميق بسبب الهدهدة التي يحدثها القطار، ولم تنتبه إلا لدى وصولها محطة مصر.

هبطت من القطار بتؤدة وناضلت في حمل حقيبتها، ولكن جسدها ما زال في حالة خَدر بسبب نومها، لجانب الإرهاق الذي تتعرض له نفسيًا وجسمانيًا، فبدت الحقيبة أثقل بكثير.

نظرت بالأرجاء بحثًا عن شيال، وحين فشلت في العثور على واحد بتلك الساعة المتأخرة، بدأت تتحرك نحو الخارج ببطء وهي تجر الحقيبة خلفها.

نظرت لميدانِ النهضة بشوق جارف، فهي لم تزر القاهرة منذ بدء العام الدراسي، ثم تلفتت بحثًا عن عربة حنطور توصلها حتى الترام، ولكنه منتصف الليل، وبالكاد هناك مارة بالطرقات لجانب الأوربيين الذين يترنحون هنا وهناك، ومن المتعذر أن يمر حنطور قريبًا، ومن المستحيل كذلك أن تسير بالحقيبة الثقيلة حتى الترام.

خيمت عليها الحيرة فتسمرت مكانها وقد علاها التذبذب، وكان سالم يهم في الوقت ذاته بترك المحطة، وقد أنهى عمله لليوم.

لمحها واقفة بقارعة الطريق فحملق بها لحظات حتى مَيزها ثم تساءل وهو يقترب ببطء كي لا يخيفها:

- "أتحتاجين بعض العون يا آنسة؟"

لم تكن أميرة قد ميزته ولكنها بأمس الحاجة للمساعدة فنظرت لأسفل بانكسار وأجابت:

- "أنا كذلك فعلًا، سأكون ممتنة إن تمكنت من جلب عربة حنطور لأجلي".

فرك سالم جبهته وقال بشيء من الخبرة:

- "سائقو الحنطور لا يعملون متأخرًا كي لا يضايقهم الجنود الإنجليز، ولكن الترام يقع على بعد عدة شوارع من هنا ويمكن أن نلحق به".

اتسعت عيناها في تعجب وتمتمت:

- "لتلك الدرجة المواصلات نادرة، ماذا لو كنت قدمت بالقطار الآخر!"

- "كان الترام سيكون غير متاح هو الآخر".

قالها ملاطفًا ومنبهًا لأهمية رحيلهما فندت منها ابتسامة خجولة، وأضاف سالم متسائلًا:

- "إلى أين ستذهبين تحديدًا؟"

- "المعادي، ولا بد أن أصل سريعًا فوالدي مريض".

هز رأسه بتفهم وتمتم:

- "لهذا كنتِ تركضين بهذا العناد خلف القطار".

نظرت له أميرة ببعض القلق خشية أن يكون مسافر متطفل أو متحرش يستغل غطاء الليل والظلام، وتساءلت في تحفز وهي تتراجع خطوة للخلف:

- "أكنت مسافر على متن القطار؟"

هز سالم رأسه وكان وجهه يحمل ذات البسمة الهادئة فيما يوضح:

ـ "بمعنى أدق، كنت أقوده".

تنفست الصعداء وسرت بقلبها راحة طاغية، لقد تيقنت الآن أنه سيساعدها، وسيكون حاميًا لها بتلك الساعة، رغم أنها لا تعرف عنه شيئًا يذكر، ولكن ملامحه تبدو بشوشة، ووديعة، وحدسها الأنثوي لا يخيب في تقييم رجل. إنه شخص نبيل، باركتها الأقدار بمقابلته تلك الليلة.

ـ "أنا ممتنة لك للغاية، فلولاك لما كنت وصلت".

انحنى سالم على الحقيبة ورفعها دون سؤال، وهمس بنبرةٍ مطمئنة:

ـ "لم تصلي بعد يا آنستي، فالطريق للمعادي سيأخذ وقتًا ويجب أن نتحرك الآن".

بدأ يسير مباشرة فتبعته فيما تنوه بقليل من التحفظ الأرستقراطي:

ـ "أدعى أميرة، لذا دعكَ من الألقاب".

التفت صوبها وقال بينما يهز رأسه بالتحية:

ـ "تشرفنا، أنا سالم".

خيم الصمت على مسيرتهما حتى أدركا محطة انتظار الترام، وهناك تساءلت أميرة بخفوت:

ـ "أتعيش في المعادي كذلك؟"

وضع الحقيبة عن يده وهز رأسه جانبًا.

ـ "ليس لدي سكن ثابت، فأنا أتنقل بين البلاد لأنني سائق مستجد، وما زلت لا أملك خطًا محددًا، سأؤجر غرفة بأي نُزل حتى الصباح، ومن ثم سأقود للصعيد".

عقدت حاجبيها فيما تجلس فوق الأريكة الخشبية.

ـ "وأين كنت تحيا قبل أن تعمل في السكك الحديد؟"

صمت برهة قبل أن يجيب:

ـ "في الإبراهيمية، حيثما بيت العائلة".

ـ "الإبراهيمية؟ أنت إسكندراني إذن. أنا أيضًا أدرس في الإسكندرية، جامعة فيكتوريا تحديدًا".

لاحت أنوار الترام من بعيد فعلق سالم وهو يتأهب لوصوله:

ـ "إنها جامعة عريقة، ولكن لماذا لم ينتظرك أحد أقاربك بهذا الوقت؟"

توقف الترام قبالتهما، فصعد سالم أولًا رفقة الحقيبة ثم ناولها يده بعفوية كي لا تتعثر بسبب التنورة الضيقة، وكما شخصان يعرفان بعضهما البعض منذ زمن بعيد، تناولتها بإسراع ودخلت خلفه.

كانت عربة الترام فارغة إلا من رجل نائم، ومحصل التذاكر الذي يغالب النعاس، فجلست فوق الأريكة التي تحده جانب الترام، وجلس سالم قبالتها.

ـ "أخوتي يعيشون في إستانبول، ولا يوجد في مصر سواي ووالدي. الحقيقة أنه ما من أحد يعرف أنني سآتي على الفور، ولكني لم أتمكن من انتظار الصباح".

صمت برهة قبل أن يعلن:

ـ "لم تتحدثي عن والدتك، هل هي..."

هزت رأسها بالإيجاب وقد لاح الوجوم على قسماتها الملائكية، فأكمل سالم بتفهم:

ـ "أعتذر إن كنت ذكرتك بأشياء تؤلمك، أنا أعرف شعور الفقدان، فوالداي توفيا بصغري".

ابتسمت له برقة وهي تباعد بين يديها:

ـ "الحياة تستمر مهما حدث".

لم يعقب سالم على جملتها، ولزم الصمت حتى اقتربا من حي المعادي، وعندئذ نهض بتراخٍ وأخرج نص فرانك ليتركه قرب محصل التذاكر الذي غط في النوم ثم هبط بالحقيبة.

قفزت أميرة بخفة ومشيت لجواره وحتى تقطع الصمت المريب، عرضت بينما تشير للحقيبة:

ـ "دعني أحملها لبعض الوقت".

هز رأسه بالنفي وهمس بصوت محشرج:

ـ "لا داعِ، يمكنني تولي الأمر".

عاد الصمت يخيم على مسيرتهما، وتلك المرة قطعه هو:

- "الأفضل أن تحتاطي المرة المقبلة وتتلاشي السفر ليلًا، فالأجواء مضطربة بتلك الفترة، وجنود الحماية لن يمانعوا في التعرض لأي فتاة، خصوصًا إن كانت جميلة".

ابتسمت لإضافته الخجلة، وهمست بحياء بينما تومئ برأسها:

- "أعدك أنني سأفعل".

تجلى لهما عقب انعطافهما قصر ضخم، بني على الطراز العثماني، له حديقة ممتدة، وأسوار عالية، فأعلنت ببعض الضيق:

- "هذا قصرنا".

مشيا نحوه بخطوات متقلصة على خلاف ما كانا يمشيان، ولما بلغاه عرضت أميرة برجاء:

- "اقبل دعوتي وادخل حتى تريح ساقيك قليلًا، ستروق لك القهوة العثمانية".

وضع سالم الحقيبة أمام البوابة وقال معتذرًا:

- "دعيها للمرة القادمة، فالوقت متأخر. تمنياتي بالشفاء للوالد".

مدت يدها لتصافحه وقالت بامتنان وهي ترسم ابتسامة واسعة:

- "شكرًا لمساعدتك يا سالم، سررت بمعرفتك".

التقط يدها وهمس قبل أن يرحل:

- "العفو يا أميرة، إلى اللقاء".

وقفت تراقب رحيله حتى اختفى عن ناظريها، ثم ضربت البوابة لتوقظ الحارس النائم.

شب الأخير من مرقده وتناول الحقيبة، وشرع يسير معها حتى أبواب القصر، ولم تكد تدلف للبهو حتى وجدت والدها جالسًا فوق مقعد مبطن بالإسفنج.

كان يعلو رأسه طربوشًا أحمر اللون، ويرتدي نظارة بلا أذرع، ولفرط تفكيره كان يبرم شاربه الكبير وقد أرخى ذقنه فوق عكازه.

انتبه لوجودها فنهض واقفًا وقال بالتركية وهو يفتح يديه:

- "عزيزتي، لقد جئتِ بسرعة! ظننتك ستأتين بالصباح".

ركضت نحوه وغمرته في حب، وتمتمت بصوتٍ باكٍ:

- "لقد أصابني القلق، وظننت أنك مريض فقدمت على الفور".

ربت عليها وقال بصوت هادئ:

- "أنا بخير حال، ولكنني أريدك أن تظلي بالقصر لفترة، فالأوضاع ليست مستقرة، وبقائك في السكن الجامعي يثير الوساوس بعقلي، سأطمئن عليك أكثر حين تكونين قربي، ولما تتحسن الأوضاع يمكنك العودة للجامعة".

تراجعت أميرة للخلف وضيقت عينيها مندهشة، فها هو يعيد ما قاله سالم منذ دقائق.

- "أي أوضاع؟"

- "أوضاع البلاد، ألم تلاحظي الجنود في الإسكندرية؟!"

التفتت لتسير نحو المقعد الوثير وقالت أثناء جلوسها:

- "أنت تعلم أنني لا أخرج كثيرًا، ولكنني رأيت البعض بالمحطة وأنا قادمة".

- "تمامًا، لدي معارف بالحكومة وهم يؤكدون لي أن هناك حرب محتملة".

التقط نسخة من جريدة البروجيه إيجيبشان كدليل إضافي وعرضها عليها، فالتقطتها بحركة خاطفة وشرعت تتصفحها، وسرعان ما ارتسم الفزع على ملامحها.

تمتمت بصوت مرتجف حين تيقنت من خطورة الوضع:

- "وماذا عن أخوتي؟"

- "سيبقون بإستانبول ولن يأتوا كما رتبنا، احصلي على بعض الراحة الآن، فلا بد أنكِ متعبة".

هزت رأسها مؤكدة وبدأت تصعد لغرفتها في قلق وحزن، لم تكن تبالي بأمر الجامعة إطلاقًا، ولكنها تخشى على البلاد مما قد يلحق بها مستقبلًا.

لقد ولدت على تلك الأراضي وتعتبرها بلادها.

***

نصًا من إحدى الصحف العالمية ليوم الأول من سبتمبر:

"في السويعات الأولى لصباح اليوم، تم إطلاق القذائف من قبل مدافع جيش الفيرماخت نحو مدينة دانزينج، وحين أشرقت الشمس كان الأهالي المذعورين يقفون في الطرقات بملابس غير مهندمة، ووجوه شبه ناعسة بعضها يدمي بسبب شظايا القذائف، يطالعون في رهبة الجنود الألمان الذين يملؤون الشوارع وقد ارتدوا الزي العسكري الرمادي اللون كسماء الخريف، ويؤدون استعراضًا للقوى بالمدافع والدبابات، والعربات الثقيلة".

***

مقطع من إذاعة لندن:

"هنا لندن، السيدات والسادة، جاءنا النبأ التالي، اجتمعت اليوم حكومتي بريطانيا وفرنسا، وأرسلتا إلى الزعيم النازي أدولف هتلر، إنذارًا بوقف التحرك العسكري في بولندا، ولكن الأخير كان عازمًا على استعادة المدينة بأي ثمن، فلم يكترث بمطالب السلام، ومضى قدمًا في توجيه الجيش نحو قلب بولندا بعد استرداد دانزينج، وعليه أعلن الحلفاء الحرب على ألمانيا".

***

كان روبرت مستلقيًا فوق فراشه حين سمعَ إعلان الحرب عبر المذياع، فبقي ينظر للراديو دون تصديق، وقد كسا الهلع ملامحه، وبعد مضي لحظات، بدأ ينهض برضوخ نحو خزانته ليجهز حلته الرسمية، فمما لا شك فيه أن إجازته انتهت، وفي أي لحظة سيدق الجنود بابه ليسلموه أمر الاستدعاء.

توجه لمرحاض الشقة بخطى مترنحة، ولكن الأصوات المرتفعة بالشارع أوقفته وجعلته يغير مساره للشرفة، وهناك شاهد المواطنين البريطانيين يحملون العصي، ويسيرون في تجمعات كبيرة، ويهتفون قائلين: "أخرجوا النازيين من لندن".

زفر بضيق فهو يعلم أن تلك التجمعات لن تترك الألمان المقيمين بلندن حتى تقتلهم من شدة الضرب، أو على الأقل تسلمهم للشرطة ليستجوبوهم قبل أن يتم ترحيلهم لبرلين.

عاد للغرفة ساخطًا والتقط قنينة خمر من فوق المنضدة، وراح يتجرعها بلا هوادة كي يتناسى هذا الحمق بدلًا من الذهاب للانتعاش.

لقد كان المواطنون البريطانيون والألمان يحيون معًا في سلام منذ نهاية الحرب الأولى، فكيف تبدلت الأوضاع هكذا بطرفة عين.

أيجب على الشعوب أن تقاتل بعضها لأن القادة يفعلون المثل ولو لأهداف سياسية وجغرافية؟ وما ذنب المدنيين المسالمين الذين يعيشون هنا بالمدينة؟ إنهم لم يحملوا السلاح قط ولم يشاهدوا جبهات الحرب، وأغلبهم لم ير دانزينج تلك طوال حياته!

كم يجيد الساسة غسل عقول الشعوب!

تصاعد صوت الطرقات على الباب الخارجي ليوقف معضلاته الفكرية، وكان يدري من الطارق دون أن يسأل، فمضى لهناك بخطوات ضيقة، لا تبالي للدق غير المتوقف، وفجا الباب بينما يديه تؤدي التحية العسكرية بتراخي وميكانيكية.

بادله الجنود التحية، ومدوا له أمر الاستدعاء، وغادروا دون حرفٍ واحد، فأغلق الباب بقدمه، وبسط أمر الاستدعاء وراح يطالعه بعينيه فيما يعود لقنينته.

لقد طُلب منه الحضور لقاعدة ستانسيد الجوية في الصباح الباكر.

***

بكت بحرقة القهر حين أعلمها الطبيب بلباقة أنه سيفصلها عن العمل حتى لا يتعرض للمساءلة من قبل الحكومة، ولكي يحافظ على سمعته المهنية، ولم تملك فيرونا سوى أن تجر ذيول الخيبة نحو مسكنها بعدما فقدت الأمل في جعله يعدل عن رأيه.

مشت بالطرقات منكسة الرأس ومنحلة الأعصاب، تتحاشى النظر في عيون المقبلين عليها كي لا يلتمسوا خوفها وقلقها فيوقفونها للتحقيق، أو يضربونها دون تمهل، وحين بلغت مسكنها وهمت بالتواري خلف جدرانه، كادت أن تفقد الوعي من المفاجأة التي زادت الطين بلة.

لقد اقتُحمت الشقة من قبل البريطانيين وهي بالخارج، ودُمر كل شيء بها.

جالت بعينيها لتقدر مدى الضرر فرأت الأثاث محطمًا، والمقاعد ممزقة بالأدوات الحادة، والإطارات مهشمة كالنوافذ وحتى الملابس خاصتها لم تنج، فلقد جمعت بالبهو وأحرقت، وقبل رحيلهم تركوا فوق الجدران جُمل لعن، وسباب، ورسائل تحذيرية بالطلاء الأحمر، تقول إنهم سيعودون بأي وقت.

سقطت على ركبتيها لفرط صدمتها، وكتمت فمها بيديها كي لا تصرخ فينتبه لها المواطنين، واستمرت تطالع رماد ما جمعته على مر الأعوام المنصرمة.

لقد فقدت كل شيء بليلةٍ واحدة، ولكن من حسن حظها أنها لم تكن هنا بوقت وصولهم وإلا لكانت الآن مقتولة، أو جالسة بمخفر الشرطة حيثما ستوجه لها لائحة طويلة من الاتهامات بدءًا من الشغب وحتى التجسس لصالح ألمانيا.

نهضت بصعوبة، وكانت قدميها لا تقويان على حملها وترتعشان من الخوف والأسى، فاستندت على الجدران فيما تبحث عن أي شيء لم يدمر، وعندما لم تجد بدأت تغادر الشقة بحذر وخشية.

سارت بالطريق كالمطاردة، وكانت تتلفت كل حين لترى إن كان هناك من يتبعها، وحين باتت قرب نهر التايمز جلست على إحدى الأرائك العامة لتلتقط أنفاسها، وبدأت تنظر لحقيبتها الصغيرة بشرود.

من الجيد أنها أبقت كل نقودها بحقيبة الكتف، ولكنها تعرف أن المبلغ ليس كبيرًا ولن يساعدها في الهرب لبرلين، إنها محاصرة.

تذكرت روبرت فجأة، ولم تكن تدري لماذا تتذكره الآن رغم كافة مصائبها؟ أتكون انجذبت له بسبب أحداث تلك الليلة، ورأت أنه قد يساعدها من جديد؟ أم إنه نوع من البلادة اللا واعية، هدفها أن تشغلها عن الموضوع المهم الذي يؤرقها.

"توقفي عن الحمق، وفكري بحل".

صرفت نظرها نحو النهر، فهذا ليس الوقت المناسب للتفكير بتلك الأمور، وحري بها أن تركز على مشكلتها لتستطيع إيجاد مخرج، فهي بطبيعتها مقاتلة ولا تعرف الاستسلام، وليست بحاجة لأحدهم حتى يساعدها.

عصرت ذهنها قدر المستطاع لتفكر بطريقة تمكنها من النجاة وتجاوز تلك الورطة، ورأت أن فرصها ستزيد بمكان لا يعرفها فيه أحد، كما أنها شقراء وتستطيع الاختلاط بالبريطانيين بسهولة.

ولكنها لا تستطيع أن تنفق المال على الفنادق أو الشقق المستأجرة بعد الآن، فهي بلا عمل، ولن يقبل أحد توظيفها، وإن فعل فسيكتشف مع الوقت هويتها الحقيقية ويطردها كما حدث اليوم، وربما أسوأ.

ظلت الدقائق تدور، تتبعها الساعات، وبقيت هي تفكر بلا تريث حتى بزغ الفجر، فبدأت ترى بائعي الصحف وهم يلوحون بجريدتي الغارديان والتايمز للمارة الذين لم يناموا ليلة البارحة بسبب القلق، وحينها لمعت بذهنها فكرة ليست سيئة.

الكل يرغب الآن بمعرفة أخبار الحرب، والمال الراقد في حقيبتها قد يتيح لها شراء قرابة المائة جريدة من أكشاك الصحف.

مهنتها كبائعة جرائد لن تفضح هويتها لأنها رغم بساطتها تمثل عملًا مستقلًا، وفي المساء ستعود لتلك الأريكة لتغفو عليها حتى تتدبر أمر السكن، فأي فندق سيطلب بطاقة هويتها بمجرد دخولها وهي لن تخاطر بإظهارها، كما أنها تحاول تحاشي التكلفة الباهظة.

نهضت بعزم لتبدأ التنفيذ، وقد تناست كل خسائرها، ووجهت تركيزها كله لتتحاشى القادم، والذي تيقنت أنه لن يكون أفضل.

***

في القاهرة، وبحلول آخر الشهر، كانت العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا قد قطعت، وتم مصادرة ممتلكات الجالية الألمانية المقيمة بالبلاد، وسجن بعض الأفراد المنتمين للحزب النازي، وكذلك تم إعلان الأحكام العُرفية، ووضعت كافة المطارات، والموانئ، والسكك الحديدية تحت تصرف البريطانيين، كما فرضت الرقابة على الاتصالات والصحف، وعلى الفور بدأ الأهالي في طلاء النوافذ باللون الأزرق ليعتموا على ضوء المصابيح خشية أن يرى من قبل طائرات الإيطاليين.

كان حسين هو الآخر يطلي نوافذ بيت العائلة حين وصل سالم للبيت، فترك ما يؤديه وقال وهو يسير ناحيته بخطى واسعة:

- "سالم، مرحبًا بعودتك".

نظر سالم بالأرجاء وهو يُصافحه، وهمهم بضيق:

- "أرى أنك نزعت بعض المصابيح وبدأت تطلي النوافذ".

هز رأسه مؤكدًا وقال بتماسك:

- "نعم، فآخر شيء أريده هو أن يقصف بيتنا. الآن دعك من كل هذا وطمئني على أحوالك".

ارتمى فوق أريكةٍ قريبة، وقال بتذمر:

- "لقد فصل أمين أفندي وحل مكانه رجل إنجليزي مقيت، إنهم يُبقون على السائقين لأنهم ينوون استخدام بعضنا في نقل السلاح والمؤن عبر إفريقيا، وحيفا، بعض الزملاء وافقوا على الفور حين علموا بالأجر. الناس جن جنونها يا حسين".

جلس حسين لجواره وقال فيما يشعل سيجارة:

- "من الأفضل أن نتعاون معهم يا سالم، فهم يحموننا من غزو الإيطاليين".

أضاف سالم بنفاد صبر وهو يحرك يديه بطريقة عصبية:

- "ولكنهم غزاة مثل الإيطاليين، إنهم يدافعون عن حقهم في احتلالنا، وليس عن حقنا في تقرير مصيرنا، بقائهم في بلادنا يعرضنا للخطر فهم من يحارب المحور، ونحن من سيُقصف".

ربت حسين فوق ساقه وقال:

- "نضالنا لن يتوقف حتى نقوم بإجلائهم، ولكننا نحتاج مساعدتهم الآن، أنت تعرف ذلك جيدًا".

زفر سالم وهمهم فيما ينهض ليسير نحو النافذة:

- "للأسف أعلم، وهذا يزعجني أكثر".

نهض حسين قاصدًا المطبخ، وهتف من هناك قائلًا:

- "دعكَ من كل هذا واغتسل حتى نتناول الغداء، لقد جلبت وجبات من المطعم".

هز سالم رأسه موافقًا ولكنه لم يتحرك. رغم كل ما يجري حوله، وما يحدث لبلاده، كانت غايته الشخصية هي الاطمئنان على أميرة.

حتى الآن هو لا يعرف سبب تلك الرغبة المُلحة رغم أنه لم يرها منذ شهر تقريبًا، ولكنها بلا شك تركت بصمة فوق قلبه ليتذكرها طيلة تلك الفترة.

بصمة تكاد تكون أعمق من هوة صنعتها قذيفة!

***

مشت وسط البستان في سعادة حتى بلغت الجرف الحجري للجزيرة، وهناك جلست تُطالع الغروب بعيدًا عن المنزل. لقد أضجرتها أخبار الحرب التي تُنقل بالراديو، والتي يستمع لها والدها وشقيقها بخشوع، كما لو أنها كلمات الرب.

كلاهما يخشى أن تقوم إيطاليا بالتوسع مثل ألمانيا، فتحتلهم لأنهم الأقرب جغرافيًا، ولكن كارلا كانت متفائلة، وتظن أن اليونان وإيطاليا تتبادلان الأساطير القديمة، والمحبة لا غير، ومن يدري فقد تتدخل عصبة الأمم وتفض النزاع وتنتهي الحرب بسرعة.

كانت في الحقيقة تأمل بهذا لأنها ترفض أن تتخيل الجنة التي تحيا بها وهي تحترق بنيران الجحيم.

نظرت للسماء بعينين متضرعتين، ولم تكد تمضي لحظات حتى سمعت توماس يهتف:

- "كارلا، أين أنت؟"

نهضت بخمول، ولوحت بيدها في صمت، فبدأ توماس يهبط المنحدر بحذر وخفة، ولما بلغها لم يفعل شيئًا سوى الجلوس، والتزام الصمت. هناك موضوع عاجل يجب أن يعرضه عليها ولكنه يخشى رد فعلها.

- "أليس المنظر جميلًا؟"

سألها في محاولة لتجاذب أطراف الحديث، فنظرت نحو الأفق بتتيم، كانت الشمس تتلألأ بحمرة الغسق فوق زرقة المتوسط، وكانت مراكب الصيد عائدة بعد يوم شاقٍ وقد حظيت بصيدٍ وفير، وكان الصيادون يغنون بسرور فيما يعزف أحدهم على آلة المندولين.

- "بالطبع هو كذلك، ولا أظن أن هناك قلوب تستطيع تشويهه، لا تقلق يا توماس".

وضع ذراعه على كتفها بحنو، فأراحت رأسها على صدره كما اعتادا منذ طفولتهما، وابتسمت ببهجة.

- "لطالما كنتِ طيبة القلب يا أختاه، وترين البشر جميعًا كالملائكة، ولكنهم ليسوا كذلك للأسف، النظام الفاشي يجبر الأفراد على الالتحاق بالجيش حتى وإن لم يكونوا إيطاليين، ربما موسوليني لم يعلن الحرب بعد، ولكنه سيفعل قريبًا حين يتأكد من استعداده، لا تنسي أنه عقد ميثاق صلب مع هتلر".

ابتلعت كارلا ريقها فأضاف توماس برجاء:

- "أيمكنني أن أطلب منكِ شيئًا؟"

هزت كارلا رأسها بسرعة، فأكمل بينما ينظر لشعرها المنسدل أمامه:

- "سافري للعم ماركو، الإسكندرية ليست بعيدة، هي على الجانب الآخر من المتوسط".

اعتدلت بغتة وقد تجهمت ملامحها، ومكثت تضربه على ساقه فيما تقول:

- "لا تقل هذا مجددًا، لن أترككم أبدًا وأفر، هذا بيتي وتلك بلدي. كما أن الإسكندرية التي تتحدث عنها معرضة للغزو أيضًا".

أمسك يدها التي تلكمه برقة كما الأطفال وقال بتوسل ينعكس في عبراته الجائلة بعينيه:

- "إن سقطت اليونان قبل مصر فاذهبي يا كارلا، اذهبي أرجوكِ، أنا لا أريدك أن تجبري على العمل في مصانع السلاح الإيطالية".

وضعت كارلا يديها على فمه وهمست بصوتٍ باكٍ:

- "اصمت، لن يحدث شيء، ستنتهي الحرب، وسنحتفل جميعًا بخطبتك على فتاة جميلة تختارها بنفسك، سنظل هنا وسط تلك الجنة حتى نموت عجائز".

انسابت الدموع من مقلتيها ونظرت شزرًا للسماء، فتلك كانت أمنية لا أكثر.

***

مشى فوق مدرج ستانسيد الجوي تحت ضوء القمر الخافت، وبقي يتفحص بعينيه طائرات سبيد فاير المصطفة على الجانبين بطول المدرج حتى لمح القائد الخاص به يقف قرب حظيرة الطائرات مع مجموعة من الرتب، إضافة لطغمة من الشباب.

بدوا متطوعين جدد، ذلك لأنهم كانوا بشعر طويل وملابس مدنية، تفهم روبرت وقتها لماذا تم استدعائه.

وقف خلفهم وهتف بصوت جهوري ليعلن عن قدومه وهو يقدم التحية العسكرية:

ـ "الرقيب روبرت فيلد في خدمتك يا سيدي".

صرف طومسون الذي كان يتوقع قدومه، باقي الرتب الموجودة بالمكان، ثم التفت صوبه وقال بينما يلتفت بعينيه بينه وبين المتطوعين:

ـ "استرح أيها الرقيب، دعوني أعرفكم بالرقيب روبرت فيلد، إنه الأفضل، وسوف يتولى تدريبكم منذ الآن".

قدموا المتطوعون التحية العسكرية لروبرت فردها وابتلع ريقه، ثم تساءل بلغة الجيش بينما يحدج طومسون بنظراته الثابتة:

ـ "أهم لحمٌ جديد يا سيدي؟"

أمسك طومسون كتفه وبدأ يسحبه بعيدًا عنهم، وحين باتا على مسافة تكفي لبدء حوار منفرد، أجابه وهو يفرك يديه:

ـ "نعم أيها الرقيب، إنهم كذلك، لقد جاؤوا من جامعتي أكسفورد وكامبريدج ليخدموا البلاد، ولقد تطوع بعض الفرنسيين الذين كانوا يحيون بلندن كذلك، سيتدربون جميعًا تحت إمرتك حتى يتم توزيعهم".

عقب روبرت وهو يحاول إخفاض نبرة صوته:

ـ "نحن بحالة حرب يا سيدي، ولن يتدربوا أبدًا بما فيه الكفاية، أنت تلقيهم لحتفهم".

هز القائد رأسه بجمود:

ـ "أنا لا أجبرهم على القتال، هؤلاء السادة المحترمون تطوعوا بمحض إرادتهم، وهم يعرفون أن الموت في سبيل الحرية، والسلام، والبلاد، أنبل ميتة قد ينالها المرء، كما أنهم لن يموتوا إن دربتهم جيدًا أيها الرقيب".

شعر روبرت باختناق شديد، وكأن هناك جبلًا فوق صدره يمنعه من التنفس، لقد عُلقت عشرات الأرواح برقبته للتو، وتلك هي البداية فقط.

التفت نحوهم وبدأ يطالعهم واحدًا تلو الآخر ليعطيهم تقييمًا مبدئيًا، فوجد أغلب الشباب يمضغ العلكة، ويعيد تسوية خصلاته كل وهلة، ولم يجذب انتباهه سوى واحد فقط.

كان شاب أشقر، طويل القامة، متباعد الكتفين، يبدو مقاتلًا من النظرة الأولى، كان مطرقًا برأسه نحو الأسفل في شرود، وقد عقد يديه قبالة صدره فيما الكل يثرثر حوله.

توجه روبرت نحوه وقال بصوت مرتفع جعلهم يتوقفون على الثرثرة:

ـ "ما اسمك أيها الجندي؟"

رفع الشاب رأسه، وسرعان ما أنزل يديه في تهذيب وبسط قامته، وأجاب بصوت محشرج:

ـ "سيمون غوستاف يا سيدي".

ـ "لا أسمعكَ أيها المجند".

كرر سيمون بصوتٍ مرتفع:

ـ "سيمون غوستاف يا سيدي".

تساءل روبرت بنفس النبرة العالية:

ـ "هل تعرف كيف تحلق بطائرة أيها المجند؟"

نظر له سيمون بعينين خضراوين تشعان حزنًا لبرهة، ثم عاد يهتف:

ـ "أستطيع أن أتعلم منك سريعًا أيها الرقيب روبرت".

صمت روبرت وظل يتأمله مليًا وقد أعطاه درجة لا بأس بها، ثم التفت للفتى المجاور وتساءل صائحًا:

ـ "هل لديك عزيمة أيها المجند مثل هذا الشاب الفرنسي، هل تعرف كيف تحلق بطائرة؟"

كان صوت روبرت الصاخب والغاضب يجعل الرجفة تسري بأوصال البعض، وكان ذاك الشاب منهم فتلعثم وهو يجيب:

ـ "لا، لا يا سيدي".

اقترب روبرت من وجهه وهتف بغضب أكثر حتى كاد الرذاذ يتطاير من فمه:

- "ادعوني رقيب أيها المجند".

كاد الفتى يبكي وهو يصحح:

- "لا، لا أيها الرقيب".

التفت روبرت ناحية القائد ليريه النتيجة الأولية، فأدار الأخير وجهه بلا اكتراث وترك له التصرف، شعر روبرت أنه أمام طغمة من الانتحاريين وليس الجنود، فأضاف بضيق متفجر:

- "إنها ليست لعبة، إن كان أحدكم قد جاء بسبب رهان مع رفاقه، أو لأنه يريد التفاخر أمام الفتيات بالجامعة، فليغادر الآن ما دام يستطيع، لأنه بمجرد أن تضعوا أجسادكم بالطائرة فلا مجال للتراجع، إنها الحرب ولا شيء آخر، الحرب بكل دمويتها وغلظتها".

وهدأ وهلة ثم أضاف بجدية وهو ينظر لسيمون:

- "اقتل أو سيتم قتلك، ذلك هو القانون الوحيد بالحرب".

بادله سيمون النظرات في اهتمام ثم أومأ برأسه بحركة بسيطة، فأكمل روبرت:

- "اعثروا على عنبركم وضعوا أشيائكم بداخله، ثم اجلبوا مؤخراتكم إلى تلك الحظيرة بعد نصف ساعة لا أكثر، تدريبكم سيبدأ من الليلة، أريدكم أن تقوموا بالمناورات بحلول عيد الميلاد".

****

لم تكن مخاوف هتلر أكبر من طموحه، فبوقوف أميركا على الحياد، وبتحالفه السابق مع السوفييت بات يمتلك الشجاعة الكافية لقصف وارسو، عاصمة بولندا، قبل نهاية الشهر، فيما يحقق السوفييت وعدهم ويغزونها من جهة الشرق.

انتهى الأمر باستسلام الجيش البولندي على الجبهتين، ولكن الاستسلام لم ينجهم من الموت، فلقد تم إعدام الكثير من الضباط، والباقين تعرضوا لأسوأ معاملة داخل السجون، أما الشعب فقد لقي المصير الأردأ، فلقد بدأت معتقلات الألمان تستقبل أفواجًا من اليهود والتشيكيين، والغجر، بعضهم لم يغادر تلك المعتقلات حيًا، وبعضهم سيغادر فيما بعد لمكان آخر كاليهود الذين سينقلون للكيتو وارسو، ثم

المحارق الجماعية، التي تم تعديل أرقامها لاحقًا من قبل الكيان الصهيوني، لتُعطي إحساسًا أعظم بالإبادة والظلم، وعليها طلب الحماية البريطانية بفلسطين، فحتى تلك اللحظة لم يكن وعد بلفور أمرًا نافذًا، ولم يكن بفلسطين أعداد كبيرة من اليهود الغربيين أو حتى العرب.

أحيانًا تكون الحروب وما ينتج عنها من عبث وهرج، أفضل طريقة لتحقيق الغايات التي تجلت فيها الصعوبة بسبب مقاومة المعارضين!

تشترك ألمانيا مع دولتي بولندا وفرنسا في بعض المناطق من الحدود، ولذا وبعد اجتياح الألمان لبولندا، بدأ القادة في باريس بإخلاء المتاحف، وحفر الملاجئ الأرضية، ووزعت أقنعة الغاز على المواطنين، وتم تركيز القوات عند خط ماجنو، وهو خط دفاعي يغطي منطقة الحدود المشتركة مع ألمانيا حتى دولة بلجيكا، ولكن الألمان لم يقوموا بالضرب كي لا يحاربوا على جبهتين، واكتفوا بتعزيز خط سيغفريد وهو خط مواجه لخط ماجنو.

سميت تلك الفترة بالحرب الزائفة لأنه لم يحدث بها اشتباك حقيقي بين القوات الرابضة على الحدود، ورغم أن الفرنسيين مؤمنين بأن هتلر لن يحارب على جبهتين؛ بقي الخوف من الاجتياح قائمًا، فبعض الإيمان تحفه الهواجس.

***

بحلول عيد الميلاد كان التدريب قد قضي أمره، ليس لأن المجندين باتوا مستعدين بالكامل، ولكن بسبب وصول قرار التوزيع على الجبهات بأول الصباح، ليعلن أن هذا هو يومهم الأخير بمعسكر ستانسيد.

في مساء هذا اليوم، كان روبرت يُطالع المدرج المُغطى بالثلج فيما الجنود يغنون بعنبرهم أغاني عيد الميلاد بحماسة وبهجة، ولم يكن هناك سوى سؤال واحد يشغل عقله المتصدع كالأرض الجرداء.

هل دربهم بما يكفي لينجوا من الموت، أم أنه قدمهم له على طبق من ذهب؟

أعياه التفكير ولم يلق إجابة مقنعة، فهو في كلتا الحالتين أضرهم أكثر مما نفعهم، استدار لما شعر بثقل رأسه وهم بمغادرة المعسكر حتى يقضي ليلته بأي حانة، وفيما هو يفعل، لمح سيمون جالسًا أمام الطائرة التي اعتاد التحليق بها.

بدا ساهمًا في عالم آخر، وكان الضيق مرتسمًا على وجهه البيضاوي، وفي يديه، كانت ترقد رسالة تكسو نتف الثلوج أغلب أجزائها.

اقترب منه بهدوء وبادره باهتمام:

ـ "أأنت بخير يا سيمون؟"

عاد سيمون للواقع على آثر السؤال، ونهض بتهذيب ليؤدي التحية العسكرية:

ـ "نعم، أيها الرقيب روبرت".

ـ "استرح يا سيمون".

جذبت الرسالة انتباهه فجلس لجواره وتمتم:

ـ "يؤسفني أنكَ لن تقضي ليلة الميلاد بفرنسا".

ابتسم سيمون باستسلام وعقب بشوق:

ـ "لا بأس، فأنا واثق أنني سأعود لها بيومٍ ما".

وهدأ وهلة ثم أضاف بنبرةٍ غاضبة، ولائمة:

ـ "كان المفترض أن يكون هذا اليوم قد أتى، ولكننا نكتفي بالجلوس خلف خط ماجنو ونراقب العدو وحسب، كان يجب أن نهجم فيما الألمان يغزون بولندا، وكنا سنربح بلا شك فهم لن يحتملوا القتال على جبهتين".

ربت روبرت على كتفه ووضح:

ـ "إنهم يفوقونا عددًا وعتادًا، لقد دخلنا الحرب ونحن غير مستعدين لها، لا تنس أن الحرب الأولى استنزفت أغلب الدول ومنهم بلدينا".

دام الصمت وهلة حتى عاد روبرت يتساءل فيما يشير للرسالة:

ـ "لم أتيت للندن، ألا تعيش عائلتك بفرنسا؟"

صمت سيمون طويلًا، وهامت بعينيه صورة باريس في بواكير الصباح، وقتما يكون الضباب زاحفًا بين الحقول الخضراء الممتدة حتى نهر السين، ففي تلك الآونة لم تكن الثورة الصناعية قد أعطت نتيجة ملموسة في فرنسا، فعلى الرغم من أنها انتقلت إليها بمنتصف القرن الماضي، إلا أن حركة التصنيع تُعتبر قد

توقفت تمامًا في مطلع القرن العشرين، ذلك بسبب الثورات المختلفة داخل المستعمرات، أو الحرب العالمية الأولى التي استنزفت الكل على حدٍ سواء.

بالنسبة لبريطانيا، ورغم الحربين، كان الحال أفضل وكان تأثير الثورة الصناعية لا يُشهد في مدنها الإنجليزية وحسب بل يتجلى في كافة المستعمرات، وخطوط السكك الحديدية في مصر، بل تزويد جيش الحلفاء بالمعدات والعتاد، خير دليل على ذلك.

قال في النهاية وهو يرسم ابتسامة مغتصبة:

ـ "أتيت للدراسة بجامعة كامبريدج، كان هذا حلم والدي، فهما لا يُريداني أن أقضي حياتي بأسرها في إسطبل الخيل، والحقل، ولكنني أحب هذا العمل، إنه مرهق ولكنه يجلب السكينة، كان لدي خيول سريعة، وحولي مراعي ممتدة، وكنت من الحين للآخر أسابق ليندا عند السهل".

عقد روبرت حاجبيه فيما يشعل سيجارة:

ـ "ليندا، هذا غريب، لم أكن أعرف أن لديك حبيبة بالديار".

رفع سيمون الخطاب الذي تلقاه، ودام يطالعه بشوق كأنه يتحرى عن وجه ليندا وسط الكلمات، حتى أضاف بعينٍ دامعة:

ـ "لقد أرسلت لي خطابًا بمناسبة عيد الميلاد، إنها فتاة صالحة".

نهض روبرت وقد ازداد شعوره بالألم، وعقب:

ـ "وأنت شاب صالح كذلك، ولكنك أخطأت بقرار التطوع، لديك عائلة وحبيبة، وعمل، فلم تحارب؟"

أجاب سيمون على الفور وببعض الانفعال:

ـ "حتى يظلوا لدي".

حدجه روبرت بعيون مكتئبة فأسهب بنبرة أقل حدة:

ـ "لقد تطوعت حتى لا يصل إليهم الألمان بيومٍ ما ويمسوهم بسوء، أنت تعرف ماذا فعلوا بالبولنديين، لا أريد لعائلتي أن تواجه المثل، ولذا أقاتل حتى أحميهم، لقد قلت منذ قليل أيها الرقيب أننا دخلنا الحرب بلا استعداد، ولكنني يجب أن أستعد، يجب أن أستعد".

في تلك اللحظات كان قلب روبرت يكاد ينفطر؛ كم يكره رؤية الأخيار يحملون السلاح، وكم يبغض اضطرارهم لهذا، فهو عليم بخاتمة القصة لأنها تكررت أمامه ألف مرة، إما أن يبقوا أخيارًا ويُقتلون بسهولة عند أول اشتباك، أو ينقلبوا شياطين، تتحرك بدافع الغضب والخوف من الخسارة حتى تقتلهم أفعالهم أو ضمائرهم، أو جيوش العدو، الكل يخسر بنسب متفاوتة كما قال.

ـ "أنت أفضل فرد قمت بتدريبه يا سيمون، أنت تقود الطائرة كما تفعل مع الخيل، تفهمها وتتواصل معها، وهذا أهم درس، لا تعتبر الطائرة آلة، اعتبرها شريكك الذي يحمي ظهرك، فأنت لا تموت قبل أن تفعل هي".

هز سيمون رأسه بالفهم، وبدأت ملامحه تهدأ من جديد، فربت روبرت على كتفه ثم أولاه ظهره. لقد بات بحاجة للشراب أكثر مما مضى.

حالة سيمون الاجتماعية أثرت به كثيرًا، ولكنها جعلته يفكر بحياته من ناحية لم ينظر لها قبل اليوم.

كان يشعر بأنه أفضل وأصفى ذهنًا بسبب وحدته المؤلمة، فالعلاقات بمختلف أنواعها ليست جيدة لأجله، وآخر شيء يرغب فيه هو أن يفكر بفتاة ما فيما يحلق بالهواء، كما أنه يحمل عمره بين يديه، وقد ينساب منه بأي وقت إثر قذيفة أو صاروخ مباغت، وهو لا يريد أن تعاني إحداهن لفقدانه.

ولكنه رغم كل هذا يحتاج لإحداهن حتى تكون أملًا مشرقًا، وسببًا يجعله يقاتل بإصرار كي يعود سالمًا ليعانقها بشوق، وبهجة، امرأة تواسيه إن جرح، وتنعيه لو قتل، وإلا فإن موته سيكون بلا داعٍ، وأخيرًا تحتفل معه بأوقات النصر، وإلا سيصبح النصر بلا فائدة.

"ها أنت تتذكرها مرة أخرى".

ركل بساقه كومة ثلج فوق الطريق، ونظر بالأرجاء في حيرة وغضب حتى وقعت عيناه على حانة تنتصب قبالة نهر التايمز، حث الخطى إليها وعند اقترابه، وكأنه تواطأ القدر، أو كأن جني سمع أمنيته الصامتة فحققها، لمح فيرونا مرتخيةً في شرود فوق أريكة عامة، فتسمر مكانه وقد شعر بالخدر يغزو شفتيه من جديد.

وقف ينظر لها وللحانة، لا يدري لأيهم يذهب أولًا، وبعد ثوانٍ قلائل حسم أمره، وتوجه للحانة، إن قام بدعوتها لشراب فلسوف تعترض أو تتحجج، لذلك سيجلبه حتى مكانها.

خرج بعد قليل حاملًا قنينة براندي وكوبين من البلاستيك وتوجه بهم حيثما فيرونا الشاردة في مطالعة النهر والقوارب، وبادرها فيما يجلس جوارها:

- "المنظر رائع بحق".

التفتت نحوه في ذعر فيما تتراجع نحو جانب الأريكة، ولكنها سرعان ما ألفته، فهو كان سيد خواطرها طوال شهور البؤس الماضية، تلك التي كانت تحيا أيامها بين بيع الصحف نهارًا، والتمدد هنا مساءً.

كان هذا هو نمط معيشتها منذ إعلان الحرب، ولما كانت تقرر أن تنال بعض التدليل والرفاهية، كانت تحسم أمرها بدخول كنيسة قريبة حتى تنتعش بمراحيضها وتأخذ حمامًا يزيل روائح العرق والأتربة اللذين يعلقان بها أثناء هرولتها هنا وهناك لجمع المال.

مرة فمرة، لاحظ الأب قدومها بذات الرداء، ولذا وهبها الزي الذي ترتديه الآن، وإن كانت عزة نفسها منعتها في قبوله بالبداية، فهي لم تجد مناصًا من أخذه تحت وطأة الحاجة والاضطرار، فبأوقات استحمامها بالمراحيض كانت تغسل ثيابها كاملة، وتعيد ارتدائها غير مكترثة بالبلل، ولكن تلك الفعلة كانت بمثابة انتحار حين قدم الشتاء ببرودته.

- "أنت؟! ماذا تريد أيها الضابط؟"

سألت بضيق وكأنها تلومه سرًا بسبب لقائها بعد شهور وليس أيام، فوضع يديه على كتفه وصحح:

- "أنا رقيب، ولا أريد أي شيء، أنا فقط عابر سبيل يرتاح قليلًا فوق أريكةٍ عامة".

هز رأسه مؤكدًا على ذلك، فهمت فيرونا بترك الأريكة رغم أن كل خلاياها ومشاعرها ترجوها أن تبقى، ولكن فعلها قابله رد فعل أسرع بسبب تدريبات طويلة، وسنوات من التعود.

أمسك معصمها بخفة، واعترف فيما يرفع القنينة عاليًا:

- "حسنًا، سأخبرك الحقيقة، أنا أرغب في احتساء شراب معكِ".

منذ أمسكها، كانت تحاول جذب معصمها بقوة بينما تنظر له في غضب ولوم، وبدت عيناها المتباعدتان بتلك اللحظات كعيني اللبؤة المفترسة، ولكن حين أضاف جملته الأخيرة، بدت أقرب إلى القطط السيامي.

جذبت يدها ببطء وتساءلت وهي تحدق فيه:

- "لماذا ترغب في فعل هذا؟"

فتح القنينة وهو يجيب ببسمةٍ مترددة:

- "إنها ليلة الميلاد، ولا يوجد لدي من أحتفل معه، أنا وحيد كليًا".

صب الكأسين ولاذ بالصمت، فجلست فيرونا فيما عينيها تتفحصان ملامحه، إنها تقدر حالته، ولكن حالتها أسوأ بأضعاف، فهي كانت تقضي ليلة الميلاد وحيدة، وفوق أريكةٍ بقارعة الطريق، ولا شيء معها سوى الحزن والندم إزاء ما يحدث ببلادها، وما تحدثه جيوشها.

مد روبرت الكوب البلاستيكي نحوها دون حرف، وبدأ يرتشف من خاصته وقد صوب عينيه نحو النهر ليستمتع بشعور الرفقة الأثير، فقالت بينما تهم بالرشف:

- "أتفهم حالتك، فأنا كذلك أيضًا".

أدار روبرت وجهه لينظر لها وسرعان ما أعاد ملء الكؤوس وهمس مبتسمًا:

- "يسرني أن أخبركِ أننا لم نعد كذلك، عيد ميلاد مجيد".

ندت منها ابتسامة مبتهجة يشوبها الخجل، فهو الوحيد الذي هنأها بعيد الميلاد، وردت ببعض التحفظ:

- "ولأجلك أيضًا أيها الرقيب".

- "أدعى روبرت، روبرت فيلد".

مد يده ليصافحها، فالتقطت يده بسرعة بينما تعقب:

- "فيرونا جو... جورج".

ابتلعت ريقها وصمتت لتلعن غباءها، لقد أخبرته باسمها للتو، ولحسن الحظ تمكنت من تغيير اسم والدها، وإلا لكان عرف هذا "الرقيب" أنها ألمانية بسبب الاسمين الدارجين هذين.

لم يكن روبرت قد لاحظ أي شيء سوى خوارزمية وجهها الفاتنة، فقال ببعض السرور:

- "تشرفت بمعرفتك، وسررت جدًا برؤيتك الليلة، أخيرًا وجدت شيء مبهج في تلك الأوقات اللعينة".

- "يمكنني أن أقول المثل".

ران الصمت لحظات حتى همس:

- "بخصوص لقائنا الماضي..."

قاطعته بسرعة وفسرت بحياء وتوتر:

- "كنت مضطرة لذلك بسبب الشرطة، إنها مجرد قبلة ارتجالية، وليس لها أي جذور".

- "لم أكن سأتطرق لهذا بل كنت سأعتذر بخصوص انفلات أعصابي بالحانة، ولكن بما أنك أثرتي الموضوع، أحب أن أوضح أنني لست منزعجًا من فعلتك، في الواقع لقد استمتعت!"

تصاعدت الدماء لوجنتيها، وعضت شفتها السفلية بخجل ولم تعلق، فأردف بينما يضع القنينة بينهما:

- "ليلتها كنت منزعجًا للغاية بسبب تطورات الأمور، أنا رقيب ولكنني أبغض الحرب، وأبغض نفسي لأنني مقحوم بداخلها".

اعتدلت بجلستها ورفعت القنينة لفمها لتتجرع البعض، ثم استدركت:

- "ما الذي يجبرك على هذا؟"

تناول القنينة من يدها:

- "خوفي من أن أموت مدني أعزل، أفضل أن أموت مقاتلًا".

وضع شفتيه فوق عنق الزجاجة، فسرت به رجفه غير مفسرة، وكأنه يلامس شفتيها من جديد، بالنسبة إليه، لقد تغير طعم الشراب، وازدادت قوته لدرجة أن كل شيء حوله تلاشى كما الأشباح، ولم يعد هناك نهر، ولا حرب، ولا خوف.

لا شيء سوى فيرونا، فيرونا التي تمنت ببعض الليالي الكئيبة أن تلقاه مرة أخرى، وها هي السماء تمن عليها، وتجلبه لأريكتها بليلة الميلاد، وكأنها تواسيها به.

ـ "القتال ليس أمرًا سيئًا، ولكن إن كانت غايته نبيلة، فكل إنسان يخوض معركته الخاصة، هناك أب يقاتل كل الظروف لأجل أبنائه، مدرس لأجل تلاميذه، عاشق لأجل عشيقته".

ـ "وما هي معركتك؟"

التقطت الزجاجة من يده الممدودة، وازدردت البعض قبل أن تجيب:

ـ "الحفاظ على الأرواح أيًا كانت جنسيتها، قبل الحرب كنت ممرضة".

ـ "هذا رائع بحق، ولكن ماذا عن الآن؟"

ناولته القنينة وكذبت:

ـ "لا زلت ممرضة".

خيم الصمت عليهما، ولم يتحدثا بشيء يذكر، فقط ظلا يمرران القنينة إلى بعضهما البعض، في حالة من التفاهم التام، والتواصل الفكري المدهش.

كانا يثرثران رغم صمتهما.

١٩٤٠

"لا بين الأحياء أدركتُ دفءَ يداكِ، ولا بين الموتى أحسست ببرودتهما، كما لو أنك تبخرتي من نطاق كوننا لتتركي لي تساؤلات غير مفسرة، تساؤلات تكاد تنسف عقلي".

من مذكرات روبرت فيلد

تركت الشرفة ومطالعة الحديقة الممتدة، وعادت لداخل حجرتها كي تضع أسطوانة غنائية فوق الجرامافون، ولقد أدت ذلك دون أن تنتقيها، ثم بقيت تسير بالأرجاء وهي تؤرجح يديها.

أميرة مصابة بالضجر لأبعد الحدود، وتشعر أن السأم سيقتلها قبل قصف المحور المزعوم، إنه أول يوم بالسنة الجديدة، وحتى الآن لم ترجع للجامعة، ولا يتسنى لها الخروج بالقاهرة كذلك، لأن الوضع غير مستقرة، كما يكرر والدها ليلًا ونهارًا.

لقد انقضت شهور ثقيلة لم تكن تؤدي شيئًا خلالها سوى الانتقال من الغرفة للحديقة، ومن الحديقة للغرفة، وإن كانت من الحين للآخر تسترجع أحداث ليلة عودتها للقاهرة، وتتذكر سالم، فسرعان ما كانت الأصوات المنبعثة من الراديو تسلبها لذة الموقف وجماله، وتنقلها للصين حيثما المجازر التي يفتعلها اليابانيون، أو لبولندا حيثما يدمر الألمان والروس كل شيء.

ارتمت على الفراش والتقطت مجلةٌ ما وشرعت تقلبها دون اهتمام، وحين طفح كيلها، خرجت من الغرفة بخطى واسعة قاصدة مكتب والدها، ستخبره أنها لم تعد تستطيع التحمل، وأنها تريد العودة للجامعة.

دفعت باب المكتب وهتفت بالتركية:

- "بابا، أنا..."

وقعت عينيها على عمها شوكت وعاصم ابنه الوحيد، اللذين كانا بصحبة والدها، فعدلت الجملة مُكملةً:

- "لا أصدق أنكَ دعوت العائلة أخيرًا".

نهض والدها وهو يقهقه لقولها، وأشار لها بالاقتراب، فبدأت أميرة تخطو نحوهم بندم كي تصافحهما مُرحبة، وتمنت لو أنها لم تأت لهنا بتلك الساعة، فهي تبغض

عاصم بشدة لكون شخصيته وضيعة ومتسلطة، كما أنه من هواة ارتياد المواخير، والعوامات المشبوهة، وأكثر من مرة حاول التودد لها، ورفضته.

صافحت عمها بإسراع وحين صافحت عاصم، بقي ممسكًا يدها لوقتٍ طويل فيما أنامله تداعب كفها وكأنهما عاشقين، فسحبت يدها ونظرت له باحتقار، ولكنه لم يبد مباليًا باحتقارها له كما هو مهتمًا بجمالها الأخاذ.

بادرها وهو يرسم ابتسامة جامدة كالرخام:

- "عام سعيد يا أميرة".

ردت باقتضاب وهي تتراجع للخلف:

- "ممنونة جدًا".

اقترب رستم وقال بهدوء:

- "عاصم سيتجه للإسكندرية غدًا يا أميرة، وسيسافر بسيارته الجديدة، يمكنك الذهاب معه لرؤية صديقاتكِ بالجامعة إن كنتِ تحبين".

نظرت إليه بذعر وكأنه يتلو عليها نبأ إعدامها، وهمهمت بسرعة:

- "إن سمحت لي أن أذهب فسأركب القطار لأنه أسرع، وأفضل".

صمتت وهلةٍ ثم أضافت وهي تغادر باستياء:

- "سأعود الآن للغرفة، فأنا مرهقة ولدي مذاكرة، بعد إذنكم".

ظل الثلاثة ينظرون لبعضهم البعض للحظات حتى قال شوكت بخذلان واضح:

- "يبدو أن أميرة ليست معجبة بعاصم، أشك أنها ستوافق على أمر الزواج يا رستم".

ربت رستم على كتف شقيقه، وقال بينما يسير للمكتب:

- "بالطبع هي معجبة به، ولكن جلوسها بالمنزل يزعجها، سألبي لها رغبتها في السفر حتى يعتدل مزاجها، وحين أخبرها بأمر الزواج، ستوافق يا شوكت، فهي لا ترفض لي أي طلب، وأنا سأكون مطمئنًا عليها وهي زوجة لعاصم، فهو قبل أي شيء من عائلتها وسيهتم بها، أليس كذلك يا عاصم؟"

ابتسم عاصم بدهاء وتمتم:

- "بلا شك يا عمي، سأهتم بها كثيرًا".

- "هذا رائع، الآن دعونا نتحدث عن العمل حتى ينهي الخدم تحضير المائدة".

***

فصل العربات عن القاطرة بغيظ، وأشار بيديه لموظف التحويلة حتى يغير مسار القضبان، وسرعان ما تحرك بالقاطرة في براعة ليتجه نحو القطار من الناحية الأخرى كي يعود أدراجه للإسكندرية.

بدا سالم مستاءً بشدة فتلك بداية غير مبشرة على الإطلاق، وخصوصًا أنه اليوم الأول في السنة.

لقد تبدلت مواعيد الورديات وأغلب القطارات، غير أنه يذهب للإسكندرية ويبوء منذ الصباح، بعدما كان يُبدل مع سائقين آخرين حتى يأتي المساء ويعود.

إنها نهاية وردية الذهاب والعودة المنفردة، فلقد قل عدد السائقين والقطارات بسبب توجههم لنقل المؤن والعتاد من حيفا والسودان، ولذا بدأ البريطانيون في تطبيق ورديات ذهاب وعودة متكررة، ودون زيادةٍ مالية تذكر.

نظر نحو الرصيف وشرد لوهلة قبل أن يبدأ آخر مشوار بورديته، كان الرصيف ملآن بالعمال المستأجرين من الصعيد مقابل مبالغ زهيدة، والمتوجهين للعمل في المنشآت العسكرية البريطانية.

وجوههم كانت كالحة ويطوف حولها الذباب، وبدوا مرهقين للغاية، فخمن سالم أن العمل يجري على قدمٍ وساق. الإنجليز يعيدون تأهيب كل ما تركوه بالحرب الأولى حتى يستخدموه بالحرب الحالية، وكالعادة سيمتصون من الشعب كل طاقته وموارده في تجهيز أنفسهم.

ضرب صافرة القطار ليعلن أنه سيتحرك بعد لحظات قليلة، وبدأ يستعد للفرار من تلك المشاهد المفجعة لولا أن باغته صوتًا يقول:

- "سالم، سالم".

ميزت أذناه الصوت بيسر، إنه صوت أميرة، كانت تقف على الرصيف أسفل القاطرة مباشرة، وقد ارتدت فستانًا طويلًا، داكن اللون عساه يدفئها، وزوج من القفازات النسائية السوداء، ولكن من موقعه لم يكن يرى سوى المدى البعيد.

استطلع برأسه ومكث ينظر للحشود وجزء به يشك أنه توهم آخر، ولكنها لوحت بيديها لتؤكد أنه حقيقة.

- "سالم. هُنا، هنا".

نظر نحو مصدر الصوت، فوجدها تقف تحت نافذة القاطرة بمسافة نصف متر، فغمرته السعادة بطرفة عين وأنسته كل ما أزعجه منذ لحظات.

- "أهلًا يا أميرة، أنت دائمًا تأتين متأخرة هكذا؟"

ضحكت بحيوية وقالت وهي ترفع عنقها كالزرافات:

- "أن آتي متأخرة أفضل من عدم المجيء مطلقًا، هل ستذهب للإسكندرية؟"

هز رأسه مؤكدًا وهو يضيف:

- "وأنا على وشك التحرك".

نظرت بالأرجاء لتفكر وسرعان ما تساءلت من جديد:

- "ومتى ستكون قطارات العودة؟"

- "بالرابعة، والتاسعة".

نظرت بساعتها ثم زفرت بضيق وهمهمت وقد عقدت يديها أمام صدرها:

- "إن أخذت القطار الأول فلن يكون هناك متسع من الوقت للتجول بالإسكندرية، والقطار الثاني سيعيدني متأخرة كما المرة السابقة ولن أجد توصيلة، ولا يمكنني المبيت بالجامعة".

فرك سالم رأسه وتساءل في اهتمام:

- "هل ستذهبين هناك للتجول فقط؟"

أجابت بوجهٍ يشعُ اكتئابًا فيما تحني رأسها بخذلان:

- "نعم، فلقد مللت من الأحداث المحيطة، وإن لم أروح عن نفسي سأصاب بالجنون، لقد سمح لي أبي بالذهاب للإسكندرية ولكن بشرط العودة في ذات اليوم، يبدو أنني لن اذهب من الأساس، يا لحظي السيء".

شعر بوخزةٍ في قلبه لأجل حزنها على ضياع الفرصة، وبسبب عدم وجودها على متن قطاره، فصمت لوهلة كي يعتصر ذهنه بحثًا عن حل، وبعد لحظات ابتسم بهدوء، وقال بلهجةٍ واثقة:

ـ "لا تنزعجي، ستروحين عن نفسكِ وستعودين للمنزل بسلام".

رفعت وجهها الناظر لأسفل ولزمت التحديق به وهي لا تصدق أن هذا ممكن، وغمغمت بصوتٍ متهدج يصاحبه استنكار:

ـ "كيف يا سالم؟ هل ستوصلني كما المرة السابقة؟"

ـ "لو كنت سأعود للقاهرة لكنت أوصلتكِ بكل ترحاب، ولكن هذا مشواري الأخير لليوم، لا تقلقي، سأدبر لكِ الأمور رغم هذا، ثقي بي".

غرقت بعينيه طويلًا وقد أسعدها اهتمامه، وحرصه على جعلها مبتهجة، كما أنه مشواره الأخير وهذا يعني أنه سيكون متفرغًا بمجرد وصولهما، وهي يجب أن تسوي الدين القديم والجديد بأي لفتة أو مبادرة طيبة.

فكرت أنها ستدعوه لشرب شيء والثرثرة لبعض الوقت، فرفقته محببةٌ لها ولطالما تمنت حدوثها، غير أنها لا تعتبره غريب أو مصدر قلق، بل صار منذ لقائهما الأول رفيق طيب جعلها تثق به كأنها تألفه منذ سنوات، ولكن ثمَّ دافع بداخلها يحثها على معرفته حتى النخاع، وعمق العمق، وليس مجرد سنوات.

تبسمت بعنفوان وقد دبت الحمرة بوجهها وهمست فيما تدخل القطار:

ـ "لتسرع إذن فلدينا الكثير لنفعله".

"هل قالت لدينا؟!"

هز رأسه بالطاعة رغم أنها فرت للداخل ولن تراه، ثم ضرب صافرة القطار بنفس النغمة المألوفة لديهما، وبدأ يتحرك بسرعة البرق ماضغًا مساحات الحقول الشاسعة، والترع الجارية.

لقد أصبح فجأة، متفائلًا بهذا العام الجديد.

بلغ القطار محطة الإسكندرية قبل الثالثة عصرًا، وهناك هبطت أميرة بسرعة الضوء وظلت منتظرة نزوله من القاطرة فيما الرياح تعصف بشدة.

كان الطقس باردًا للغاية، ولكنها لا تكترث، فكلمات سالم المطمئنة، والحانية، لا زالت تبعث الدفء بجسدها كلما تذكرتها، إنه يقطع وحدتها المؤلمة، وينهي بابتسامة واسعة، تاريخ الغربة التي عاشتها بمفردها.

هبط وبدأ يسير نحوها فبادرته قائلة:

- "هل انتهيت؟"

أجاب وهو يسير معها نحو غرف الموظفين داخل المحطة:

- "ليس بعد، سأدبر خطة عودتك أولًا".

دخل غرفةٍ ما دون أن ينتظر تعقيبها، فظلت بانتظاره، وبعد قرابة الدقيقتين خرج مبتسمًا، وقال فيما يقف أمامها:

- "يجب أن تكوني هنا في السابعة حتى تعودي للقاهرة".

عقدت حاجبيها في دهشة، وعقبت فيما تسير ببطء:

- "ولكن قطار العودة سيغادر بالتاسعة، هل ستجعله يغادر مبكرًا؟"

ضحك سالم بمرح وهو يعلق:

- "أنا لست الملك فاروق لأفعل هذا".

ابتسمت في خجل وقد أدركت أنها تصرفت بعفوية للتو وطرحت سؤالًا تلثمه البلاهة، وكانا قد بلغا الطريق الأسفلتي فوقفت تجول بعينيها في المكان ثم وجهتهما نحوه وقالت فيما تضيقهما لتتفادى الهواء المحمل بالغبار:

- "حسنًا، أخبرني ماذا فعلت؟"

كاد أن يقول: "فيما؟"، ولكنه تذكر كونه لم يفسر ما فعله لفرط توتره بوجودها، فقال موضحًا وهو يتحاشى مطالعتها كي لا يتلعثم:

- "بعد فشلي في إيجاد قطار مدني ينقلك، لم أجد مناصًا من تدبير توصيلة على متن أحد القطارات الحربية القادمة من مرسى مطروح".

همهمت بعدم اقتناع:

- "أتعني أنني سأركب وسط الجنود والسلاح؟!"

"بالطبع لا، القطار سيعود فارغًا تمامًا، وهو مكلف بعدم التوقف داخل أي محطة حتى يعود لمصر بأسرع وقت، يبدو أنهم بدلوا المواعيد مرة أخرى وسيرسلونه لوجه قبلي مبكرًا، على أية حال لا يمكننا أن نشتكي فلولا الضغط الشديد على المسارات الأخرى ما كان سيمر من هنا".

صمتت لحظات كي تفكر بالأمر، وسرعان ما علقت:

ـ "ولكن كيف سنصعد على متنه ما دام لن يتوقف داخل أي محطة؟"

همهم بشيء من العنفوان:

"لدي سابق معرفة بالسائق ولقد حدثته عبر الهاتف، لذا سيهدئ سرعته ليسمح بصعودك ولكن يجب أن تكوني بأقصى الرصيف حتى لا يُلحظ الأمر".

فغرت فمها غير مصدقة، فمن الناحية العملية هذا يعد تصرفًا ملكيًا من الدرجة الأولى، وهمست بعد حين وهي تنظر لساعتها:

ـ "أشكركَ للغاية يا سالم، أنت إنسان رائع بحق".

ظن أن تلك جملة الختام، وأنها تنظر في ساعتها لتبدأ العد التنازلي للوقت المتاح أمامها، فرسم ابتسامةٍ جامدة وعقب فيما يتحرك بالاتجاه المعاكس:

ـ "لا داعِ للشكر، إلى اللقاء".

هتفت فيه لتوقفه وكانت منفعلة:

ـ "سالم، هل ستدير ظهرك لي وترحل كالمرة السابقة، الحوار لم ينته بعد!"

عاد مسرعًا وتمتم ليفسر تصرفه الفظ:

ـ "ولكنكِ كنتِ تنظرين بالساعة وتشكرينني، ظننت أنك تختمين اللقاء بتهذيب".

زمَّت شفتيها بغضب، ودامت تحدجه بعينيها السوداوين كما السحب الغائمة فوقهما، وهمهمت بعد حين في حصافة وهي تحرك رأسه كلغةٍ ثانية:

ـ "أنا أنظر بها لأعرف كم الوقت، فأنا أتناول قهوتي بالثالثة، وأنت ستنضم لي بما أنكَ أنهيت العمل، ولن أقبل أية أعذار، ستروق لكَ القهوة العثمانية".

أومأت برأسها لتؤكد على جملتها الأخيرة، وعقدت يديها قبالة صدرها منتظرة رده فنظر إليها متأملًا حتى همهم بتهذيب:

ـ "سيكون لي الشرف".

شرعا في السير بالدرب الملآن بجنود الحماية والعامة، حتى بلغا المقهى المراد، وهناك جلسا بالداخل ليتفاديا الرياح، وقامت هي بطلب القهوة، وقالت فيما ينتظران وصولها:

ـ "من الجيد أنك ستبيت بالمنزل اليوم، البنسيون مكلف وغير آمن".

سحب نفسًا طويلًا ثم طرده:

ـ "لم يعد هناك شيء آمن".

وصل النادل فصمتا حتى غادر، ثم التقطت أميرة فنجانها وهمست:

ـ "والدي يقول هذا أيضًا، ولكنني أؤمن أن أقدارنا ستكون أفضل بجهودنا".

ارتشف سالم بالمقابل وبدا عليه الاستمتاع المفرط، رغم أنه لا يحتسي القهوة من الأساس، وعقب بعد حين وهو ينظر للشارع عبر النافذة:

ـ "الأقدار كما القطارات تمامًا، إنها تسير وفق مسار محدد لا تغادره سواء اجتهدنا أم لم نجتهد، في قطارات أقدارنا، نحن راكبون ولسنا سائقين".

صمتت أميرة طويلًا ثم ارتشفت من فنجانها وهمهمت:

ـ "تلك مقولة جيدة لتكون حكمة، ولكن في الواقع نحن نستطيع تحديد مصيرنا، أنا أستطيع بلا شك، تلك وجهة نظري".

هز كتفيه مستسلمًا وغمغم:

ـ "تحترم بلا شك".

أخذت الفناجين تتوالى على طاولتهما فيما يتحدثان دون توقف عن أفكارهما، والاهتمامات، إضافة لنبذة عن الحياة العائلية، وانساب الوقت من بين أيديهما ولم ينتبها إلا حينما نظرت أميرة بساعتها لتجدها السادسة والنصف.

نهض سالم مفزوعًا وقال بنبرة آسفة:

ـ "لقد سرقنا الوقت".

ضحكت بينما تلتقط حقيبة اليد خاصتها، وقالت فيما تهم بالمغادرة:

- "ولكنني روحت عن نفسي".

تنهدت بعمق فيما تنظر له وأضافت:

- "لم لا نكمل موضوعنا فيما توصلني للمحطة؟"

هز رأسه موافقًا وأخذ يبتسم، وباضطراب، وضع يديه المرتعشة داخل جيبه ليخرج حساب المشروبات رغم امتناعها، ثم طفق يتهادى معها نحو المحطة، وكان طيلة المسيرة يفكر بنسبية الوقت الغريبة، ولكن الأغرب هو ما حدث تاليًا.

وقفا بأقصى الرصيف ينتظران القطار الحربي فاعترفت أميرة بتردد:

- "كنت أتحجج لوالدي بأمر الجامعة ولكنه لم يكن مهمًا فليس لدي صديقات هناك، ولكنني طلبته لأبتعد عن المنزل قليلًا، أردت التنزه بعيدًا عن أخبار الحرب، والتضخم الاقتصادي، وكنت سأفعلها بمفردي كما اعتدت، ولكن لقد سرتني رفقتك للغاية".

هم سالم بالتعقيب ولكنه سمع صافرة القطار المقترب، وأدرك أنه لا يملك الوقت الكافي للرد فنظر نحوها ببعض الحزن لأنها ستمضي، وحدقت هي بوجهه منتظرة تحدثه، وقطع تحديقهما صوت سائق القطار الذي يهتف من بعيد ورأسه خارج القاطرة:

- "بسرعة يا سالم".

نظر سالم نحو السائق ثم طالعها منتظرًا رد فعل مجنون وغير اعتيادي، ولكنها لا تملك سوى العودة للقاهرة، فشرعت تنظر نحو العربات التي تمر أمامها، ووقفت على مقربة من القطار منتظرة تباطئه كي تركب، وفجأة قال سالم وهو يقف خلفها:

- "تمنيت لو أن لدينا وقت أكثر".

التفتت للخلف، ولم يكن هنالك ما يمنع التصاقهما سوى شبرًا من الفراغ، فدبت بها الحمرة وعلمت أن التراجع فيه خطورة لكونها قريبة للغاية من القطار، ولذلك تجمدت مكانها ولم تعقب، فقط دامت تغوص بقسماته لأنها لا تدري متى ستراها من جديد.

وكان هو هائمًا بوجهها الملائكي، ذاك الذي تمنى رؤيته طيلة شهور، ود بتلك اللحظات لو تتوقف ساعات الزمن، أو تمن عليهم الأقدار بساعة أخرى، ولكن ببعض الأحيان يتحتم على المرء أن يقاتل بنفسه ليربح ما يريد.

أضاف وهو يميل للوراء قليلًا:

- "حين نصل القاهرة سيكون لديك قرابة الساعتين ويزيد قبل أن تعودي للقصر، ما رأيك أن نأكل شيئًا هناك، هل تحبين الدجاج المشوي؟"

"أقال لتوه نصل، ونأكل؟"

توقف القطار فدخلت عبر الباب، وهي تقول ضاحكة:

- "كثيرًا، ولكن لماذا ستعود للقاهرة؟"

صعد تباعًا وأطلق صفيرًا مدويًا، تحرك القطار على آثره ثم أجابها وعيناه تلمعان بشغف:

- "لأن رفقتك تسرني كذلك".

شعرت أميرة ببعض الحياء وراحت تنظر بفراغ العربة كي تتحاشى مطالعته، ولكن لم يكن هنالك ركاب، ولا كمسري، ولا حتى باعة جائلين.

ستقضي الساعات القادمة ولا أحد قربها سوى سالم، إنها في أوج سعادتها.

يبدو أنه سيكون عامًا مبهجًا، ولو على الصعيد الشخصي وليس الدولي.

***

بحلول منتصف أبريل، كانت الجيوش الألمانية، قد تمكنت من السيطرة على الدنمارك والنرويج بعد قتال استمر لأيامٍ فقط.

الهجوم الألماني أمسى فظيعًا ومروعًا، وكانت استراتيجية الحرب تعتمد على المباغتة، فسميت تلك الحرب باسم حرب البرق، وعلى أثرها تمكن هتلر من توسيع حدود ألمانيا من جهة الشمال بعدما وسع الحدود الشرقية بغزو بولندا، وأيضًا قام بتأمين ميناء نارفيك في النرويج، والذي يُشحن منه نسبة كبيرة من الحديد الخام نحو ألمانيا، لتغذية مصانع السلاح وآلات الحرب.

في لندن، عُين ونستون تشرشل رئيسًا للوزراء، وكان يسعى مع الفرنسيين لإيقاف شحن الحديد نحو ألمانيا عن طريق إرسال نخبة من قوات التحالف للسيطرة على ميناء نارفيك، ولهذا وفي صباح السادس عشر من أبريل كان روبرت وسيمون على متن حاملة الطائرات المبحرة بنهر الشمال رفقة سفن أخرى تحمل الجنود.

سيتم الإنزال في ثلاث مدن نرويجية، والتفوق العددي في صالح الحلفاء، ولهذا كان روبرت وسيمون، اللذان باتا رفيقي حرب، واقفين على سطح حاملة الطائرات وقد بدا عليهما الارتياح والتفاؤل.

إنهما يرتديان معطفين ثقيلين ويتناولان تعيين الصباح باستمتاع مفرط أمام مشهد الشروق، ولحسن حظهما تعيين اليوم عبارة عن لحم وخُضر.

تمتم سيمون وهو يمضغ اللحم المتيبس:

- "الطعام تجمد بسبب البرودة، سيكون التحليق صعبًا بلا شك".

التفت روبرت نحوه لوهلة ثم همس بينما ينظر للسماء الرمادية فوقهما:

- "الطقس هو عدو المقاتل اللدود، ولكنني أشك أن الطعام نيئ وليس متجمدًا!"

تزرد سيمون الطعام بسرعة وقهقه للمزحة فيما ينظر بعينيه بالأرجاء، ثم توقف بغتة وهتف يما يُشير بسبابته نحو الأفق:

- "مضيق نارفيك هناك، هل تراه؟"

هز روبرت رأسه بنعم فيما يلقي بالطعام نحو البحر، وسرعان ما دوت صافرة التجمع، وبعد قرابة الساعة بدأ الإنزال فعليًا وكانت قوارب الجنود تملأ المضيق، وخلفها ارتفعت مدافع السفن القتالية في تحفز، فيما بدأ سلاح الجو القليل العدد في تأمين كلاهما من السماء.

****

صمدت الدفاعات الألمانية، واستمر القتال لمدة شهر ويزيد، وبحلول أواخر مايو تمكن الحلفاء أخيرًا من تأمين نارفيك، أو ما بقي منها.

لم يستشعر أيٌ من سيمون وروبرت بهجة النصر آنذاك، فلقد فاضت أرجاء المدن المقصوفة بجثث الجنود والمدنيين، بعضهم مات بسبب القتال، وبعضهم قتلته

البرودة والجوع، وكان الأحياء من قوات التحالف يمشطون أمام أعينهم كل الأماكن بحثًا عن جثث جنودهم ليبرموها بالعلم ويلقوها للبحر، فيما كان النرويجيين يدفنون قتلاهم بمدافن جماعية، وتركت جثث الألمان بالخلف.

جلس سيمون فوق نصف جدار مهشم، وقال وعينيه تنظران نحو جثة شابة يافعة يهم الأهالي بحملها بعيدًا:

- "سيلعننا الرب بسبب فعلتنا يا روبرت، المفترض أن نحارب بدلًا من هؤلاء الذين لا يستطيعون القتال، ولكننا نحاربهم ونقتلهم!"

نظر روبرت نحوه وبسرعة خاطفة تفهم أنه يعاني من الصدمة لأنها أول تجربة له على الجبهة، لقد مر بتلك المرحلة في الهند ويدري ما ستحدثه به نفسه وعقله.

- "نار الحرب لا تميز أحد يا سيمون، كف عن لوم نفسك فنحن سيطرنا على المرفأ، والآن تصنيع السلاح بألمانيا سيتوقف، وسيتوقف زحفهم، وستتوقف الحرب".

رفع سيمون عينيه لينظر نحوه دون تصديق، ثم نهض ببطء ليسير بأرجاء القرية وهو يأمل بهذا، ولكن أوقفه صوت أحد الجنود، الذي كان يهتف بفزع:

- "لقد سقطت فرنسا، وانسحبت جيوشنا".

التفت سيمون نحوه مذعورًا، وسرعان ما عدل السير صوبه، ولما أدركه أمسكه من كتفيه وهتف وعينيه تكادان تخرجان من محجريها:

- "ماذا تقول أيها المجند؟"

تدخل روبرت بينهما ليسيطر على سيمون وفسر الجندي وهو يلهث من ركضه فيما الجنود يتجمعون حولهم وقد تركوا الجثث:

- "لقد خدعنا الألمان، لقد قاموا بغزو هولندا، وبلجيكا، ولكسمبورج، واستدرجوا قواتنا نحو الشمال حتى يعبروا غابة أردين البلجيكية بيسر ويتفادوا خط ماجنو ويلتفون من ورائهم، لقد سقطت قواتنا هناك في الفخ".

ضرب روبرت جبهته غير مصدق، وتساءل سيمون وقد بدا لفرط خوفه واهنًا:

- "إلى أي مدى تقدم الألمان في فرنسا؟"

أجاب المجند وهو ينظر لأسفل:

- "لقد دخل النازيون باريس، وعلقوا شعار النازية فوق برج إيفل، وإجلاء قواتنا بدأ بعد الخسارة يا سيدي، وانتهى بالرابع من يونيو".

صمت سيمون وبدأ يترنح وعينيه تدمعان، هذا يعني أنهم ببلاده منذ فترة، ولقد كتمت القيادة على الأمر حتى ينتهي القتال هنا، كي لا يحبط الجنود.

لقد سقطت بلاده، وباتت عائلته بخطر، وكل القتال الذي جرى هنا سيطير هباءً، فهم سيعودون أدراجهم وسيتركون نارفيك بلا قوات تذكر بعدما لم يبقوا بها شيء واقفًا على الأرض.

إنها طعنة في الظهر بالنسبة للجميع، وطعنته كانت أكبر ولم يحتملها.

هوى على الأرض فاقدًا للوعي، فهب روبرت نحوه وظل يناديه فيما يحاول إنعاشه، وحين يأس بدأ يحمله للشاطئ حيثما القوارب التي ستعود بهم للسفن الراسية بالمرفأ، وتبعته قوات التحالف.

الأحياء فقط.

***

كان انسحاب دنكيرك مهينًا للغاية، فلقد علق الجنود المهزومون على الشاطئ بعدما أغرق الألمان كل سفن النجدة القادمة لأجلهم، واضطروا أن يناموا في العراء لفترة طويلة، بلا طعام أو ساتر للحماية، معرضين لقصف طائرات ستوكا بأي لحظة، وكل لحظة.

رغم تلك الشناعة، أظهر الشعب البريطاني لفتةً تفيض جمالًا، تجلت حين توقف الهجوم الألماني لثلاثة أيام، فخرجت على أثر توقفه ملايين القوارب، والزوارق في حملة إنقاذ مدنية لجلب الجيش المهزوم، وبالفعل تم إجلاء عددٌ من الجنود فيما سقط الباقون في الأسر.

تمت مقابلة هؤلاء الناجين في المرافئ ومحطات القطار من قبل ربات المنازل اللواتي أحضرن طعامًا وفيرًا ليتناولوه بعد تلك الأحداث الصعبة، ورسموا بسمة مواسية للتخفيف.

لقد تماسك البريطانيون رغم أنهم باتوا وحدهم في الحرب.

لم تكن الأمور بفرنسا تسير على نفس النمط، فلقد أعلن موسوليني الحرب على الحلفاء بعد انسحاب دنكيرك، وبعد أيام استسلمت فرنسا، وتم توقيع الهدنة بحلول الثاني والعشرين من نفس الشهر، وقسمت الأراضي الفرنسية بين إيطاليا وألمانيا.

****

كانت تلك الأخبار المتتابعة كفيلة بجعل سيمون يصاب بموجةٍ من الكآبة، والوساوس، والخوف، ولكن بحلول العاشر من يوليو، أي يوم بداية معركة بريطانيا وصله خطابٌ من ليندا ينوه أنها بخير وكذلك عائلته، ويفصح بأن الجنود لا يهاجموهم منذ توقيع الهدنة.

كان هذا الخطاب بمثابة جرعة مسكن تخفف الألم ولكنها لا تنهيه.

حين دمق روبرت لحظيرة الطائرات تلك الليلة، وجده يحتضن الرسالة بشوق ويشم رائحتها كل حين، فتمهل لحظات حتى يمنحه قليلًا من الخصوصية، وحين وضع سيمون الرسالة بجيبه، تقدم حاملًا قنينة خمر، وجلس بها قبالته، وتساءل:

ـ "هل هم بخير؟"

هز سيمون رأسه وهمس بصوتٍ مبحوح:

ـ "حتى الآن هم كذلك، لقد فشلت في حمايتهم يا روبرت، وفشلت في حماية فرنسا".

رفع روبرت القنينة لفمه ودام يتجرع للحظات، ثم أنزلها وعقب:

ـ "علم فرنسا سيرفع فوق باريس مجددًا، فالحرب لم تنته بعد، ولا يمكن لها أن تنتهي قبل أن نهزم الفيرماخت".

ـ "أتظن أننا نستطيع هزم الألمان كما الحرب الأولى؟"

ـ "بلا شك".

نهض سيمون وهو يقول:

ـ "بماذا يا روبرت؟ لقد تركنا كمية كبيرة من العتاد، والمعدات فيما نقوم بالإجلاء، وكذلك فقدنا رجالًا كُثر، الألمان عادوا هذه المرة وهم عازمون على الثأر، سيهاجمون بريطانيا بأي وقت".

نهض روبرت وهتف بغضب:

- "سنهزمهم حين يأتون بصمودنا يا سيمون، الألمان يقاتلوننا جسديًا ونفسيًا، فلا تدع اليأس يصيبك ويقتلك قبل أسلحتهم، إنهم ليسوا آلهة، إنهم ينزفون مثلنا".

وقفا يحدقان ببعضهما البعض، ولم يقطع التواصل البصري بينهما سوى صوت صافرة الإنذار التي تنوه بوجود طائرات ألمانية بالجوار، وكانت تلك الطائرات قادمة في غارةٍ مكثفة لاستهداف قواعد الطيران الملكية، وخطوط المواصلات، ومحطات الوقود، تمهيدًا لإنزال كبير كان مخطط له من قبل هتلر، حتى يتم غزو بريطانيا.

غرقت لندن بالظلام بعدما أطفأت الكهرباء ولم يكونا يشاهدان من حظيرة الطائرات سوى الضوء الناجم عن انفجارات القصف العنيفة.

الطائرات الألمانية تمطر لندن بالمتفجرات دون رحمة.

شعر روبرت بالهلع وكان بأقصى حالات انتشائه فلم يفكر سوى بشيء واحد، ماذا لو أصيبت فيرونا بسوء، طرح القنينة أرضًا وركض نحو طائرة من نوع سبيد فايرٍ تنتصب بالجوار، وبدأ يضغط أزرارها فيما يرتدي قناع التنفس، وكان سيمون واقفًا بالظلام يطالعه، ويطالع الانفجارات الكثيفة بالخارج.

كان يعرف أن بريطانيا لو سقطت ستنتهي الحرب، ويعرف أنه لم يكن موجودًا وقت احتلال بلاده، ولكنه موجودًا الآن، ولذا سيقاتل حتى يسعه يومًا دخول فرنسا.

ركض نحو طائرته بخطوات متعثرة، ثم أدراها ليتحرك مع روبرت تجاه الخارج قبل أن يبلغهما القصف، وحين باتا على الرصيف، نظر له روبرت من طائرته بفخر وجنون، ثم انطلق فوق المدرج للحظات قبل أن يرتفع بالسماء، قاصدًا سرب الطائرات الميشرشمث.

***

خلعت حذائها ذا الكعب العالي، وركضت بأقصى سرعتها مع العامة المهرولين بالطريق.

كانوا جميعًا يثابرون باستماتة كي يدركوا نفق المترو حيثما تلوح لهم النجاة والأمان اللحظي، وحولهم، كانت النيران تنير كل شيء، وكانت ألواح الأخشاب،

وقطع القرميد، وشظايا الزجاج لا تنفك تتساقط من المباني المقصوفة لتصيب بعضهم، أو لتسد طريقهم.

البعض كان يصرخ، والآخر يتعثر لفرط خوفه وانحلال أعصابه فيدهسه الآخرون دون وعي، كما لو أنهم يركضون بأرض المحشر، وكانت قاذفات القنابل ستوكا والطائرات الميشرشمث، تحلق فوق رؤوسهم وتطلق عليهم الرصاص والقذائف بلا هوادة.

انقضت دقائق من الرهبة والمثابرة حتى بلغت فيرونا السلم، بعدما أصيبت ببعض الخدوش من آثر الزجاج المتساقط، وقبل أن تهبط للتواري من الطائرات، وجدت نفسها ترنو للسماء في قلق، وكانت ترى رغم الظلام خيوطًا برتقالية تحدثها الطلقات المتتابعة، التي تندفع من طائرات سلاح الجو الملكي وجيش الفيرماخت.

شعرت بالخوف على روبرت، فالطائرات تسقط من كلا الطرفين نحو الأرض كما الذباب المعرض للكيروسين، أو كما الشُهب.

لندن بأكملها كانت تحترق.

بقي الأشخاص المذعورون يصطدمون بقامتها المرهقة فيما ينزلون الدرج، فتحركت رغمًا عنها مع الحشود حتى باتت بالأسفل، وهناك رأت الآلاف من الأشخاص متكدسين فوق بعضهم البعض كما فواكه داخل سلة، ولكن لم يكن هناك من يتشكى، وسريعًا بدؤوا في الاعتياد على الجلسة المتصلبة، فهي أفضل من الموت مهما كانت حقيرة، وبائسة.

كان الأطفال يبكون من صوت التفجير الذي لا يتوقف، وكان الناضجون من الجنسين يتناقلون أحاديث سياسية ومناقشات مصيرية، البعض يعلن أنه سيرحل من لندن إن بقي حيًا بعد تلك الليلة، والبعض الآخر يقسم أنه سيتطوع ويثأر لنفسه وللبلاد، وهناك من كان مصدومًا وينادي أفراد أسرته الذين لم ينجحوا في النجاة.

سدت فيرونا أذنيها، وأغمضت عينيها، وانزوت بركنٍ قريب من القضبان كي لا تشعر بشيء، وظلت تفكر، وتفكر.

بتلك اللحظات، لم تكن خائفة فحسب من البريطانيين الذين قد يسجنونها، بل باتت تخاف أيضًا من جنود بلادها الذين كادوا يقتلونها منذ دقائق دون تمييز.

يجب أن تغادر بريطانيا بأي وسيلة.

استمرت المعركة لفترةٍ طويلة من الليل حتى انسحبت الطائرات الألمانية قبل أن ينتهي الوقود، وكان العامة قد طببوا الجروح، وناموا بمحطات المترو والملاجئ لفرط تعبهم، وبقيت فيرونا آرقة، ومتحفزة، تحدق بعينيها في الفراغ فيما يعمل عقلها على إيجاد وسيلة للهرب، حتى انتبهت على صوت بعض المجندات اللواتي هبطن السلم مع خيوط الصباح الأولى.

كن يعرضن على النساء فيما يهتممن بتطبيبهن، أمر التطوع في مجال التمريض خارج بريطانيا، ولم تتردد فيرونا للحظات في صنع خطة ارتجالية.

أخرجت بطاقة الهوية الخاصة بها لتمزقها سرًا وبدأت تمضغها بأسنانها حتى جعلتها كرةً بلا ملامح، وحين ابتلعتها بدأت تنهض نحوهن ولما باتت قريبة نوهت بصوت محشرج:

ـ "كنت أعمل ممرضة قبل الحرب، ويمكنني المساعدة، أريد أن أتطوع".

التفتت إحدى المجندات لتنظر نحو الخدوش بجسدها، وتساءلت أخرى:

ـ "أين بطاقة هويتك؟"

أجابت بسرعة فيما تمثل الحزن:

ـ "إنها تحت الأنقاض، أنا بالكاد نجوت".

نظرت المجندة الأخرى للخدوش التي تملأ وجهها وذراعيها فصدقتها على الفور، وتساءلت فيما تلتقط قلمًا لتكتب بالدفتر المرتخي بيدها:

ـ "ما اسمكِ يا آنسة؟"

ـ "فيرونا جورج".

رمقتها المجندة وهي تستفسر:

ـ "لقب العائلة؟"

صمتت فيرونا لحظات وبدت عليها الحيرة فهي لم تفكر من قبل باسم مزور لجدها ولكن لا بد أن تنطق أي اسم بسرعة.

قالت بتلعثم أول اسمٍ خطر ببالها:

- "فيرونا جورج... فيلد".

هزت المرأة رأسها بأن تسجيل الاسم قد تم، وبدأت تسرد عليها ما ستقوم به لتكمل التطوع فيما فتاة أخرى تتولى تطبيب جروحها، ووضع اللاصقات الطبية فوقها.

- "هل سأكون ممرضة بلندن؟"

سألت من تطببها، فأجابت المجندة وهي تنهض واقفة:

- "كلا، فنحن نطلب متطوعات ليذهبن لإفريقيا، أما زلتِ مهتمة؟"

ابتسمت فيرونا بدهاء وهي تهز رأسها وتجيب:

- "سأخدم البلاد بأي مكان".

تذكرت أنه بتركها لندن لن ترى روبرت من جديد، ولكنها قبلت بهذا، فهي ألمانية قبل أي شيء، وهو لن يتودد لها لو علم، وإن كان هناك مشاعر تنتابها تجاهه ولا تدري بم تفسرها، فيمكن بلا شك تسميتها بالوهم، لأن كل ما يبنى على الكذب لا يمكث طويلًا، ويهوى مع أول عاصفة.

***

دام حسين نائمًا بعمق كالصبية حتى استيقظ مفزوعًا على صوت صافرة الغارة الصاخبة والكفيلة بإسماع سكان الإسكندرية بأسرها، فركض بخطى متعثرة نحو الأزرار ليفصل التيار الكهربي عن المنزل كالمعتاد، ثم توجه للنافذة وعلق عينيه على السماء فيما يديه تهمان بإشعال سيجارة.

نفث دخانها بغيظ، وبدأ يفكر في سالم بكل القلق المتاح، فمنذ أن أعلنت إيطاليا الحرب على الحلفاء، تتعرض مدن مصر لغارات إيطالية، وألمانية بلا توقف، رغم أنه تم إعلان القاهرة كمدينة مفتوحة، ولكن يبقى الخطر باقيًا ما دامت معسكرات البريطانيين، التي انتهى تجهيزها، في حالة عمل مستمر.

غير أن الحلفاء قاموا بشن غارات على معسكرات الجنود بليبيا، فمن الطبيعي أن تشن غارات على معسكرات الجنود بمصر.

سكن هدير الطائرات، فعلم أنها ابتعدت بما يكفي وبدأ يُشعل الضوء من جديد، ولكنه لم يعد للنوم لفرط انشغاله بسالم، ولأنه لا يدري أين يبيت الآن، وساوسه لا تتوقف.

دلف للغرفة وارتدى ثيابه في شرود، ثم أطفأ الأنوار وغادر البيت، ولم يكن قد فكر بوجهة ولكن قادته الخطى للمطعم الخاص به، وقبل أن يفتحه شاهد حانوت ماركو مضاءً فمشى صوبه ليرى من بالداخل خشية أن يكون لص.

وقف بعتبة الدكان لحظات ثم دخل بغتة ليشل حركة اللص، ولكنه لم يجد سوى ماركو المرتخي على كرسيه القريب من المذياع، والحريص على التنقل بين محطة لندن، والبي بي سي.

أصيب الكهل بالذعر بسبب دخول حسين المباغت، فأخذ يشتم باليونانية وقد وضع يديه على قلبه:

- "تبًا لك يا حسين، كنت ستصيبني بنوبة قلبية، أيها الوغد".

كان حسين معتادًا على أسلوب ماركو الكثير السباب، ولا يستاء منه، ذلك لأنه يبدو مضحكًا وهو غاضب بسبب تعابير وجهه وقصر قامته.

تقدم نحوه بخطى ضيقة وبدأ يفسر بندم وهو يكتم ضحكه:

- "لقد رأيت الضوء وظننت المحل يسرق فالوقت متأخر، يجدر بك أن تشكرني".

نهض وهو يعقب باستياء:

- "أشكرك لأنكَ كدت أن تقتلني من الفزع، كلا، دع المحل اللعين يسرق بالمرة القادمة، أنا لست قلقًا بشأنه فنحن قد نموت بأي وقت".

أشعل حسين سيجارة أخرى وبقي يراقب وجهه الغاضب فيما يبتسم، فأضاف ماركو ببعض الهدوء:

- "أخبرني ما الذي جلبك لهنا بتلك الساعة؟"

هز حسين كتفيه وهو يجيب:

- "لا شيء معين، أنا لم أسقط في النوم بعد الغارة".

- "ومن ينام بتلك الظروف، أنا أيضًا هبطت للجلوس هنا بسبب الأرق".

كان متجر ماركو يقع أسفل شقته التي يحيا بها منفردًا، فهز حسين رأسه متفهمًا، وتساءل فيما يدفن عقب سيجارته بالمنفضة:

ـ "لماذا لم تعد لليونان؟ على الأقل حتى تتحسن الأوضاع".

نظر له ماركو بيأس فهو يعرف أنه لا يتابع الراديو ولا الصحف، وتساءل بالمقابل:

ـ "أأنت أبله أم ماذا؟ اليونان حالها أسوأ من هنا، نحن نعاني في مصر بسبب بعض القوات الإيطالية المتمركزة قرب الحدود، ولكن الشعب اليوناني يعاني بسبب وجود إيطاليا جوارهم مباشرةً، هل فهمت أيها الجاهل؟"

قطب حسين جبينه:

ـ "نعم، لقد فهمت، واعذرني يا خواجة ماركو فأنا لا أعرف عن الجغرافيا كثيرًا، أعطني دزينة سجائر لأرحل، فأنت تبدو متعكر المزاج".

نهض ماركو ليجلب له السجائر وهو يراجع نفسه فيما قال، وحين عاد ربت على كتفه ملاطفًا وقال:

ـ "لا تغضب مني يا حسين، فأنا قلق على شقيقي وعائلته، لقد أرسلت لهم خطابًا منذ أسابيع ولم يأتني رد حتى الآن، أنا أفرغ غضبي عليك لأنني أعتبرك مثل ولدي الذي سيعذرني".

جلس على المقعد ليريح ساقيه، وأشار نحو كانون صغير يقع أمامه فيما يضيف:

ـ "اصنع لنا بعض الشاي فأنا لا أستطيع".

عاد حسين للداخل وهو يبدي تفهمًا لسوء حالته النفسية، وبدأ يعد الشاي بعدما جلس قبالته، وكان ماركو شاردًا في تصور بلاده، بكل معالمها وحقولها ولم يفقه سوى وكزة حسين الخفيف.

نظر نحوه فرآه مشيرًا لكوب الشاي الموضوع على المنضدة، فتناوله بيدين مرتجفتين وبدأ يرتشف باضطراب، وساد صمتٌ عميق بينهما، لم يقطعه سوى آذان الفجر وخطى المارة المتوجهين للمساجد.

التفت حسين نحو الباب وقال متأملًا:

- "في أوقات الشدة والبلاء، يُصبح المتعبدين أكثر عددًا، قبل الحرب لم تكن ترى خمسين شخص بصلاة الفجر ولكنهم الآن مئات".

أضاف ماركو وهو يضع القدح الفارغ:

- "ماذا ستقول لو رأيت قداس الأحد، نحن نعرف الرب عندما لا تتيح لنا الظروف معرفة سواه، ولذلك لا يستجب لنا".

ابتسم حسين بمودة قبل أن يهمهم:

- "إنه يستجيب دعاء الأسوأ فينا قبل الأنقى، فهو غني عنا جميعًا، ولكن تغيير الأمور لا يحدث بيوم وليلة، عل القادم أفضل بإذن الله، سأنهض للصلاة ثم سأعود لأفتح المطعم، هل ستبقى جالسًا أم ستنام؟"

رفع وجهه لينظر إليه وهمهم ببعض الخمول:

- "سأبقى جالسًا حتى أنام!"

هز رأسه بالتفهم وغادر الحانوت ضاحكًا، لا بد أنه سيجده نائمًا بعودته، ففي الصباح تقل الغارات ويتسنى النوم للبعض.

ربما يفعل المثل هو الآخر.

***

ألقى توماس بالمعول الصغير حين حفر آخر فجوة في خطوط الحقل، وتبعته كارلا في وضع البذور بها وإعادة تغطيتها، ثم وقفا يجففان عرقهما وينظران للشمس الحارقة التي توسطت السماء.

وخزته كارلا بسبابتها فيما تلهث، وأشارت نحو ظل الأشجار التي تحد المنزل، فتوجه معها لهناك حتى يلتقطا أنفاسهما.

استندا لساق شجرة، ومددا ساقيهما، وفيما كان توماس يفرقع مفاصله، خلعت كارلا قبعة القش الكبيرة، ومسحت وجهها المتعرق بفوطة قطنية كانت ترقد بجيب فستانها، ثم تلفتت بالأرجاء فيما تبتلع ريقها وتدفعه لحلقها الجاف.

لقد أنهكت اليوم كثيرًا، فهي منذ الشروق تعمل مع توماس في وضع البذور، ويكاد ظهرها ينفلق من الانحناء، غير أن حرارة الشمس أصابتها بالدوار.

قررت أنها ستنظم أنفاسها، وستعمل على تبريد جسدها ثم ستصعد لتلوذ بحمام بارد يليه تبديل تلك الملابس المغبرة والناضحة بالعرق، قبل أن ينوه الوالدين بموعد الغداء.

بعد دقيقة، لمحت ساعي البريد المعتاد يقترب من المنزل، فنهضت بهمة ومشت تجاهه، وتبعها توماس دون تمهل وقد علاه الفضول.

تسمر الساعي المُسن أمام باب الحديقة الخارجي، وبحث بحقيبته الرمادية عن الخطاب المنشود، ولما سمع حفيف خطوات كارلا رفع رأسه وحياها بمودة قبل أن يقول:

- "إليك يا كارلا، وأرسلي سلامي لوالديك".

همست بأدب وهي تفتح باب الحديقة الخشبي:

- "دعني أعد لكَ شيئًا تشربه فالطقس حار، وأنت مشيت كثيرًا حتى هنا".

وصل توماس إليهما فالتقط الخطاب من يد الساعي ليقرأ عنوان المرسِل فيما كان الأخير يهمس لكارلا:

- "ربما بوقتٍ لاحق".

أبت كارلا أن تتركه يسير بهذا الطقس دون أن يروي حلقه بأي مشروب بارد، فأمسكته من يده دون تعقيب، ومشت به حيثما الظل، وتبعهما توماس الذي يمد الخطاب بالهواء.

- "إنه من العم ماركو".

التقطته من يده دون فضول، وهرعت للداخل حتى تُسلمه لوالديها، ولم تمض لحظات حتى عادت بكوبٍ من العصير البارد.

مدته للساعي بتهذيب وتوجهت للبستان على عجالة، فمكث العجوز يرتشف بتلذذ وامتنان، وحين هدأت أنفاسه وشعر ببعض الحيوية؛ هم بالنهوض كي يكمل العمل، ولكنه فوجئ بكارلا منتصبة أمامه وقد قبضت يديها على باقة زهور فواحة، تضم عددًا من ورود التوليب، والكاميليا، والبستاشيا الزرقاء.

- "اقبل مني تلك الباقة يا سيدي".

قالت بتوسل، فحملق الساعي بالباقة مليًا ثم التقطها باستسلام لأنه يعرف مدى إصرار كارلا.

- "شكرًا لك يا صغيرتي، إنها جميلة، ولكنك أجمل بكثير، إلى اللقاء".

غادر مبتهجًا وكان توماس يراقبها بفخر وقد أرخى ظهره لشجرة أخرى تنتصب قرب البوابة، فعادت تجلس جواره بالبقعة الجديدة.

بادرها مستفسرًا فور أن ارتخت للشجرة:

- "أكان كُل هذا ضروريًا؟"

رفعت رأسها نحوه لبرهة ثم أجابت وهي ترفع خصلاتها النافرة عن عينيها:

- "بالطبع، فالآن هذا الرجل المسن سيمشي طيلة اليوم مبتسمًا، أبسط الأشياء تحدث فارقًا كبيرًا يا أخي، والرب يُسعد هؤلاء الذين يقدمون السعادة للآخرين".

صمت مليًا، ثم علق عينيه على الحقل فيما يتساءل:

- "هل بإمكاني أن أقول لك شيئًا؟"

غطت وجهها بالقبعة فيما تتمدد فوق العشب:

- "بالطبع يمكنك، ولكن أسرع قبل أن أنام، فأنا مصابة بالخدر".

- "لقد قررت أن ألتحق بالجيش يا كارلا".

شهقت بفزع واعتدلت بسرعة لتحدق في وجهه وكررت:

- "تلتحق بالجيش!"

تنهد بعمق وهز رأسه مؤكدًا، وحين بدأت ملامحها تُبدي الاستياء واللوم، فسر بهدوء:

- "الغزو وشيك يا كارلا، والإيطاليون سيحرقون كل هذا الجمال إن احتلونا، ولا أضمن ما سيجري لكم كذلك، لذا سأحاول جاهدًا ألا يصلوا إلى هنا، هذا هو الحل الوحيد".

لم ترد كارلا بحرف، ونهضت بحزن يكاد يوقف نبضات قلبها لتدخل المنزل، وعلى عتبته، قابلت والدها الذي كان بطريقه ليخبرهما أن الغداء مُعد، فبادرته بعينٍ دامعة ونبرة شاكية:

ـ "لقد علمت سبب امتناع توماس عن الزواج، إنه ينوي الالتحاق بالجيش".

حدق بها أليخاندرو مدهوشًا ثم نظر نحو توماس الذي كان يقترب ببطء، وسأله بفزع يصاحبه عتب ملحوظ:

ـ "هل تنوي أن تلتحق بالجيش يا توماس؟"

ابتلع ريقه وأجاب وهو ينظر لأسفل:

ـ "نعم يا أبي، سأفعل".

أمسكه أليخاندرو من كتفيه وتساءل بغيظ:

ـ "لماذا يا بني؟ لماذا تعرض نفسك للخطر، وتعرضنا للقلق؟"

رفع توماس عينيه اللامعتين وأجاب:

ـ "لأنكَ علمتني أن أدافع عما أملكه وما أحبه ما دمت أتنفس، وأنا أحبكم، وأحب اليونان، أنا لا أعرض نفسي للخطر فهو قريب منا وأنت تدري، أنا أنوي مواجهته كما يفعل الرجال".

صمت أليخاندرو، ودب به شعور خفي بالرضا عن توماس، فنظر نحو كارلا باستسلام، لقد أنشأ كلاهما على الصلابة، والثبات على الموقف ما دام صحيحًا، لذلك لن يغير توماس رأيه أبدًا مهما فعل معه.

تفهمت كارلا من صمته ونظراته، أنه لن يثنيه عن الذهاب، فركضت نحو الأعلى وهي تبكي بحزن.

لقد فقدت شهيتها لمجرد الفكرة، واستبد بها القلق والحزن رغم أنه لم يغادر بعد.

*****

فَشلت ألمانيا في تدمير قواعد سلاح الجو الملكي، فتبدلت استراتيجية الهجوم لتشمل لندن بأسرها، واستمر الحال هكذا لأسابيع حتى مات وتشرد الآلاف من المدنيين، بعدما قصف ما يقارب نصف مباني لندن، وفي النهاية فشلت طموحات هتلر في غزو بريطانيا، وكانت تلك نقطة تحول للحلفاء، وبداية أمل ينبعث.

في القاعدة العسكرية، كان الطيارون يحتفلون بالنصر الذي لم يدق بابهم قبل معركة بريطانيا، ويحتسون الجعة سرًا فيما ينصتون لغناء جانيت ماكدونالد

المنبعث من الراديو، وكان روبرت واقفًا بمنتصف مدرج الطائرات يشرب ويدخن وحيدًا، وبدت قسمات وجهه مائلة للحزن، فلقد بحث عن فيرونا طيلة الأسابيع المنصرمة، ولكنه لم يجدها، لا بين الأحياء، ولا الأموات.

ألقى بعقب السيجارة في استياء، وزفر الدخان بعصبية، وكان سيمون يقترب منه بخطى واسعة لفرط تعجله، وقال مبادرًا قبل أن يصله:

- "روبرت، الجنرال طومسون يطلبنا بمكتبه".

التفتت نحوه ببطء، ولم يكن الاهتمام باديًا عليه كما الألم، فأضاف سيمون بفزع حين لاحظ هيئته:

- "ماذا بكَ؟ تبدو شاحبًا كالأموات، أنا لم أرك هكذا من قبل".

تجرع روبرت رشفتين وتمتم:

- "أنا فقط متعب من المعركة".

لم يكن سيمون على علم بمشاعره تجاه فيرونا، التي تكبر كلما مر الوقت، فصدق على الفور جملته، وراح يربت على كتفه وهو يعقب ببعض الإجلال:

- "لك كامل الحق، فلقد بذلت مجهودًا كبيرًا".

تنهد روبرت وتساءل فيما يسير بتراخٍ:

- "لماذا يريدنا الجنرال؟"

هز سيمون كتفيه وهو يجيب:

- "لا أعرف، فالمجند أخبرني وغادر بسرعة، ظننته سيأتي ليخبرك كذلك، ولكن يبدو إنه لم يجدك".

دلف روبرت لمبنى القيادة وهو يصحح:

- "إنه لم يبحث من الأساس يا صديقي، لقد فضل أن يبلغ الضابط المهذب، حتى يجلب بدوره الرقيب المتهور، نحن نمثل الآن الشريكين، العاقل، والمجنون، تمامًا كما الشرطي الطيب، والشرطي السيء".

ضحك سيمون لجملته ودلف خلفه، وسرعان ما توجها لمكتب الجنرال، وحين وصلا قدما التحية، فرد طومسون وهو يشعل سيجاره:

- "استريحا، فلقد تعبتما بما يكفي، يجب عليّ أن أدعوكما لشراب لأسدد صنيعكما".

هز سيمون يده وهو يهتف بصوت مرتفع:

- "لا أشرب يا سيدي، شكرًا لك".

نظر القائد لروبرت فأخرج الأخير قنينته الصغيرة وأضاف بنبرة جامدة قبل أن ينهيها:

- "لقد جلبت واحدًا لنفسي".

نهض الجنرال ببطء نحو النافذة، وقال بينما ينظر للمدرج:

- "لقد صمدت لندن بفضل سلاح الجو، البلاد ممتنة لهؤلاء الطيارين الأبطال".

زفر روبرت وعقب وهو يدور حول نفسه كالقط:

- "لقد باتت لندن كومة من الأطلال يا سيدي، لقد فقدنا أبرياء كثر وعل بعضهم كان من الذين أنقذوا جنودنا في دنكيرك".

- "لقد فقدنا البعض ولكننا استطعنا أن نحمي الباقين يا رقيب روبرت، أم أقول يا رقيب أول روبرت".

نظر سيمون نحوه مندهشًا فأضاف الجنرال بثقة:

- "ستتم ترقيتكما قبل نهاية الأسبوع، وبعدها ستعمدان في مهمة لأجل البلاد".

سأل سيمون ببعض التمني:

- "في فرنسا يا سيدي؟"

هز طومسون رأسه بالنفي ليهدم آماله، وقال قبل أن يعود للمقعد:

- "بل في مصر، فنحن بحاجة ماسة لوجود أفضل رجالنا هناك، الإيطاليون قد يهجمون على مصر بأي وقت".

كان السفر بالنسبة لروبرت يعني أنه لن يرى فيرونا من جديد، فغمغم ببعض الارتباك والغضب فيما يهز قنينته الفارغة:

- "أعفيني من تلك المهمة يا سيدي، فأنا لا أريد ترك لندن".

نظر القائد نحوه متأملًا ثم صرح بينما يصب له شراب:

- "مصر أفضل من اليونان، لقد جاء التوزيع الجديد، وبصعوبة وجدت لكما مكانًا هادئًا لتنعما ببعض الهدوء بعد موجة المواجهات تلك".

نظر روبرت نحو سيمون فوجده ساكنًا لا يبدي حركة، وشعر أنه بدأ يصاب بالدوار بسبب الإضاءة الخافتة، فقدم التحية بتكاسل وقال قبل أن يغادر:

- "كما ترى يا سيدي".

نظر طومسون للكأس الذي لم يقربه روبرت وابتسم بصبر، فهو بحاجة لكل فرد مهما كانت طباعه، ثم قال بهدوء محدثًا سيمون الشارد:

- "يمكنك الانصراف أيها الضابط".

انتبه سيمون فقدم التحية العسكرية وخرج يبحث عن روبرت، ولكن الأخير كان قد ذهب بعيدًا رغم نَصبه، وكمده، ليبحث للمرة الأخيرة عن فيرونا، عسى الحظ يكون حليفه ويجدها مصادفة بأي شارع قبل أن يترك البلاد.

****

اطلنسى عرقها بسبب وقوفها تحت الشمسُ الحارقة والساطعة على صحراء العلمين الجرداء، وسرعان ما بدأ قميصها والسروال الكاكي ينضحان.

فيرونا ليست معتادة على هذا المناخ القائظ، ولكنها تمني نفسها بأنه أرحم بكثير من نيران القصف.

حين تم اختبارها بلندن، أثبتت جدارتها في التطبيب، وكفاءتها في العمل تحت الضغط، وعليه تم تجنيدها بالقافلة رقم ١١ التابعة لفيلق النقل الميكانيكي، وتلك القافلة تتلخص مهمتها في نقل المصابين من موقعهم أيًا كان مكانه، حتى المشافي العسكرية، ولذا كان لجوار فيرونا سيارة دودج رباعية الدفع، تحوي بعض الأدوات الطبية، وعلبة إسعافات أولية -اشتريت كل تلك الأشياء من أموال التبرعات التي جمعت بأميركا لأجل الحرب- وكان يجلس بمؤخرتها مجندتين، تتولى إحداهما القيادة فيما تهتم الأخرى بأمر الراديو واللاسلكي.

زفرت باستياء فيما تفك وشاح الشيفون الأحمر، الذي يحيط رقبتها كالأنشوطة ويزيد من اختناقها، ثم بدأت تُعلق إصبعها على الحزام العريض وتعيد تمشيط المكان بعينيها الحادتين.

"أين الجندي المصاب بحق اللعنة؟"

لقد خرجت السيارة بعد نداء مستعجل، يفيد بأن أحد الطيارين المبتدئين حوصر داخل مجال النيران الإيطالية فيما يقوم بمهمة استطلاع، وأن بعض الطلقات أصابت محركه، وأجبرته على الانسحاب، ولكن كانت إحدى الرصاصات قد نفذت إليه عبر الهيكل المعدني وأصابته بالكتف، ولذلك هبط اضطراريًا حين بات داخل الحدود المصرية، وطلب الإغاثة لتعيده إلى معسكر الحلمية.

لقد عثرت فيرونا على الطائرة على مسافة نصف كيلو متر من موقعها، ووجدتها بحالة جيدة نسبيًا ولكنه لم يكن بداخلها، ولذلك لم تشأ أن تعود قبل أن تمشط المكان المحيط.

عادت لهما بعد دقيقتين، وقالت منوهة:

- "إنه ليس هنا، لنستفسر من القاعدة، فقد تكون هناك سيارة أخرى قامت بانتشاله".

هزت إحدى المجندات رأسها وبدأت تتحدث للقاعدة، وبعد مضي لحظات جاءها تأكيدًا أن الطيار انتشل من موقعه، فأشارت للمجندة الأخرى حتى تتوجه لعجلة القيادة وترجع بهن.

تحركت السيارة بخفة فوق الرمال، وبقيت فيرونا طوال طريقهن لمعسكر الحلمية صامتة، وواجمة، يكاد قلبها يتفتت من الخوف على روبرت، الذي لا تدري مصيره منذ رأته بليلة الميلاد قبل تسعة أشهر.

كانت تأمل أن يكون بخير كلما انتابها الأرق بالمساء، وكانت تتمنى رؤيته كلما أشرق الصباح.

لم تكن تعلم أنها ستشتاق له بتلك الصورة بمجرد تركها له بالخلف، ولو كانت تعلم لما فعلت، فلقد تركت جحيمًا وجاءت لجحيم آخر، فما من يوم يمضي إلا وتحمل بسيارتها جثة طيار، أو سائق دبابة، أو مجند مشاة، وأحيانًا يستقبلن قطارات

كاملة محملة بالجرحى، هذا غير المضايقات التي تتعرض لها من قبل الجنود الذكور داخل المعسكر.

في تلك الآونة لم تكن القيادة قد حددت سكنًا خاصًا للقافلة رقم ١١، ولذلك كن يبتن في أحد العنابر الواقعة بمعسكر الحلمية، على مقربة من المجندين التواقين لرؤية الأجساد اللينة، والخصلات الطويلة، ومع وجود زي رسمي ضيق، يوحي بالصلابة والأنوثة في آن، كانت العملية مفعمة بالتوتر، والانجذاب، ولقد سجلت بضعة حالات تحرش بتلك الفترة.

وصلت السيارة للمعسكر، فترجلت منها وبدأت تسير بخطى متعثرة حيثما العنبر والأسرة ذات الطابقين، وهناك تمددت بخمول على سريرها العلوي، وظلت تنظر للسقف المعلق به ثلاث مراوح لا يجلبن الهواء.

إنها لا تحتمل درجة الحرارة المتعدية خمسون درجة، ويكاد رأسها ينفجر لقلة نومها.

مرت دقائق، وبدأت أجفانها ترتعش، وكادت تسقط في النوم لفرط إجهادها، لولا أن باغتها صوت إحدى المجندات البريطانيات.

كانت تهتف بروع فيما تدفع باب العنبر:

- "لقد تمكن الإيطاليون من اجتياح السلوم، وسيدي براني، والقيادة تخبرنا أن المصابين هناك كُثر، هيا يا فتيات، أسرعن".

فتحت فيرونا عينيها، وقفزت من فوق الفراش نحو الأرض كما قطة رشيقة، وبسرعة البرق انطلقت عائدة للسيارة فيما تفرك أجفانها.

كلما أسرعت كلما ازدادت فرصها في إبقاء أحدهم حيًا.

***

فوق أريكة حجرية تنتصب على رصيف محطة مصر، مدد سالم قامته المنهكة، متمنيًا أن يغفل لبعض الوقت، فلا زال أمامه ساعتين ويزيد قبل أن يتحرك بقطار الفجر، ولكن عبثًا، إنه متوتر للغاية وليس مطمئن البال لينام، فلقد اجتاز الإيطاليون حدود مصر وتمركزوا قرب العلمين منذ شهر ويزيد، ومن يومها بدأ الأفراد يغادرون الإسكندرية نحو الصعيد، والشائعات تقول إن الألمان سيأتون أيضًا، وهذا جعل الناس ينقسمون لفئتين، البعض رأى أن هتلر وموسوليني

سيكونان المخلصين من الاستعمار، فبدأوا برسم شعار النازية على البيت ليراه الجنود بقدومهم، والبعض الآخر رأى أن حكم البريطانيين أهون من حكم النازيين والفاشيين فمال لمساعدة البريطانيين.

كان سالم يكره حكم الفريقين، فظل كما هو على أفكاره، مؤمنًا بحرية الشعب في تحديد مصيره، وكارهًا لأي تدخل أجنبي، والمحزن أن أصحاب المبدأ الثابت، هم أكثر من يعاني حين تعاندهم الظروف، وبالنسبة إليه، هناك عثرات شتى في دربه نحو السكينة، تبدأ من استقلال بلاده، وتنتهي باستقلال كيانه.

كيانه الذي لن يستقل بتاتًا، إلا إن استعمرته أميرة كُليًا وللأبد!

وصل بعض الأفراد للمحطة وجلسوا على الأريكة القريبة، وكان أحدهم يقول محدثًا البقية:

- "متأكدون أن القطار لم يمض؟"

رد واحد وهو يعدل الطربوش:

- "نعم، فهي لم تتجاوز الثانية فجرًا".

عقب الثاني بينما يشعل سيجاره:

- "أرجو أن يأتي قبل طائرات الإيطاليين".

علق الثالث وهو ينظر للسماء بتحفز:

- "وأنا كذلك، فما حدث بالمعادي كان كافيًا".

كان الحديث يصل لسالم فوثب بغتة وتساءل بسرعة وهو يقترب منهم:

- "ماذا حدث بالمعادي؟ ها؟"

أجاب أحدهم وهو يرمقه بامتهان:

- "ألا تعرف ما يجري بالبلاد، لقد قصفت المعادي غير أن..."

كان هذا يوم التاسع عشر من أكتوبر، تاريخ قصف المعادي، وكان سالم طيلة اليوم بالصعيد فلم يدر سوى الآن، ولكنه لم يكد ينهي سماع الجملة، إلا وكان قد أطلق ساقيه للريح قاصدًا قصر أميرة كي يتفقده.

كان الوقت متأخرًا فلم يجد مواصلات نهائيًا، وبدت الطرقات شبه خالية، لا يوجد بها سوى بعض الباعة الذين يفرشون بضاعتهم استعدادًا للشروق، وبعض الجنود، والبغايا.

ركض لوقتٍ طويل كالمعتوه، وكان قلبه ينبض بقوة لفرط خوفه، ولم يكن يتوقف لالتقاط أنفاسه ولو لثوانٍ، محركه بتلك الدقائق كان الهلع، والشوق غير المنتهي، والفضول.

كل نبضة يصدرها قلبه السريع الخفقان، وكل زفرة تنطلق من شفتيه، محملة بآلاف الدعوات، والتوسلات.

حين وصل المعادي، وجد أطلال المنازل المقصوفة تنتصب أمامه، وكانت خيوط الدخان تخرج من أخشابها المحترقة، فيما قوالب القرميد تفترش الشارع، ويكسو بعضها السيارات التي كانت فارهة، وكان الأهالي الذين فقدوا منازلهم يجلسون بالطريق دون طعام أو شراب، يحدقون ببيوتهم وينوحون.

بلغ قصر أميرة، وسكن خوفه حين رآه منتصبًا أمام عينيه بطرازه العثماني دون ضرر، ولكن كانت البوابات مفتوحة والعامة يدخلون ويخرجون عبرها، فاقترب في فضول ليرى سبب هذا التجمهر.

لمح باقترابه مائدتين طويلتين، تمتدان لآخر الحديقة، وكان الخدم يهرولون بينها وبين المطبخ دون توقف، وكانت أميرة واقفة كتمثال شمعي فوق الممشى الإسمنتي، تراقب بعيون دامعة هؤلاء الأفراد الذين فتحت لهم أبواب القصر دون إذن والدها المسافر، بعدما لم تحتمل أن تولي لهم ظهرها بتلك المحنة العصيبة.

وقف سالم بباب القصر وحملق بها طويلًا، كانت أشبه بأقنوم يجسد الرأفة، أو كما ملاك متخفٍ بصورة بشرية، وجهها يحمل من الهم جبالًا، ولكنه رغم ذلك يبدو فاتنًا، وقامتها مقوسة ويلوح الإعياء عليها، ولكنها لا ترضخ للجلوس، رغم كثرة المقاعد حولها.

عبر للداخل، وقصدها بخطى مترددة حتى بلغها.

- "الحمد لله أنكِ بخير".

التفتت على آثر الصوت لتتسع عيناها بمجرد رؤيته، وبدت غير مصدقة وهي تقول:

- "سالم! يا إلهي، هل أنت هنا حقًا؟"

ابتسم بينما يفسر بتوتر:

- "لقد سمعت عن القصف فقدمت لتفقدكِ، هل أنت على ما يرام؟"

عضت شفتيها بحسرة، وقالت بينما تنظر للأفواج الموجودة بالحديقة:

- "ليس تمامًا، فلقد استيقظت على صوت الانفجارات، ولكني بحالٍ أفضل من هؤلاء المساكين".

خيم الصمت لوهلة حتى أضافت:

- "أنت لا تعرف كم أنا مسرورة لرؤيتك، لقد مرت شهور وأنا هنا كالسجناء، وأخيرًا جاء من يزورني".

عقب بنبرةٍ خجلة:

- "أنا أيضًا مسرور لرؤيتك".

أدارت رأسها لتنظر له وهمست بأدب:

- "ماذا تحب أن تشرب؟"

هز رأسه بالنفي وهمهم فيما يشير للطريق:

- "لا شيء، فأنا سأرحل، بصراحة لقد تركت القطار حين علمت بالخبر، وهو سيغادر عما قريب ويجب أن أعود".

هزت رأسها متفهمة وممتنة وتساءلت بارتباك فيما تفرك يديها:

- "إلى أين ستتجه؟"

أجاب وهو يتأملها قبل مغادرته:

- "إلى أسوان، وسأعود مساء الغد".

صمتت لحظات حتى تفكر، ثم تساءلت فيما تبتسم بطفولية:

- "ماذا إن قدمت معك؟"

لم يستطيع أن يلجم لسانه فأجاب بسرعة:

- "سأكون سعيدًا للغاية، أسوان جميلة للتنزه".

لاذت بالصمت فهي ترغب بمرافقته لأي مكان، ولكنها تخشى أن يعود والدها للقصر قبلها، ولكن يجب عليها أن تتقبل المخاطرة حتى تحظى ببعض السعادة بعيدًا عن الحرب ومشكلاتها.

نوهت وهي تسير نحو بهو القصر:

- "سأرتدي ملابسي في ظرف دقيقة وسنصل بالسيارة للمحطة، انتظرني رجاءً".

وقف سالم ينتظرها بعدما انفرجت أسارير وجهه، لقد نسي بشاعة ما رأى قبل أن يصل إليها، قبل أن يصل إليها في مشوار الحياة، وليس في القصر، وجوده معها كفيل بجعله ينسى كل شيء مؤلم، ومحزن.

لقد أمست تمثل السعادة بالنسبة له.

***

في صباح الثامن والعشرين من أكتوبر، تلقت حكومة اليونان إنذارًا بالحرب.

الإيطاليون سيقومون بالهجوم بأي لحظة، وبلا شك سيدخلون عبر ألبانيا التي وقعت تحت احتلالهم بالعام السابق، ولهذا حشد ملك اليونان أفراد جيشه ومن بينهم توماس، ليربضوا عند الحدود.

في منزل أليخاندرو، كانت العائلة قد قررت أن ترسل كارلا للإسكندرية كي لا يُصيبها سوء، فوفقًا للخطاب الذي بلغهم متأخرًا من ماركو؛ مصر بخير حال والإيطاليون لم يتمركزوا فيها بعد!

طرح أليخاندرو الحقيبتين ووقف ببهو البيت ليهتف كالممسوس:

- "ألم تنتهيا بعد؟"

خرجت زوجته من غرفة كارلا وهمهمت بنزولها الدرج:

- "كارلا، لا تريد الرحيل! إنها منهارة للغاية، وخائفة على توماس، تحدث معها بهدوء يا أليخاندرو، وحاول أن تقنعها".

نظر نحو غرفتها متألمًا فحتى هو لا يريدها أن ترحل، ولكن ما باليد حيلة، يمكنه أن يحتمل كل شيء إلا رؤية طفلته تتأذى.

بدأ يصعد الدرجات ببطء، وحين بلغ الغرفة وجدها جالسة فوق مقعدٍ من الخوص، وكانت رأسها مرتخية على سور الشرفة في وهن واضح، وقد لزمت عيناها التحديق نحو الأفق منتظرة ظهور توماس.

تقدم نحوها بخطوات ضيقة، وهمس برجاء:

- "هيا يا كارلا، هيا يا بنيتي".

نظرت نحوه بعين دامعة، ثم نظرت للمرج المثمر، وللحقل الذي وضعت به البذور رفقة شقيقها، ثم دامت تراقب نموها على مر الأيام، كما أم تراقب نضج وليدها.

لا يمكنها ترك كل هذا والهرب، يجب أيضًا أن تبقى حتى تلتقي توماس لدى عودته.

قالت بحزم وهي تهز رأسها:

- "لن أترك اليونان، وسأبقى معكما، توماس قد يعود بالمساء".

دمع أليخاندرو، وغمغم بصوت محشرج فيما يربت عليها:

- "حين تهدأ الأمور ويعود توماس سأرسل لكِ خطابًا، ولكن غادري الآن يا كارلا، غادري يا ابنتي وأنصتي لي كما فعلتِ دومًا، عمك سيعتني بك".

ابتلعت ريقها وانفجرت باكية لضعف حيلتهم، وندرة خياراتهم، وكانت والدتها قد وصلت للمكان، فوقفت على جانبها الآخر لتضمها بشوق قبل أن ترحل، وظل أليخاندرو يربت على يديها بحنو فيما يدمع.

الفراق كان مؤلمًا، ولكنها لا تستطيع البقاء ورفض توسلاتهما، ولا يجوز لها طلب قدومهما معها، ليس قبل أن يقابلا توماس ويجلباه معهما.

لن تفر إذن بمفردها وإنما ستسبقهما في النزوح واللجوء.

عقب دقيقتين من التردد خاصتها والتوسل خاصتهما، نهضت بانصياع واستسلام، وتوجهوا جميعًا للأسفل، وهناك التقط أليخاندرو الحقيبتين، وبدأ يسير معهما نحو الميناء القريب.

كان الميناء مزدحمًا كالسوق، فهناك أفراد كثر يغادرون جزيرة كريت، ويتجهون لبلاد مختلفة بحثًا عن اللجوء والأمان.

شق أليخاندرو الحشود قاصدًا السفينة المرادة، تلك التي دفع لربانها مبلغًا كبيرًا حتى يصحب كارلا معه، وفي غضون دقائق، كانت الأخيرة تصعد اللوح الخشبي نحو سطح السفينة، فيما وقف الربان وأشهر مسدسه، ليمنع المرتابين والمتدافعين من الصعود خلفها.

كانت قسماته واجمة، ومسدسه مصوب بجدية، وعيناه تقولان إنه لن يتردد في قتل أي شخص يحاول الصعود دون دفع مسبق.

وضعت كارلا قدميها فوق السفينة وبقيت تنظر لوالديها بشوق وأسى، حتى رفع الربان اللوح الخشبي، وأشار للطاقم بتحريك السفينة بعيدًا عن تلك الهوشة والمعمعة.

لوحت لهما بينما تصرخ بجمل الود والوداع، وحين ابتعدوا عن الميناء بمسافة، أشار لها الربان بالهبوط صوب جوف السفينة.

امتثلت للأمر وجاهدت في حمل حقيبتيها فيما تهبط السلم الخشبي، ولم تكد تلتفت حتى وقعت عيناها على مئات الأشخاص المتكدسين والمتلاصقين، كانوا جميعًا ينتظرون المجهول مثلها.

لقد تركوا كل شيء خلفهم، ومن المحتمل أن يصلوا الإسكندرية، ومن الراجح أن يتم اعتراض السفينة وقصفها، وهم لا يستطيعون حتى رؤية ذلك فيما يحدث.

إنهم ماكثون بثلاجة نقل ماشية، تم تعطيلها لتحملهم إلى مصر.

****

حطت الطائرة على مدرج مطار ألماظة، وعلى وجه السرعة بدأت الفرقة الموسيقية تعزف النشيد الوطني البريطاني، فيما الرتب والجنود ينزلون تباعًا.

كان في انتظارهم بعض الرُتب من الجيشين البريطاني والمصري، وبسرعة البرق بدأ موكب السيارات يتقدم إليهم، حتى يتم نقلهم إلى معسكر الحلمية.

كان روبرت وسيمون يتحلحلان فوق الطريق، الأول شارد ومتجهم، والثاني يرقبه في قلق، كان واثقًا أنه يخفي شيئًا عنه، وهو بلا شك شيء كبير ليؤرقه هكذا.

لم يتحدث أيهما للآخر حتى دخلوا المعسكر وترجلوا من العربات، وهناك تم اقتياد الجند نحو عنبر ما، وجرى اصطحاب الضباط والرتب لمنطقة أخرى تضم غرفًا مريحة أكثر.

دخل كلاهما أول غرفة في تناغم واضح، كما الامتداد المستقيم لجناحي الطائرة، أو دوران العجلات، ووضع سيمون مخلته على الفراش وجلس لجوارها، وتوجه روبرت للسرير الآخر وألقى بجسده عليه فورًا.

راقبه سيمون لبعض الوقت ثم سأله بنبرةٍ لائمة:

- "ألن تخبرني ماذا بكَ يا صديقي؟"

نام روبرت على جانبه ونظر تجاهه في تردد، ولم يكن هناك سواهما بالغرفة، فقال بعد لحظات بوجه غاضب:

- "أنا لم أرها منذ سنة تقريبًا، ولا أدري عنها شيء، أنا لا أعرف هل هي حية أم لا، وخائف أن تكون أصيبت بسوء أثناء قصف لندن، سيصيبني الجنون يا سيمون، سيصيبني الجنون".

نهض نحو مفتاح المروحة ليشغلها ولكنها كانت معطوبة، فلكم المفتاح بقبضته ليفرغ عليه غضبه، وهتف سيمون وهو يجذبه للفراش بإحكام:

- "اهدأ يا روبرت، اهدأ، من تكون تلك التي تتحدث عنها؟"

كانت يديه ما زالتا مقبوضتين، فبسطهما حين تذكرها وأجاب بذبول:

- "فيرونا، أنا لم أحدثك عنها من قبل لأن علاقتنا معقدة".

ضحك سيمون وهو يعقب:

- "أنا لا أرى تعقيد، فمن الواضح أنكَ مغرم بها".

- "ولكنني لم أخبرها، ولا أعلم إن كنت سأخبرها".

تساءل سيمون وهو يربع ساقيه:

- "ألا تعرف عنوانها؟"

هز رأسه بالنفي وهو يجيبه قائلًا:

- "لا، فلقد التقينا مرتين فقط، ولا أعرف عنها شيء سوى اسمها ووظيفتها السابقة".

عقد سيمون حاجبيه وهمهم باندهاش:

- "التقيتما مرتين وأحببتها!"

- "لقد أحببتها منذ قبلتني بلقائنا الأول، ولا تسألني كيف تبادلنا القبلات باللقاء الأول، فالعلاقة معقدة كما أخبرتك".

دام الصمت بينهما حتى تعالت الطرقات على الباب، ودخل أحد الجنود بالتعيين، كان عبارة عن لحم وخضر، وبعض المربى التي تشحن ثمارها من القدس نحو بريطانيا، وتعود من جديد للجيش، وخبز لدن.

وضعهم الجندي وانصرف بعدما قدم التحية فنظر سيمون نحو روبرت ووكزه برفق بينما يرجوه:

- "تناول بعض الطعام، فأنت لم تأكل منذ غادرنا لندن".

ارتخى روبرت بظهره على الجدار الملاصق للفراش، ومدد ساقيه وهو يخرج علبة الخمر والسجائر، وقال بوجه شاحب:

- "لا أرغب بتناول شيء يا سيمون، كُل أنت".

***

بدد ضوءُ الفجرِ عتمة الدجى، وشيئًا فشيئًا تجلى شفق الصباح على الإسكندرية، وكان حسين قدَ ترك النافذة مفتوحة لترسل له بعض النسمات بعدما فصل الطاقة الكهربية قبل نومه، فداعبت خيوط النورِ عيناه وأيقظته.

بقي يتمطى على الفراش لبعض الوقت فيما يتثاءب، ثم نهض بخمول والتقط علبة السجائر ومضى للمرحاض حتى ينتعش، وكي لا يتأخر في الذهاب للميناء، مد عنقه بعيدًا عن مرش المياه وراح يدخن السيجارة بينما يستحم، إنه بحاجة قصوى لجرعة النيكوتين خاصته.

خرج بعد وقت قصير فيما يفرك عينيه العسليتين، وعاد للغرفة ليرتدي ملابسه، وأمام خزانة الثياب تملكت منه الحيرة، فهو لم يعد يفضل ارتداء شيء معين، وكل الأشياء فقدت رونقها وجمالها منذ بدأت الحرب.

إنه مكتئب وضجر للغاية، ولكن يجب أن يتجه للميناء رغمًا عنه، فاليوم نهاية الأسبوع ويتحتم عليه أن يُسارع بتوريد الجمبري للمطعم.

التقط أقرب الثياب ليده، وشرع يرتديها بإسراع ثم شق طريقه عبر الصالة وهبط السلم درجتين درجتين، ولما بلغ الشارع، أوقف أحد سائقي الحناطير ليقوم بإيصاله، ودام يحثه على السرعة كلما أشعل سيجارة جديدة.

كانت الطرقات قرب الميناء مزدحمة، وكان هذا شيء نادر الحدوث، فالسيارات أعدادها قليلة، وغالبًا تكون ملكًا للأقليات الأجنبية ذات الثراء، وهم لا يستيقظون باكرًا، فلطالما عرفوا أنهم خفافيش الليل.

نظر حسين للسائق وتساءل في تعجب:

ـ "لم هذا الزحام؟ أهناك مظاهرات ضد الملك مجددًا؟"

التفت السائق ليجيب وهو يضع السوط جانبًا:

ـ "لا، سفن اللاجئين تصل من اليونان منذ البارحة، والخواجات هنا لالتقاط أقاربهم".

هبط حسين وهو يهز رأسه بالفهم، وشعر أنه سيجد ماركو حزينًا حين يراه، فوجود لاجئين يونانيين يعني وجود حربٍ باليونان.

مد للسائق أجره وبدأ يسير بين صفوف السيارات التي تنبعث منها روائح العطور المستوردة، والسيجار الكوبي، ولما أدرك الميناء بقي يطوف بعينيه في كل ركن، محاولًا أن يرى بين الزحام رجله المعتاد.

لمحه قرب زورقه الكبير فظل يزيح الناس عن طريقه ليبلغه ولما فعل بادر بهدوء وهو يخطو لداخل الزورق:

ـ "أخبرني أنكَ عدت بجمبري طازج".

رفع الصياد وجهه لينظر نحو محدثه وسرعان ما قال:

ـ "لقد فعلت يا سي حسين، وأصغر واحدة جمبري طولها إنشين ونصف".

نظر للأفواج أمامه وأضاف بنبرةٍ إيروتيكية:

ـ "أنا في خدمة الشعب المختلط".

ابتسم حسين وهو يربت على كتفه وقال بينما يخرج له سيجارة:

- "سأشتري الكمية كلها، قم بوزنهم وأرسلهم للمطعم بأقرب وقت".

هز الرجل رأسه متفهمًا والتقط السيجارة من يده فيما يطمئنه:

- "اعتبرهم وصلوا".

هبط حسين من الزورق بعدما ودعه، وانشغل بمطالعة الأشخاص الموجودين بالمرفأ.

كان جنود الحماية يقذفون أصابع الموز للاجئين بطريقةٍ فظة كما لو أنهم قرود، ولأن الأشخاص كانوا قد أنهوا طعامهم بأيام الرحلة، ظلوا يقفزون ليمسكوا الموز، وكان الأشخاص ذوي العلاقات يقفون في هدوء مع أقاربهم الذين قدموا لالتقاطهم، فيما بائعي المرطبات يمرون بزجاجات الصودا وسط الحشد.

لمح رغم الزحام فتاة منزوية لجانب الجدار، وقد التحفت بأسمال أبلاها طول السفر ووعثائه، وكان وجهها شاحبًا لقلة تناول الطعام، وبدت حقائبها ملآنة بالغبار، وعيناها شاردة وغير واعية لما يدور حولها.

لم يتمكن من رفع عينه من عليها، كانت كل ملامحها المنهكة والفاتنة تقوم بجذبه، تمامًا كما يجذب المغناطيس قطع الحديد.

بعد حين، تقدم منها أحد الجنود المتغطرسين، وبدأ يغازلها، فنهضت بإرهاق واضح، وجرت قدميها محاولةً أن تبتعد ولكنه أمسك يدها ليوقفها.

جذبت يدها بكل قوتها فأفلتها المجند، ولكنها لم تستطع حفظ توازنها فسقطت أرضًا وبقيت تبكي لفرط ضعفها وحرجها.

بقي الجندي يضحك بانتشاء وهو ينادي رفاقه ليطالعوها، وعندئذ تقدم حسين بغضب، وانحنى لينهضها، حسبته ذات المجند فانكمشت على نفسها وصرخت ووجهها يلامس الأرض:

- "دعني وشأني".

رد بيونانية تكاد تكون أصلية:

- "لا بأس، أنا لن أؤذيك بل قدمت لمساعدتك".

رفعت وجهها لتنظر له متفقدة، فوجدته يهز رأسه مطمئنًا وقد بسط إليها يده، لم تتردد كثيرًا بالتقاطها، وحين استقامت واقفة، كاد الجندي أن يعود لمغازلتها، لولا وقوف حسين بينها وبينه.

- "دعها وشأنها ولا تجعلنا نحدث جلبة".

وقف المجند بجمود وكان كبرياءه يمنعه من الرضوخ لمصري، فتقدم بعض رفاقه ليجذبوه قبل أن يتطور الأمر، فالأوضاع الحالية لا تحتمل قيام مظاهرات بسبب عراك مع مدني، ولم يكادوا يرحلون حتى التفت حسين نحو الفتاة وقال متسائلًا:

- "هل أنت بخير؟"

لم تكن كذلك ولكنها أجابت وهو تهز رأسها:

- "نعم، شكرًا لمساعدتك".

- "لا تنزعجي مما جرى، فهؤلاء الجنود حمقى ولا يميزون إطلاقًا".

أشار لبائع صودا يمر بالقرب فتوقف مستجيبًا ومد يده للدلو الملآن بقطع الثلج، ثم أخرج زجاجة باردة وقدمها له.

التقطها بيد وناوله قرشين بيد، ثم قام بتمريرها للفتاة:

- "إليكِ، فلا بد أنكِ ظمآنة للغاية".

شعرت بالحرج حين ابتلعت ريقها بمجرد رؤية الزجاجة الباردة، وترددت في أخذها حتى لا تنجرح عزة نفسها أكثر، ولكن يد حسين ظلت ممدودة لوقت طويل دون تراجع، التقطتها في النهاية مستسلمة، وبدأت تروي ريقها الجاف.

- "أهناك أقارب لك بالإسكندرية؟"

أومأت برأسها وهمهمت بوهن فيما تخرج قصاصة ورق مدون عليها العنوان:

- "لدي عم يدعى ماركو، إنه يملك محل بقالة وهو..."

أكمل حسين ليقاطعها وقد عقد حاجبيه وقطب جبينه:

- "قصير القامة، ويبدو مضحكًا وهو غاضب؟"

اتسعت عيناها العسليتان وكادت أن تنفجر ضاحكة بسبب جملته العفوية، فهي كانت ستضيف: "وهو قريب من الميناء"، ولكنها ردت بينما تحملق به في انشراح وطمأنينة:

- "إنه كذلك! هل تعرفه أيها المحترم؟"

- "منذ طفولتي، فهو جاري".

وضعت كارلا الزجاجة الفارغة فوق صناديق خشبية ترقد بالقرب، وأضاف حسين:

- "يمكنني إيصالك لبيته، إنه يقع أمام مطعمي وأنا ذاهب لهناك الآن".

ابتسمت لذوقه، وهمهمت وهي تتجه للحقائب:

- "أشكركَ لمساعدتك بحق".

سبقها في حمل الحقيبتين وبدأ يسير معها للخارج وهو يستدرك:

- "ماذا حدث باليونان؟"

أجابت وهي تربع يديها لصدرها:

- "لقد نشبت الحرب بين اليونان وإيطاليا، ورأت عائلتي أن مصر آمنة وبعيدة عنهم، فأرسلوني للعم ماركو".

ضحك حسين بينما يوقف الحنطور وعقب باستنكار:

- "الإيطاليون على بعد مئة كيلو من هنا".

شهقت كارلا غير مصدقة وبقيت تنظر له بوجس فيما يصعد للحنطور، فأضاف مهونًا:

- "ولكنها آمنة، وستظل كذلك، اركبي يا آنسة فأنت مرهقة وبحاجة للراحة".

صعدت مستجيبة وارتخت على أريكة الحنطور المبطنة بالقش، وكانت تنظر للطرقات ولحسين تباعًا. ملامحه تبدو مصرية، ولكن لكنته اليونانية رائعة، تمامًا كشاربه، ولحيته العثولية.

كم يبدو وجهه متناسق وملفت للنظر، وكم هي رائعة لباقته، ورقته، لا جدال أن الخالق كان رحيمًا معها إذ وضعه في دربها بتلك الساعة لينقذها.

وصلا للوجهة المرادة بعد حين، فقفز لخارج الحنطور بخفة ودخل لحانوت البقالة الخاص بماركو حتى يعلمه بالمستجدات، ونزلت هي بتؤدة ناجمة عن انحلال أعصابها، وتعبها المتفجر.

في أقل من دقيقة، خرج ماركو راكضًا بلهفة، وحين شاهدها تجمد مكانه ليملي عينيه بحُسنها الإغريقي، لقد افتقد كل شيء بها، قدها المياس، شعيراتها الطويلة، وجهها الملائكي، بسمتها المثابرة.

دمعت عيناه وهمهم فيما يفتح يديه:

- "كارلا، طفلتي العزيزة".

ركضت نحو لتحتضنه، فظل يمسد خصلها المسترسلة بينما يستدرك:

- "كيف العائلة الآن؟ لقد سمعت الأخبار بالراديو".

تراجعت وهي تجيب بحزن:

- "لقد تركتهم منذ أيام، وكان توماس قد انضم للجيش قبل مغادرتي".

صمتت لتمرخ دمعة منحدرة على وجهها الأصفر، ثم أضافت برجاء:

- "راسلهم يا عمي وطمئنهم بوصولي وطمئني عليهم، وخصوصًا توماس".

أشار نحو مدخل البيت وهو يقول:

- "سأفعل، وأنت اصعدي لتغتسلي ورتبي ثيابك بالغرفة التي تريدينها".

صعدت مستجيبة وهي تنظر خلسة لحسين وكأنها تستأذنه في الرحيل، وتوجه الأخير لمطعمه وقد علم اسمها.

بعد قرابة الساعة هبطت كارلا بعدما انتعشت لترى ماذا فعل عمها، وبدخولها دكان البقالة، فوجئت برؤية أطباق السمك المختلفة والموضوعة على المنضدة لجوار الراديو.

كانت رائحتها نفاذة وتملأ الحانوت، لكنها لم تنسها ما جاءت لأجله.

تساءلت وهي تسير نحو ماركو الذي كان يضع ظرفًا أمامه:

- "هل انتهيت يا عمي؟"

رفع عينيه وأجاب بابتسامة حانية:

ـ "نعم يا عزيزتي، وسأسلمه للساعي خصيصًا كي يصل لهم سريعًا، تناولي بعض الطعام الآن واستريحي".

طالعت الأطباق واحدًا تلو الآخر فسال لعابها دون تمهل، متى تناولت وجبتها الأخيرة؟

بالتأكيد لا تعرف، فمن مكانها بباطن السفينة، لم تتمكن من رؤية الشمس ولا القمر حتى تعد الأيام، لقد كانت منقادة، ومتعبة، تمامًا كما النبي يونس ببطن الحوت، ولحسن حظها وجدت حسين حين لفظتها السفينة، وإلا كانت معاناتها ستتضاعف حتى تصل إلى هنا.

ـ "من أين هذا الطعام؟"

أشار ماركو نحو باب المخرج وهو يجيب:

ـ "لقد جلبه حسين".

نظرت كارلا للجزء الظاهر من المطعم، وابتسمت بعذوبة قبل أن تتجه لأطباق الطعام المرصوصة والشهية.

لقد باتت تعرف اسمه.

***

ألقى القادة بعد تناول التعيين خطابًا موجزًا للوافدين الجدد، ينذرهم بألا يتعرضوا للمجندات العاملات بالفيلق رقم ١١، ثم انطلقوا برحلةٍ جوية لتفقد دوريات الحراسة على الحدود وعند قناة السويس، وعادوا بموعد النوم تقريبًا.

غط سيمون في نوم عميق فور وصولهم، وبقي يُشخر لفرط تعبه، ولكن نغمة الشخير المضطربة، لم تكن السبب في سُهد روبرت، وإنما فيرونا.

لقد مضت فترة طويلة، كان الأرق والقلق يتملكانه، خصوصًا بالمساء.

أمسك رأسه الذي يكاد يطيش، ونظر صوب الباب بتردد، وبعد مضي لحظات نهض ليفتحه، وعبر للخارج تاركًا سيمون يتقلب على الفراش، وقد احتضن وسادته.

مشي بالرواق حتى بلغ المخرج، ووقف عند بابه ينظر للساحة الكبيرة التي تراصت بها العربات، والشاحنات، والطائرات المتهالكة.

كانت الرياح الخريفية، باردة للغاية، وتجعل أسنانه تصطك ببعضها البعض، رغم أنه كان يتعرق بالصباح، وهذا جعله يلتمس تشابهًا بينه وبين الطقس المصري المتقلب المزاج.

خطا للخارج وبقي يسير بالفضاء الواسع للمعسكر في شرود وحزن، إنه يفقد عقله بسبب سؤال واحد وحسب، هل فيرونا على قيد الحياة، أم في عداد الأموات؟

لو أنه يعرف لكان ثبت على حالة، ولكنه يتألم أحيانًا إن ظنها ماتت، ويكتئب إن خُيل له أنها حية ولا تعرف حقيقة مشاعره تجاهها.

صرخ بغضب حين أحس بالصداع يفتك برأسه لكثرة التفكير، وأخرج قنينته بيد ترتعش وطفق يتجرعها بلا هوادة، عساه يخدر عقله.

***

الوقتُ يمضي، وما يرحل لا يعود، ولكن بسبب الذكريات قد نعود نحن لما مضى مرة تلو المرة بسهولةٍ ويسر، ولهذا كانت فيرونا عالقةُ بالعام الماضي، تسترجع ليلة عيد الميلاد التي قضتها على الأريكة مع روبرت دون توقف، وبلا أدنى سأم.

كل الفتيات في العنبر خلدن للنوم، وعينها تأبى إلا اليقظة، لقد حاولت أن تسيطر على فؤادها طيلة أشهر كي لا يميل إليه، ولكنه لم يكن بحاجة لإذنها حتى يفعل.

لقد سحره روبرت حين جاءها ليلة الميلاد، كما سانتا كلوز ليحقق كل أمانيها العالقة.

نهضت ببطء ونزلت من فوق الفراش العلوي، وبدأت تسير على سلاميات كاحلها كي لا توقظ إحداهن، وحين باتت بالخارج، وضعت يديها على رقبتها الطويلة كالزرافات، وظلت تحركها يمينًا ويسارًا بعدما تصلبت من نومها غير المريح.

سمعت صرخة عالية فركضت نحو مصدرها، وسرعان ما تجمدت قامتها حين شاهدت روبرت أمامها يشرب من قنينته بنهم.

لم تكن مصدقة وظنت أن الأمر دربًا من الوهم، أو أنها عالقة بحلم جميل، كي تتيقن، اقتربت منه بخطى ضيقة وبدت عيناها كالمنومة مغناطيسيًا، لا تتحركان، ولا ترمشان رغم الهواء المندفع نحوهما.

تمتمت حين أدركته:

- "رو... روبرت!"

أنزل القنينة، ونظر نحو الصوت، وسرعان ما سقطت القنينة من يده حين وجدها أمامه بثياب النوم القطنية، وظن ثلاثة أمور، إما إنه انتشى فبدأ يرى طيفها، وإما إنه بات مجنون فعليًا، أو إنها هنا بالفعل.

تقدم خطوة ليتيقن من وجودها، وكانت فيرونا تعاني من ذات الصدمة فلم تتحرك.

حدق بها طويلًا دون حرف، وبغتة، ودون سابق إنذار، أحاط خصرها وجذبها نحوه بخفة ودام يقبلها بنهم، ولم تبد فيرونا مقاومة تُذكر، فبمرور ثانيتين كانت قد انسابت على ذراعيه، بعدما سرى الخدر بأطرافها.

حين تراجع كلاهما بشفتيه كانا قد تيقنا أنهما لا يحلمان، ابتلعت فيرونا ريقها فيما روبرت يمرر راحته على خصلاتها الشقراء، وقال بصوتٍ محشرج:

- "لقد بحثت عنكِ لأشهر في لندن، وها أنا ألقاك هنا، هنا بآخر مكان توقعت وجودكِ فيه، تسرني رؤيتكِ حية".

ابتسمت بخجل، ولم تكن تستطيع ترتيب جملة لتعقب بها، فاحتضنته في صمت لفرط لهفتها وشوقها، وهمست بعد دقيقة:

- "لقد غادرت حين بدأت معركة لندن، وكنت أسمع كل يوم أخبار القتال، وأرقام الطائرات التي سقطت، كنت خائفة عليكَ للغاية، وكنت..."

صمتت ولم تُكمل وشعرت أن ما يحدث خطأ فظيع، فتراجعت للخلف وعدلت:

- "وكنت قد رحلت حتى لا ألقاكَ ثانيةً!"

نظر لها روبرت مندهشًا، وتساءل بينما يضيق عينيه الزرقاوين:

- "لماذا؟ ألا تشعرين بشيء تجاهي؟"

هزت رأسها بالنفي كذبًا، فهتف بها غاضبًا:

- "لم بادلتني القبلات إذن؟"

أجابت وهي تنظر له بعينيها الحادتين:

- "لأسوي الدين، لقد قبلتكَ بغتة، وأنت فعلت الآن، واحدة بواحدة وانتهى الأمر".

همت بالرحيل فأمسك كتفها وقال بنبرةٍ جدية:

- "أنا لم أقبلكِ لأنال ثأري، أنا قبلتكِ لأنني أحبك، وأنت تحبيني كذلك، عيناكِ تقولان هذا، فلم تكذبين؟"

سالت العبرات من مقلتيها حين تذكرت الموانع، وتهاوت على ركبتيها في وهن وكأنهم يزنون أطنان، وسألته برجاء فيما تحتضن ساقه بضعف:

- "توقف أرجوك، ودع الأمر يمر، انسني فلستُ مناسبة لك".

جلس روبرت على الأرض أمامها وقال فيما يضع جبهته على جبينها:

- "لقد حاولت، ولكن نسيانك صعب".

كانت فيرونا قد بدأت تنشج، فغمغمت بصوتٍ لا يفهم:

- "سأسبب لك الألم يا روبرت، وأنا لا أريد هذا، أنا وأنت لا يمكن أن نكون عاشقين".

أمسك روبرت وجنتيها وبدأ يمرخ دموعها بإبهاميه، واستفسر فيما يدمع:

- "لماذا يا فيرونا؟ لماذا؟"

نظرت له مليًا ثم أجابت باقتضاب:

- "لأنني ألمانية".

أدهشه الأمر ولكنه لم يصدمه فهو لا يهتم بأمر الجنسيات حين يتعلق الأمر بالحب، وعقب مهونًا فيما يحتضنها ليحتويها:

- "وماذا إذن، أنا أسمع سيمفونيات بتهوفن حتى الآن، ولم أحطمها عند إعلان الحرب!"

أطلقت ضحكة قصيرة وصمتت من جديد، فأضاف بينما يربت على ظهرها:

- "أنا لا أهتم بجنسيتك ولا بكيفية وصولك إلى هنا، ما أهتم به هو أن تظلي معي، أنت أفضل شيء قابلني بتلك الحرب اللعينة".

قالها ودام صمت طويل بينهما، وظلت فيرونا بأحضانه ولم تتراجع، ولم يحرك ساكنًا كذلك.

يكاد الناظر يحسبهما نائمين بجلوسهما، ولكنهما لم يكونا سوى شخصين ينعمان بالسكينة وسط كوكب مضطرب، ولذا لم يباليا بمكانهما المحيط، ولا بأي شيء آخر، فحين يرى الإنسان بوادر نهايته الوشيكة، تتفجر داخله الرغبة في تحقيق كافة الأهداف غير المكتملة.

بزغ الفجر، وانطلق نفير التجمع الصباحي، فتراجع كلٌ منهما للخلف وهو يحملق في الآخر مندهشًا وقبل أن يهبط الجنود للساحة كان كلٌ منهما في طريقه لغرفته، ولكنهما بقيا يتلفتان نحو بعضهما البعض في شوق.

لقد دبت بهما الرغبة في التحدث فجأة رغم أنهما صمتا طيلة الليل.

***

انقضى وقتٌ طويل منذ بدأت مسيرتها الشاردة داخل حديقة القصر، وكانت عاقدة يديها لصدرها كي تقي رئتيها الرياح، وحين استشعر جسدها دفء الشمس، وبدأت تنتبه للشروق، فكت عقدة يديها، ونزعت الشال الكشمير الذي لبسته قبل ساعات.

توجهت نحو مَجلسٍ بالحديقة يتألف من منضدة وبعض المقاعد، وأرخت جسدها هناك وأمسكت رأسها المصاب بالصداع.

لقد مر أمر سفرها مع سالم على خير، ولم يدر رستم بالأمر حين عاد، ولكنها لا تدري لم تساورها الرغبة في إعادة الكَرة، إنها ترغب في المزيد من البهجة والسكينة، وهذان لا تدركهما سوى بوجود سالم.

إنها تتعجب من المشاعر التي سكنتها منذ رأته أول مرة، والتي نَمت داخلها طيلة عام ويزيد حتى طغت على بقية الأحاسيس بقلبها.

لقد أُغرمت به ولكنها ليست متيقنة من حقيقة مشاعرها، فهي لم تجرب الحب من قبل، ولا تعرف عنه سوى النذر اليسير.

انتبهت على صوت رُستم وهو يبادر فيما يجلس قربها:

- "صباح الخير يا ابنتي، متى استيقظت؟"

نظرت نحوه للحظات وأبت أن تخبره عن سُهدها، فأجابت باقتضاب:

- "منذ قليل".

خلع طربوشه ووضعه أمامه على المنضدة، ثم عقب فيما يبرم شاربه:

- "من الجيد أنني رأيتكِ قبل خروجي، فهناك شيء أود مفاتحتك فيه".

اعتدلت أميرة وقالت بأدب:

- "كلي آذان صاغية".

صمت رستم للحظات ثم همس متوددًا:

- "لقد أصبحتِ شابة يا أميرة، لدرجة أنني لا أصدق إنكِ نفس الطفلة التي كانت تجذب طربوشي بصغرها، الوقت يمر بسرعة ونحن لا ننتبه لهذا".

نظرت له أميرة في قلق، وسرعان ما تساءلت:

- "هل أنت بخير يا أبي؟"

هز رأسه بنعم وأضاف ببعض الحيطة:

- "أنا بخير الآن، ولكنني لا أعرف كيف سأكون غدًا، ومن الحين للآخر أتساءل عما سيجري لك بعد وفاتي".

هتفت أميرة بفزع:

- "لا تقل هذا أرجوك، فلن يحدث لكَ شيء".

ضحك رستم لرقتها وقال بجدية:

- "أنا لن أعيش للأبد ولا أطلب هذا، ولكنني سأموت مرتاحًا حين أطمئن عليك".

لم تعقب أميرة لعدم استيعابها فأضاف رستم مسهبًا:

ـ "أخوتكِ كلهم رجال أعمال محنكين يا عزيزتي، وأنا لا أخشى عليهم الحياة، ولكنكِ ابنتي الوحيدة، الأصغر سنًا، والأقل خبرة، ولذا أريد أن أموت وهناك رجل يحميكِ، ويعتني بكِ، ما رأيك في عاصم؟"

نهضت واقفة وأجابت وهي تعقد يديها لصدرها:

ـ "أنا لا أحبه، كما أنني لا أريد أن أتزوج الآن، فأنا ما زلت بالجامعة".

صمت رستم للحظة ثم قال بنبرة شبه غاضبة:

ـ "عاصم من دمكِ وهو أفضل شخص سيعتني بكِ وبثروتك، أنا لا أقول إنكما ستتزوجان اليوم، ولكنكما ستفعلان حين تكوني مستعدة، بعد التخرج مثلًا".

شعرت أن رأسها سينقسم نصفين، وبقيت صورة سالم تمر أمام عينيها، فصمتت ولم تعقب وقال رستم وهو يضع طربوشه على رأسه وينهض:

ـ "السكوت علامة الرضا كما يقال، وكنت أعلم أنكِ لن ترفضي لي طلب، سأغادر الآن فلدي موعد مهم ولن أعود سوى بالمساء".

اقترب منها ليقبل جبينها ولم تكن قد سمعت بسبب شرودها أي شيء من جملته سوى الجزء الأخير فقط، ولذا حين تركها ليركب السيارة المرسيدس، المنتظرة على الممشى الإسمنتي، كان أول شيء يخطر ببالها هو أن تذهب لمحطة السكة الحديد.

***

بلغ سالم المحطة قرب الظهيرة، وفيما هو يُبطئ سرعته ليتوقف، تراءى له أنه شاهد أميرة جالسة على أريكة عامة، تكفكف دموعها بمنديلٍ قطني طويل، يخفي معظم وجهها المحمر كالبندورة لفرط انفعالها.

قفز من القاطرة بمجرد توقف القطار ليتيقن، وحين أبصرها وتأكد من هويتها ركض نحوها في هلع ليستدرك:

ـ "ماذا حدث يا أميرة؟ لم تبكين هكذا؟"

رفعت وجهها لتنظر له للحظات ثم بكت بحدةٍ أكبر، فجلس لجوارها وتمتم:

ـ "حسنًا، لا تبكي أرجوكِ، وأخبريني على الأقل منذ متى وأنت هنا؟"

نظرت له بعينين محمرتين وأجابت بغمغمة:

- "أنا أنتظرك منذ ساعات".

كانت الدموع تنحدر من عينيها كشلالين لا يتوقفان، وكان منديلها قد بات مخضبًا بالمياه المالحة كما لو أنه نُقع بالمتوسط.

نجث سالم منديله من جيبه، وبدأ يجفف دموعها دون حرف، فتجمدت بجلستها ولبثت تحدق في وجهه حتى انتهى.

قال بأسى يصاحب وقوفه:

- "دعينا نرحل من هنا، لقد أنهيت ورديتي".

نهضت في رضوخ، ومكثت تسير خلفه، وتنظر له في صمت حتى بلغا الميدان، وهناك أشار نحو مقهى شعبي، وبمجرد أن لاذا به من الزحام المحيط، والصخب الطاغي على كل شيء، توجه ليجلب كوب ماء، وحين عاد قال بينما يمده إليها:

- "اشربي بعض الماء، وتوقفي عن ذرف الدموع، فرؤيتك هكذا تحزنني كثيرًا".

التقطت الكوب وارتشفت القليل لترضيه، ونظرت بعينيها نحو المارة بينما تعقب:

- "أعتذر، فلقد أتيت للقائك بحالةٍ مزرية ودون سابق إنذار، ولكنني كنت بحاجة ماسة لرؤيتك".

قاطعها قائلًا في محاولة لبث البهجة:

- "يمكنكِ أن تقابليني وقتما شئتِ، وصدقيني هذا لا يزعجني على الإطلاق، بل هو شيء محبب لي، خصوصًا حينما تبتسمي فتتحرك شامتك مع تمدد فمك".

نظرت له بولع وحين بادلها النظرات، أنزلت عينيها السوداوين وابتسمت في خجل رغم دموعها.

- "لهذا أتيت لرؤيتكَ، لأنكَ تستطيع أن تجعلني أبتسم مهما كنتُ حزينة، أكاد أشعر أنكَ تنزعج لحزني أكثر من والدي نفسه".

شعر سالم أن نبضه يتسارع عقب اعترافها العفوي، فعاد يتساءل:

- "ألن تخبريني لم كنتِ حزينة؟"

تزردت ريقها، وسحبت نفسًا طويلًا، وحين طردته قالت بسرعة:

- "والدي يريد أن يزوجني لابن عمي حين أتخرج من الجامعة".

امتقع وجه سالم للخبر، واستفسر بصوتٍ مبحوح:

- "وأنت موافقة؟"

هزت رأسها بالنفي فيما تُكشر وجهها الدائري، وعقبت باستياء:

- "أنا لا أحبه، إنه شخص وضيع ومقزز، ولطالما أظهرت له أني أمقته، ولكنه بارد الحس ولا يبالي".

هز رأسه متفهمًا وبدا عليه الحزن والرجاء بينما يقول:

- "ارفضيه إذن، فالزواج ليس لأيام، وإنما لحياة كاملة. يجب أن تختاري شخص لا تمليه مع الوقت، شخص تشعري معه بالأمان والسعادة كل يوم أكثر من السابق".

- "لا أستطيع، فوالدي يراه مناسبًا لأنه من العائلة، وأخشى أن أعارض والدي فيمرض بسببي، غيبوبة السكري قد تأتيه بلحظة، وقد يكلفه الأمر حياته".

ساد الصمت بعد تلك الجملة، وانشغل سالم في تخيل حياته دونها، وتخيلها مع سواه، وحين شعر أن الأمور تنساب من يده، قال بلهجة جادة ودون وعي:

- "لا تقبلي أبدًا يا أميرة، فأنا لن أحتمل غيابكِ، لقد... لقد حاولت ألا أحبك ولكنني لم أستطع".

شهقت غير مصدقة وحملقت به في شكر وهيام يتطايران من عينيها، ولم تنطق ببنت شفة، فأضاف بارتباك حين أعاد جملته برأسه:

- "لقد قلت ما لا يجب قوله، اعذريني إن كنت أغضبتك".

أغمضت عينيها وبدا عليها الألم الشديد وهي تعقب ببطء:

- "قولك لا يغضبني يا سالم، إنه يسعدني للغاية، ولكنها سعادة ناقصة، الإنسان جاهل ويحب امتلاك المستحيل".

- "إنه ليس جهلًا، الإنسان يعلم أن امتلاك الممكن شيء سهل، والأشياء السهلة الامتلاك تكون عادة مملة، لذا يرغب بالمستحيل، فلا فائدة في شيء نحصل عليه دون أن نقاتل لأجله كل شيء آخر".

صمتت أميرة لوهلةٍ ثم قالت وهي تضع يدها المرتعشة على الطاولة:

- "ولكنني لا أستطيع أن أحارب والدي، أنا أضعف مما تظن".

وضع كفه فوق يدها ليوقف ارتعاشها، وقال مهونًا:

- "أمور كثيرة قد تتغير حتى التخرج، ولكن حبي لك لن يتبدل".

نظرت أميرة ليديهما الموضوعتين على الطاولة، وشعرت بقشعريرة تسري بجسدها، ولم تجد ما تقوله سوى:

- "حبي لكَ سيظل كذلك أيضًا".

***

بعد تجهيزات مكلفة تمثلت في جلب العتاد والآلات الحربية من لندن، وبناء مستودعات الإمداد بالصحراء الغربية، إضافة إلى تدريبات شاقة تبدأ مع الشروق وتنتهي عند الغروب، تم إطلاق القوات البريطانية من معسكر حلمية الزيتون نحو معسكرات الإيطاليين التي أقيمت بالأراضي المصرية، وكان هذا في التاسع من ديسمبر، واستمر القتال لثلاثة أيام متواصلة، وفي النهاية حسم النصر للبريطانيين، وتم استعادة سيدي براني.

على الجانب الآخر من المتوسط، انتشر خبر تقهقر الإيطاليين واستيلاء اليونانيين على دولة ألبانيا في التاسع عشر من نفس الشهر ليزيد البهجة ضعفين، وبسبب هذا كانت أغلب الجنسيات في مصر تحتفل بالنصر، فبدت الطرقات شاغرة للغاية في ليلة رأس السنة تلك.

بتلك الليلة، كان روبرت واقفًا لجانب إحدى سيارات الجيش، وقد ارتدى ثيابًا مدنية، ودام يراقب المعسكر من الخارج، فيما ينقر بأنامله جانب العربة بتوترٍ، وبعد حين، بدأ يبصر فيرونا التي تزحف تحت الأسلاك الشائكة، وقد ارتدت معطفًا طويلًا، وربطت شعرها بِمشبكٍ عاجي.

تسللت للخارج بخفة، وحين باتت بعيدة عن كشافات المعسكر، خلعت المعطف لتكشف عن ثوب سهرة حريري، له لون قرمزي، ثم فكت خصلاتها الشقراء لتكسو ظهرها العاري، وتلفتت بحثًا عن روبرت.

رأته واقفًا لجانب السيارة، فركضت نحوه بملامحٍ ملتاعة لتحتضنه، وهمست من مكانها بين ذراعيه:

- "اشتقت لك، لقد مر النهار ببطء شديد وكنت أتحرق شوقًا لرؤيتك".

أحاطها بيديه، وابتسم بحبور فيما يقول:

- "وأنا كذلك، دعينا الآن نفر من هنا قبل أن يرانا أفراد الدورية".

تراجعت للخلف وهي تتلفت جانبًا، وبسرعة الريح استدارت لتجلس في السيارة الخالية من الأبواب، وحين انطلق روبرت مبتعدًا عن المعسكر، ارتخت برأسها على ساقه، وسألت وهي تنظر له من الأسفل:

- "إلى أين سنتجه؟"

وضع يديه على رأسها وراح يمسد خصلها الذهبية بينما يُجيب:

- "سنتوغل قليلًا بالصحراء كي لا يتم ملاحظتنا، ولا تقلقي فلقد جلبت الجعة معي".

ابتسمت وهي تعقب:

- "لست قلقة، فأنا سأستقبل العام الجديد بأي مكان تكون فيه، كما أن الصحراء ليست سيئة، أنا أحب أن نكون منعزلين عن كل شيء".

ابتسم ببعض الخجل، وكان يسير فوق الرمال ببطء كي لا تتحلحل رأسها مع تأرجح السيارة، ولما تعمق مسافة كبيرة، قام برفعه رأسها عن ساقه:

- "عزيزتي، ابحثي معي عن شجرة قصيرة، أنا متأكد أنها هنا فأنا أراها من الطائرة كل يوم".

ضيقت عينيها، وبدأت تمشط بهما أرجاء الصحراء التي لا ينيرها سوى هلال القمر وبضعة نجوم، وبعد لحظات صدحت بظفر:

- "باتجاه الساعة الثالثة".

ضحك روبرت وهو يلتفت للموقع، وقال مقهقهًا:

- "باتجاه الساعة الثالثة! هل من المفترض أن أقول الآن إنها بمجال بصري، وأن لدي مساحة للتصويب؟ لقد تعلمتِ لغة الجيش سريعًا".

وكزته في كتفه بينما تضحك وقالت:

- "وماذا أفعل، كان لا بد أن أتأقلم".

بلغا الشجرة فتوقف روبرت تحتها، وأدار الراديو على محطة البي بي سي، ثم قفز نحو الخارج.

غاب للحظات عند مؤخرة العربة، وحين عاد، وجدته فيرونا ممسكًا بعلبة معدنية تخزن بها الذخيرة. وضعها على مقدمة السيارة، فأصابها التعجب وهبطت بسرعة لتنظر بها، ولكنها تنهدت بارتياح حين رأت بها الثلج المجروش وزجاجات الجعة.

جلست معه فوق غطاء السيارة الأمامي وارتخت بظهرها للزجاج، ثم التقطت زجاجة جعة، وبدأت ترتشف باستمتاع فيما تنصت لصوت بيلي هوليداي المنبعث من الراديو مع موسيقى الجاز.

كان الهواء منعشًا، والمكان هادئ بلمسة رومانسية، تستطيع الولوج لشغاف القلب وحثه على السيطرة.

- "لماذا لم تهربي حين وصلتِ مصر؟"

سأل روبرت وهو يحدق بعينيها، فصمتت لحظات ودامت تنظر له بتفحص.

- "كنت أنوي هذا، ولكنني حينما رأيت المصابين تناسيت الأمر، رأيت أنه من الممكن أن أنقذ أرواح كثيرة، أنا هنا لأحارب مثلك ولكن بطريقتي الخاص، أنا أحارب الموت الذي تقدمون له الضحايا كل يوم".

- "قتال الموت أمر بغاية الخطورة، وحرب لا تُربح! أنت تكونين في ميدان القتال معرضة للقصف، وللرصاص، وهذا يثير جنوني".

وضعت يديها على كتفه وهمست:

- "أنا أيضًا أصاب بالجنون حين أراك تحلق، ولكنني لا أستطيع منعك، أنت تتبع الأوامر، وأنا أتبع الأوامر، ولكن أحدنا يقتل، والآخر يُحيي".

ابتلعت ريقها ثم استطردت بلهجةٍ حالمة:

- "أتمنى أن تنتهي تلك البشاعة".

وضع روبرت القنينة وهمس بصبيانية بينما يمد يده صوبها:

ـ "دعينا نحارب البشاعة بالجمال، واقبلي دعوتي للرقص، دعينا نشكل تحالف بيننا!"

عقدت حاجبيها وهي تسأله ضاحكة:

ـ "أنت مختل عقليًا، أليس كذلك؟"

نظر لها بعينين تلمعان وأجاب فيما يجذبها للأسفل:

ـ "مختل عقليًا وقلبيًا، لذا راقصيني قبل أن تنتهي الأغنية".

كان بالفعل قد أحاط خصرها، فلم تملك سوى التحرك معه فوق الرمال في نشوةٍ وبهجة، وقد تركت له قيادة الخطوات.

راحت تتحرك كفراشة خفيفة ولا يثقلها شيء من الغم أو القلق، أما روبرت فكان مغتبطًا لدرجة شعوره بكونه يُحلق في السماء السابعة رغم أن قدميه تلامسان الرمال.

انتهت الأغنية وكانا بأقصى حالات الانتشاء، فهمس ببعض التوتر والمجون:

ـ "الموقف رومانسي للغاية ويستدعي قبلة ختامية، أيمكن هذا؟"

نظرت له لبرهة ثم تساءلت مستغربة:

ـ "منذ متى ونحن نطلب الإذن قبل التقبيل؟!"

ضيقت عينيها وحدقت به فقطب جبينه وبادلها التحديق كما لو أنهما خصمين من رعاة البقر، وفجأة أحاط كلٌ منهما الآخر بعنف طفيف، وشرعا يتبادلان القبلات تحت ضوء القمر بقوة وإسراع، وكأنهما يسرقان تلك اللحظات خلسةً من الحياة المريرة المحيطة بهما.

****

نسبة كبيرة من العائلات قررت أن تحتفل في المطاعم وعلى البحر بمناسبة رأس السنة، ولذا كان حسين مشغولًا في مساعدة عماله المرهقين من الطلبات الكثيرة والتنظيفات المستمرة.

قبل الثانية عشر بقليل هدأ المطعم، وخرج الأشخاص للطرقات وهم يهللون، وتوجهوا للبحر لكي يشاهدوا الألعاب النارية عن قرب، فرأى حسين أنها فرصة

مناسبة ليقصد متجر ماركو حتى يشتري أي شيء، ويتسنى له رؤية كارلا التي تعاون عمها منذ وصولها للبلاد.

تذبذب للحظات بدعوى أنه كبر على هذا الانحلال الصبياني، ولكنه رضخ لمشاعره، وحسم أمره في النهاية وخرج بخطى واسعة، وحين دخل المتجر وجد ماركو جالسًا مع كارلا يرتشفان الشاي، ويستمعان لأغنيات يونانية عبر الجرامافون.

بادرهما قائلًا حين نظرا نحوه:

- "عامكما سعيد".

نهض ماركو ليسير تجاهه، وكان وجهه مشرقًا لفرط سعادته، فقال ملاطفًا:

- "وعامك يا حسين، تفضل بشرب الشاي معنا".

بسط حسين راحة يده، وعقب:

- "لا أريد أن أقاطع المجلس العائلي، لقد قدمت لأخذ دزينة سجائر".

نهضت كارلا، وقالت بلطفٍ جم بينما تشير للمقعد المقابل لها:

- "سيسرنا أن تنضم لنا قليلًا يا حسين".

خضع لرقتها وتقدم ليجلس، وتبعه ماركو بالسجائر، كانت الليلة هادئة، والأخبار المتناقلة تبعث البهجة في كل مكان، ولذلك لم يجد وقتًا أفضل ليستدرك:

- "هل هناك أخبار عن العائلة؟"

ابتسمت بعذوبة بينما تجيب:

- "إنهم بخير حال، شكرًا لسؤالك، لقد جاء الرد على خطابنا بالأمس، ولا بد أنهم يحتفلون الآن بالمنزل".

شرعت تعد له الشاي فيما تطالعه من الحين للآخر بخجل وانجذاب، وكانت حالته المثل، وحين مدت له فنجانه، تلاقت عيونهما، فلم تقل شيئًا أثناء التقديم، ولم يتفوه هو بالشكر، وتم التسليم في صمتٍ مطبق، لا يقطعه سوى الجرامافون.

شعرت بالتوتر حين لاحظت صمتهما فتراجعت للمقعد بسرعة، وبدأ حسين يرتشف باستمتاع فيما يراقب خجلها، رغم أنها نسيت أن تضع له مكعبات السكر بالفنجان.

قال ماركو بعد لحظات:

- "كيف يسير العمل يا حسين؟"

عقب وهو يلتفت نحوه:

- "ها؟ آه، إنه رائع، رائع للغاية".

ابتسمت كارلا لتوتره الواضح، وعقبت لتصلح الموقف فيما تنظر لماركو:

- "من الواضح أن حسين متعب يا عمي".

- "يبدو الأمر كذلك، ولكن منذ وصولك والراحة تحيطني يا طفلتي، لقد استعدنا البلاد هنا، وجيشنا اليوناني دخل ألبانيا، وحتى الغارات صارت تحدث كل فترة، أشعر أننا أصبحنا بحالٍ أفضل، أليس كذلك؟"

قال الأخيرة وهو يلكز حسين الشارد بوجهها فعقب بينما يبتسم ببلاهة:

- "بلا شك، لقد تبدل كل شيء بقدومكِ وبات يسير للأفضل".

كانت ملاطفة متوارية، واعترافًا مدسوسًا، وكانت كارلا نبيهة كفاية لتفهمه، فتوردت وجنتيها على الفور، وهمست بحياء فيما تنظر للأسفل:

- "أنا أيضًا أشعر بهذا".

خيم الهدوء للحظة، حتى استفسر ماركو باهتمام:

- "كيف حال سالم؟ أنا لم أره منذ فترة".

- "لقد حدثني على الهاتف بالصباح، وقال إنه بخير حال، وسوف يقضي الليلة بالقاهرة مع أصدقائه".

عقد ماركو حاجبيه:

- "هل أصبح له أصدقاء؟ هذا غريب، فهو دائمًا كان منفردًا بنفسه، وغير اجتماعي".

- "التغيير هو الشيء الثابت بالكون".

ابتسمت كارلا بتعقيبها:

- "أتفق معك في هذا، فلا شيء يبقى على حاله".

ودام صمتٌ طويل لم يقطعه سوى صراخ المارة بالعد التنازلي وصوت المفرقعات التي انطلقت عند منتصف الليل، لتعلن أن العام الجديد وصل لتوه.

١٩٤١

"لا أدري كيف جلبتك الأقدار لعندي ولا أبالي، ولا أهتم كذلك بحصر أسباب تعلقي بكِ فهي كثيرة، الشيء الوحيد الذي يشغل خاطري بتلك الآونة، هو أن أحول وصولك المفاجئ لبقاء سرمدي داخل حياتي".

من خطابات حسين إلى كارلا

عقب نصف ساعة من مطلع العام الجديد.

في دور العرض الفاخرة، وفي السينمات الصيفية المكشوفة، كان هناك إقبال على شراء التذاكر وحالةٌ هستيرية من الركض خلف الترفيه، ففي ظروف رائجة كتلك، لم يكن المصريون ليفوتوا فيلمًا جديدًا للعملاقين، يوسف وهبي، وليلى مُراد. الكل كان بحاجة لفترة هدنة، وجاءت أخبار استعادة البلاد لتدفع الكل نحو الاحتفال بالنصر، وبالعام الجديد سواء.

بتلك الليلة الخلابة، كان سالم وأميرة جالسين جنبًا لجنب، وسط مئات الأفراد داخل السينما المكشوفة لحدائق الأزبكية، وكانت أميرة مندمجةٌ للغاية مع الفيلم الأبيض والأسود، فيما كان سالم مشغولًا بمراقبة تعابير وجهها، وقد بدت عليه الراحة بسبب سرورها.

تنهد ونظر نحو السماء الصافية، ومن ثم لفندق شيبرد القريب منهما، والذي كان نزلاءه يستمتعون بالمشاهدة من الشرفات دون دفع أي نقود، وحين عاد بعينيه لأميرة ابتسم مغتبطًا، وبقي يحملق بها حتى التفتت نحوه.

راقبته لوهلة ثم صرحت:

- "أنت لا تشاهد الفيلم كما تشاهدني".

ابتسم وهو يومئ برأسه مؤكدًا وفسر:

- "أنا أفضل مشاهدتكِ أنت".

كانت مربعة الساقين فوق الحشائش، فوضعت مرفقيها على ركبتيها، وأراحت رأسها عليهما وهي تعقب مبتسمة:

- "أنت تُخجلني بنظراتك، توقف عن مطالعتي".

قلب كفه وهو يهمس:

- "ما باليد حيلة، كما أنكِ صرتِ أجمل حين احمرت وجنتيكِ".

غطت وجهها بكفيها للحظات وهي تضحك، وبعد وهلةٍ نهضت بغتة، وأمسكت كتفه لتنهضه.

داما يسيران بالحدائق، وحين باتا بعيدين عن الحشود، تأبطت ذراعه، وأراحت عليه رأسها فيما تقول مع سيرهما البطيء:

- "لم أكن سعيدة أبدًا كما الآن، وجودكَ قربي يبهجني للغاية، كنت أتمنى العودة للجامعة، ولكنني الآن لا أريد ترك القاهرة، رغم أن والدي أذن لي بالذهاب بعدما جاءت أخبار النصر".

توقف سالم عن السير وقال بجدية:

- "سأتبعكِ أينما رحلتي، فلا تقلقي بشأني، عودي للجامعة فاختبارات نهاية العام باتت قريبة، كما أنكِ ستعودين للقاهرة سريعًا بإجازة الصيف".

استدركت بلهفة:

- "هل سأراك كثيرًا وأنا هناك؟"

- "طبعًا، فنحن لا نلتقي بالقاهرة إلا حينما يكون والدكِ مسافرًا".

صمتت للحظات وقد انتبهت لهذا الأمر، ورأت بالفعل أن وجودها بالإسكندرية سيجعلها بعيدة عن عين والدها وقوانينه الحذرة، وستمسي قريبة من سالم أكثر، ولكن الجامعة باتت تمثل شيئًا مزعجًا بالنسبة لها، فهي تكره أن تتخرج فيها، وبالتالي لا ترغب بالنجاح فيها.

إنها تنوي أن ترسب، وترسب، وترسب من جديد حتى يبدل والدها رأيه في عاصم.

همهمت وهي تكشر وجهها:

- "أنا أكره الجامعة ولا أريد أن أنجح فيها، لقد قررت ألا أحضر الامتحانات".

تفهم سالم وجهة نظرها سريعًا فربت على كتفها وهمس بحنو:

- "دعي تلك الفكرة كورقةٍ أخيرة، فأنت بالعام الثاني، وستحتاجين للبقاء عامين إضافيين بعدما ترسبي مرارًا وتكرارًا، اعتمدي خطة الرسوب بالعام الأخير إن لزم الأمر، أما الآن فأنا اريدكِ أن تتفوقي على الجميع".

ابتسمت لطيبته البحتة، وهامت بملامحه لبعض الوقت، وحين تحدثت قالت بشغف:

- "أنا أحبك للغاية يا سالم، ولا أريد أن أفقدك، ولا أريد كذلك أن أفقد والدي".

التقط يدها ليربت عليها وغمغم برجاء:

- "لن تفقدي أيًا منا، سيكون كل شيء بخير".

هزت رأسها وكأنها مصدقة وأعلنت بصوتٍ خفيض:

- "سأعود للجامعة بعد فترة، فالإسكندرية باردة تلك الآونة".

جذب يدها ليكملا السير، وتحدث فيما ينظر للأشجار حولهما:

- "وقتما تريدين الذهاب أخبريني حتى نتقابل بالمحطة وأوصلك".

نظرت له لبرهة وهمست ببعض التردد:

- "والدي لم يوصلني للجامعة ولو مرة".

استشعر موجة حزن قادمة، فأرجح يدها وهو يعقب مهونًا:

- "لا بأس، فلقد أتيت لأنوب عنه، وفي الحقيقة هذا يسعدني".

ابتسمت لما يجري ونظرت نحو السماء بإلحاح، عسى تجاب دعواتها التي تكررها كل ليلة.

***

بسبب ميثاق الصلب، اضطر هتلر على مضض أن يوقف غزوه المخطط له مسبقًا، حتى يعاون شريكه موسوليني الذي عانى الخسارة طيلة الأشهر الماضية في ميادين الحرب المختلفة، ولذا أرسلت الآلات الحربية الجديدة، والفرق الكثيفة لدعم الجيش الفاشي.

في بدايات فبراير وصل الجنرال أروين روميل لإفريقيا، وكان المعروف عنه أنه محنك، ولا يحب الهزيمة، فلم يمض كثيرٌ من الوقت حتى بدأت الأمور تضطرب في المعسكرات البريطانية، وأذيعت أخبار تفيد أن الألمان يعيثون فسادًا في بنغازي،

وأنهم عازمون على النجاح فيما فشل فيه الإيطاليون، وعليه كانت بريطانيا بحاجة لتحصين دفاعاتها لتصمد بوجه الفيرماخت، وتجهيز معسكرات الإمداد والتدريب، وأيضًا كان تشرشل قد أصدر تعليمات بأن يتم تجهيز ستين ألف جندي ليتم إرسالهم للجبهة في اليونان الحليفة على وجه السرعة.

كانت حرب اليونان هي الأولوية لدى كلٍ من الحلفاء والمحور فإن ربحت اليونان المعركة، ستصبح إيطاليا بقبضة الحلفاء وسيكون الدخول لباريس أمرًا سهلًا بسبب الحدود المشتركة، وإن فشلت ستسقط اليونان بشعبها ومواردها في قبضة المحور، أما حرب الصحراء الغربية فلم تكن تشغل بال هتلر كثيرًا، ولذا ظل روميل منتظرًا وصول العتاد والفرق، التي قُرر أنها ستصله في مايو المقبل.

***

حين وصل قرار التوزيع لم يكن سيمون ضمن الستين ألف المختارين للذهاب إلى اليونان، ولذا كان يترصد قائده طيلة أيام ولكن عبثًا، لم يكن الأخير متاحًا ولو للحظة.

ذات ليلة بينما هو جالس مع روبرت في الغرفة، كان يفكر بكل ما سيناله لو نجح في دخول إيطاليا، وقتها سيمكنه بكل سهولة أن يعبر لفرنسا ولو خلسة حتى يمني عينيه برؤية أسرته، ولقاء ليندا، لقد انقضت سنتين من الفراق، واللوعة، وهو لم يعد يستطيع التحمل.

نهض بغتة ليشق الصمت.

- "لقد طفح كيلي يا روبرت، وسأمضي للقائد الآن".

كان روبرت ممددًا على الفراش، وكانت ملامح وجهه تنم عن سكينة مطلقة، على غير العادة، وكانت بسمته تتجلى بحيوية كلما تذكر فيرونا، ولم يكن ينقصه سوى هالةٍ من الضوء فوق رأسه ليجسد شخصية الملاك، ولكن كل هذا تبدل حين سمع جملة سيمون، وبدا ساخطًا، وغاضبًا وهو يعقب:

- "هل أنت مجنون؟ أم أنك تقدم على الانتحار بإرادتكِ؟ موقف اليونان أصبح سيئًا، لقد عرضنا المساعدة منذ بداية الحرب، ولكن الملك رفضها، والآن بعد موته يوافق ورثة العرش".

صمت لحظة ثم أكمل:

ـ "الآن بعدما انقلبت الموازين، لو كنا حاربنا هناك من البداية لكنا ربحنا واستعدنا باريس، ولكن الآن لن نستطيع، لقد بات هناك الملايين من الألمان".

نظر له سيمون بجمود وقال:

ـ "الحرب لا تربح بعدد الجنود، إنها تربح بكفاءتهم ومدى إصرارهم على الفوز، وأنا عازم للغاية يا روبرت، تلك هي اللحظة التي انتظرتها".

هم بالرحيل فأمسكه روبرت من كتفه ليوقفه، ولكن سيمون أبى أن يتوقف، فظل يحركه خلفه لبضعة خطوات، وحين بلغ الباب وفتح نصفه، دفعه روبرت ليغلقه، ووقف أمامه وحدق بعينيه.

ـ "أنا أقدر مشاعركَ، وأعلم أنكَ لم تلتق حبيبتكَ وأسرتك منذ عامين، ولكن إن تركتك تذهب فلن تصل لهم يا سيمون، بل ستصل ليسوع، تمهل حتى اللحظة المناسبة، ولا تعتمد على الحظ، لا تقتل نفسك يا صديقي".

ابتلع سيمون ريقه دون أن يقطع التواصل البصري بينهما وتمتم بصوتٍ محشرج:

ـ "لقد مر عامان منذ فراقي لهم، ومن حينها وأنا أموت باليوم ملايين المرات، أموت حين أتناول الطعام وسط الجنود وليس وسطهم، أموت حين أسمع صوت صافرة الغارة، وهدير مروحة الطائرة، وليس صوتهم، أموت وأنا أنام بمفردي، وأجلس بمفردي، وأمرض، وأفرح، وأبكي، وأتعافى بمفردي، الحرب لن تقتلني، إنها ستمنحني راحة الموتة الأخيرة، أو راحة رؤيتهم".

أنزل روبرت عينيه مستسلمًا وأغمضهما ليحجب دموعه التي كادت تفر حين شعر بمدى الألم الذي ينتاب سيمون، ثم رفع رأسه وقال باستسلام:

ـ "لنذهب إذن".

هم بفتح الباب فأغلقه سيمون تلك المرة وقال بنبرةٍ راجية:

ـ "دعني أذهب بمفردي".

صدح بغيظ وهو يضرب الباب بكفه:

ـ "تبًا لكلمة مفردي التي لا تنفك تكررها، إن ذهبت، سآتي يا سيمون، أنا لا أستطيع منعك من الذهاب، ولكنكَ لن تستطيع منعي من القدوم كذلك".

- "أنا لن أستطيع، ولكن فيرونا بإمكانها فعل هذا، أستتركها الآن بعدما وجدتها، كلا يا صديقي، لا تفعل، فأنا أستطيع الاعتناء بنفسي ولكنها لا".

كان محقًا ولهذا نظر له روبرت بضيق، وقال فيما يتحرك بعيدًا عن الباب:

- "أنت وغد فعلًا".

ابتسم سيمون وهو يغادر، وجاء صدى صوته المتردد بالرواق:

- "لقد دربتني جيدًا يا صديقي".

تمدد روبرت على الفراش من جديد، وأخرج قنينته ليرتشف منها، وقد عقد حاجبيه في ضيق، وكشرَ وجهه، وكشف عن أسنانه، ولم يكن ينقصه سوى قرنين ليجسد الشيطان، ولكن كُل هذا تغير حين تذكر فيرونا! فلديه موعد معها يبدأ منذ الشروق، وحتى ترتفع درجة الحرارة، وينقلب الطقس كما مزاجه.

***

تنفس الصبح، ففتحت كارلا عينيها العسليتين، ودامت تنظر في خمول صوب الشرفة التي تتمايل ستائرها مع الرياح، الهواء منعش اليوم، ورائحته تأتي لعندها مُحملة بعبق المتوسط، تمامًا كما لامستها على الجانب الآخر من البحر.

لا يمكنها أن تتشكي من شيء، فحياتها هنا هادئة كثيرًا، ولا تستشعر الغربة ولو لحظات، وثَمَّ إحساس بداخلها يقول إن بلادها ستنتصر قريبًا، وسيتسنى لها العودة لجزيرة كريت.

في كل مرة تفكر بهذا الأمر، تشعر بوخزة في قلبها على الرغم من أنها تتهافت لتحققه، إن عادت فلن ترى حسين من جديد، وهو الذي سكنها وخيم على تفكيرها منذ لحظات وصولها الأولى، ودام على مر الأيام يكشف عن شخصيته، بقصد أو غير قصد.

عله السبب في ارتياحها لمصر، ولولا وجوده بالقرب لكانت تاقت لليونان ولأسرتها حد الجنون.

اعتدلت فوق الفراش وتمطت للحظات، وهي تتثاءب بخمول، وبعد حين، قررت أن تنهض للشرفة، حتى تستبين إن كان بالمطعم أم لا.

أطلت برأسها على الشارع شبه الفارغ، فوجدته جالسًا أمام مطعمه، يراقب شرفتها بوجهٍ مشتاق، فيما يدخن سيجارة ويرتشف بعض القهوة، فابتسمت بخجل وفاءت لظل الحجرة.

جلست فوق مقعد قصير، وبقيت تنظر لنفسها في المرآة بينما تصفف شعرها، وكانت لا تنفك تبتسم بمرح الطفلة، وعنفوان المرأة.

ها هو يأتي مرة أخرى بوقت استيقاظها، فقط ليرى وجهها الناعس، والخجل لثوانٍ لا أكثر.

"لقد سقطتِ في الهوة".

نهضت كي تبدل ثياب النوم، ثم انطلقت بسرعة عبر الشقة الواسعة، وفوق الدرج، لكي تفتح المتجر، ولما دخلته وأدارت المذياع، اتخذت مقعدًا قرب الباب، يتيح لها مطالعة المطعم ومالكه.

طفقت تتبادل النظرات مع حسين، ورغم أنها حاولت بشتى الطرق ألا تنظر ناحيته، كانت رأسها تتجه نحوه مرغمة، وكانت عيناها تتسعان لتبصراه، ففي ظروف متقلبة، ومقلقة كالتي تحيط بهما، لا يجد المرء مناصًا من الرضوخ لأي شيء يثير سكينته، وسعادته.

الكل يتناسى بشاعة الحرب بصورة ما، وهما يتناسيانها بجمال بعضهما البعض.

نهض حسين عن مقعده وقطع الشارع، وبادر حين بلغها:

- "طاب صباحك".

ابتسمت بلطف وهي ترد:

- "وصباحكَ كذلك".

- "أريد دزينة سجائر من فضلك".

ضحكت للحجة التي لا تتغير، ونهضت لتجلبها وهي تشير لهذا الأمر قائلة:

- "أنت تدخن كثيرًا، حاول أن تهتم بصحتكَ".

مدتها له فالتقطها متأملًا، والتفت ليخرج بعدما ترك حسابها، ولكنه توقف بغتة، وشعر أنه يتصرف كما المراهقين تمامًا، بل تصرفه واضح بالنسبة لها.

أزعجه الأمر للغاية، فاستدار من جديد وقال بصراحة:

ـ "أنا لا أدخن كل تلك السجائر، ولدي بالمنزل والمطعم مخزون يكفي لعام كامل، شرائي لها مجرد عذر يُمكنني من رؤيتك عن قرب والتحدث لك قليلًا".

تلعثمت كارلا لاعترافه المباغت، ووجدت نفسها تسأل دون تفكير:

ـ "ولماذا تفعل هذا؟"

كان حسين قد صوب نظره للأسفل منذ اعترافه، فرفعه من جديد وحدق في عينيها، وأجاب بهدوء فيما أجفانه ترتعش:

ـ "لأنني أحببتكِ، أحببتكِ منذ رأيتكِ بالميناء".

اندفعت الدماء لوجهها، وشعرت أن صوت نبضاتها المرتفعة يصل لأذنيه، فركضت عبر الباب المؤدي لمدخل المنزل، وهرولت للأعلى، ولم تتوقف رغم اصطدامها بماركو الذي كان يهبط الدرج صوب المتجر، وحين بلغت غرفتها أغلقت بابها وأخذت تبتسم بحياء، ثم استندت إلى أخشابه لتلتقط أنفاسها، وظلت تنظر في جوانب الغرفة فيما صدرها يعلو ويهبط.

"أحقيقي ما سمعته؟!"

***

بقي محصلُ التذاكر يخطو بترنح وتوتر بسبب الاهتزاز الناجم عن السير، وبسبب زحام الراكبين، حتى أدرك العربات الهادئة للقطار حيثما توجد كبائن الدرجة الأولى.

هناك، توقف ليلتقط بعض الأنفاس وقد تشبعت برائحة العطور النفيسة، وحين هدأ لاذ بطَرق باب الكابينة الأولى، وانتظر لحظات ليسمع إذن بالدخول، ولكن لم يجبه أحد.

دق مجددًا وبإلحاح أكبر، وكان يخشى الدخول المباغت كي لا يقاطع مجلس حميمي لأحد الباشوات، أو الأجانب، فهم عادة يستقلون القطارات مع عشيقاتهم، بنية التواري عن الأعين، والصحفيين.

بعد تفكير استمر ثواني، قرر أن يقوم بالاقتحام، فهم أيضًا يدفعون المال بلا تردد حين يتم ضبطهم متلبسين كي يتفادوا الفضيحة والنوش، ولأجل بعض القروش سيقوم بالمخاطرة.

دمق للكابينة، فانتبهت أميرة التي كانت تنظر بعينين حزينتين للحقول المترامية، وشهقت بفرع.

التفتت نحوه وتساءلت بضيق فيما تنهض:

- "ألم يعلمك أحدهم أن تقرع الباب؟"

تمتم المُحصل بتراجعه خطوة للوراء:

- "أعتذر يا آنسة ولكنني طرقت ولم أسمع إجابة".

أمسكت أميرة بجبهتها وهمهمت فيما تتهاوى فوق أريكة القطار:

- "كنت أفكر ولم أسمعك، ماذا تريد؟"

- "التذكرة".

بحثت عنها في الحقيبة، وفي جيوبها وحين سئمت قامت برفع وجهها نحوه:

- "لم أجدها، اقطع لي واحدة أخرى".

فعل بإسراع وحين حَصَل منها سعر التذكرة أغلق الباب خلفه، وتركها لوساوسها غير المنتهية، والتي جعلتها تنسى أن التذكرة في قفازها كما وضعتها تمامًا، حتى يتسنى لها إخراجها بسرعة حين يمر المحصل.

نظرت من جديد للحقول الممتدة، وللأعمدة التي تمر من جانبها وتغادرها بلحظة، كما تغادرها كل الأشياء في حياتها، ودمعت عيناها، إنها تخشى أن يكون سالم كذلك، فهي لم تحب أحد كما تحبه إلا والدها.

شردت بنفس الحلقة المفرغة، والمعضلة المريبة، ولم تنتبه بسببها لوصول القطار وتوقفه، ولولا أن نبهها سالم لكانت بقيت هكذا لوقتٍ طويل.

نظرت نحو مصدر صوته فوجدته يقف على الرصيف وينظر لها بوجهٍ قلق، فنهضت بينما تبتسم باصطناع وهمست بعذوبة:

- "لم أنتبه لوصولنا، سأهبط في الحال".

أنزلت الحقيبة، وسارت للخارج، وحين نزلت لأرضية الرصيف، قابلها سالم ليحملها عنها، وقال مستدركًا فيما يغادران المحطة:

ـ "ماذا هناك يا أميرة؟ أنت على غير عادتك منذ التقينا بالصباح".

نظرت له لوهلة ثم زفرت باستياء بينما تجيب:

ـ "منذ بداية العام وأنت تطالبني بالعودة للجامعة، وكلما أخرت الأمر وتناسيته كنت تتطرق له دون سأم، أنا أشعر أنكَ تبعدني عنكَ يا سالم، ولا أصدق إنكَ ستستطيع رؤيتي وأنا هنا".

أوقف سيارة أجرة فيما اللوم يشع من عينيه بسبب جملتها، وقال باقتضاب:

ـ "سأكون لجوارِكِ دائمًا، وبالمناسبة أنا لا أحثك على العودة لأتلاشى لقائك، بل لأنني لا أريدك أن تتخلفي في الدراسة بسببي".

توقفت السيارة ففتح لها الباب وأدخلها، ثم التف ليجلس جوارها، وخيم الصمت الثقيل، والمخيف عليهما حتى بلغا الجامعة، وهناك هبطت أميرة بسرعة، وقالت بنبرةٍ شبه جامدة:

ـ "شكرًا لتوصيلي، الآن أخبرني متى سأراك؟"

فرك سالم رأسه وبقي يطالع وجهها المستاء للحظات حتى قال:

ـ "سأنهي العمل في التاسعة، ولكنني سأسلم الوردية بمصر، لذا سآتي قرب منتصف الليل، هل ستستطيعين لقائي وقتها؟"

هزت رأسها بالنفي، وهمست بنظرها للصرح الممتد أمامها:

ـ "لن أتمكن من الدخول أو الخروج بعد العاشرة، إنها قوانين السكن".

عادت تنظر له فيما تضيف باستسلام:

ـ "لا بأس، سنلتقي غدًا".

طالعها بحنو وهمس متطرقًا لحالها الجديد:

ـ "يمكننا أن نجتمع رغم المسافات، ورغم أن نرى بعضنا، ويمكننا أن نشعر بالبُعد بينما نتصافح، الأمر يعود لمدى ثقتنا في أحدنا الآخر، ويعتمد على الحب المتبادل، وأنا أريدكِ أن تثقي بي دائمًا، فأنا أحبك".

عضت شفتها كأنها تلوم نفسها لتصرفها الغريب، وهمست بينما تحني رأسها:

- "اعذرني يا سالم، ولكنني أحبك أكثر من أي شيء، وأخاف أن أفقدك بنفس القوة، الأمور كلها لا تسير لصالحنا".

رفع رأسها بإصبعيه وقال بثقة:

- "ستفعل بوقتٍ ما، فلا تجعلي اليأس يقتل حبنا، وابتسمي بيقين، لقد جمعنا الله ولم نطلب ذلك، لذا لن يفرقنا رغم تضرعنا".

غمغمت بيأس:

- "أنت درست الدين وتعرف أن الابتلاء قد يوضع بالنعمة، ماذا إن كان جمعنا لنؤلم بعضنا البعض بالفراق؟"

جحظت عيناه وكادتا تخرجان من محجريهما، فتلك هي المرة الأولى التي يرى فيها أميرة متشائمة ومستسلمة، لتلك الدرجة.

وقف صامتًا ولم يعقب، فتناولت حقيبتها ولوحت مودعة دون حرف إضافي، وبخطوات مضطربة دخلت للمبنى، وحين عاد سالم للانتباه، كانت قد باتت بأخر الممشى الواقع بين صفي الأشجار، فهتف لتسمعه:

- "سأكون لجوارِكِ، هل تسمعين؟ سأكون لجوارك".

توقفت عن السير، والتفتت إليه للحظة، ثم انعطفت بسيرها وغابت عن ناظريه.

إنها ترى ما لا يراه، فهي ذات شخصية واقعية، وهي أدرى بأسرتها، فحتى وإن نجت من موضوع عاصم، فلن يقبل رستم سليل الحسب والنسب، أن يزوج كريمته الوحيدة، لأحد الأفندية العاملين بالسكك الحديد.

إنها علاقة أضعف من أن تجابه رجلًا كوالدها، ولكنها خاضتها دون تردد، وظلت تسرق الأيام واللقاءات من الحياة غير أبهة للتعليم أو لخروجها دون إذن من القصر، ولكن سالم لم يلاحظ ما تعانيه من قلق وهي تؤدي تلك المجازفات، ويصر على جعلها تكمل الدراسة، فقط لتكون الأفضل، ولم يكن يدري أنها الأفضل ما دامت معه، وليس بعيدًا عنه.

ولذلك تسرق اللقاء تلو اللقاء، قبل أن تنتبه الحياة لما تفعله فتوقفها.

***

في الصحراء الغربية، كانت درجة الحرارة بحالة زيادة مستمرة، وبحلول الظهيرة نجحت في تخطي الخمسين درجة مئوية، فلم تعد الشجرة المنبثقة وسط العراء كافية لحجب حرارة الأشعة، ولا بريقها المنعكس على الرمال الصفراء الممتدة.

كان روبرت مرتخيًا بظهره على الشجرة وقد اتخذت فيرونا من صدره متكئًا، ولم يكونا تحدثا عن أي شيء منذ فترة، فقط كانا ينعمان بسكينة اللقاء والعناق، وينصتان لتهدج أنفاسهما بخشوع.

شعرت فيرونا أنها تسحب أنفاسًا حارة، وبحبات عرق تنحدر فوق ظهرها، فتلفتت حولهما لتتفقد الأحوال وتقيم مداها، وبلحظات، لمحت عيناها الخدرتان وهجًا ينبعث من بين ذرات الرمال يشبه دخان التبخر.

ـ "الجو يزداد حرارة، ألا ينبغي أن نعود".

تنهد روبرت بقوة، وسألها برجاء فيما يضيق عينيه ليتفادى الضوء الكثيف:

ـ "دعينا نبقى لبعض الوقت، فأنا لا أريد العودة الآن".

اعتدلت ببطء، ووضعت راحتها على وجنته المحمرة من الحرارة، وقالت بصوتٍ مضطرب:

ـ "أنت لا تبدو على سجيتك منذ التقينا، ماذا هناك يا روبرت؟ أحدث شيء ما؟"

التقط يدها الجاثمة على وجهه وقبلها بحنو ثم أجاب:

ـ "سيمون سيسافر لليونان مع ستين ألف رجل، وأنا لا أضمن عودة أيهم، دعينا ننتظر لبعض الوقت حتى يرحلوا، فأنا لا أحب مشاهدة الأشخاص وهم يسيرون لحتفهم!"

أغمضت فيرونا عينيها بأسى، وحين فتحتهما قالت مخففة:

ـ "لن يحدث له شيء، وسيعود بخير وبسرعة، فلا تقلق، أنا لا أحب رؤيتكَ قلقًا".

فرك شعره القصير لينفض عنه الرمال العالقة، وعقب بنهوضه:

ـ "الأمور انقلبت ضدنا بطرفة عين، فكيف لا أقلق؟"

مد يده ليُنهضها، فالتقطتها وهي تهمس بمرح:

ـ "لأنها قد تنقلب لصالحنا مجددًا، هكذا هي الحياة".

مشيا للسيارة وكانت أقدامهما تغرز بالكثبان، وحين بلغاها وقفت فيرونا لجوار المقعد، وخلعت حذائها العسكري لتفرغه من الرمال ثم وضعت الشال الشيفون على الكرسي الذي بات مشتعلًا بسبب سطوع الشمس عليه، ولما جلست لجوار روبرت، تمتم الأخير مغيرًا الموضوع:

- "كيف تسير الأمور بالوحدة خاصتكِ؟"

هزت كتفيها وهي تجيب:

- "لقد سمعت المجندات وهن يتبادلن الأحاديث، وكان من ضمنها أننا سنترك المعسكر بسبب حوادث التحرش، ولكنهن يثرثرن بالهراء دائمًا".

انطلق روبرت بالسيارة في سرعة زائدة، وكان يقول بغيظ:

- "الأمور بالجيش مقززة، ولا تشجع على القتال، أجر الجنود ضئيل والإجازات شبه منعدمة، والتعيين والمعدات سيئان، غير أن الخدمات شاقة، والضغط في أوجه، ولذلك يخرج الجنود في المساء للعربدة بالحانات والمواخير، وللاعتداء على المصريين بغرض السرقة والتحرش، أما هؤلاء المرهقين فيعتدون على النساء بالمعسكر ويكتفون بسرقة المطبخ العسكري".

ابتلعت فيرونا ريقها وهمست بتعجب:

- "العالم الآن ينفق المليارات على القتال، رغم أنه كان يدعي الفقر حين يطالب بمساعدة ضحايا المجاعات والأوبئة والحرب الأولى، نحن نعيش في عالم هزلي ندفع فيه النقود بكل سرور لنقتل بعضنا، ولا ندفع لأجل الازدهار، والصالح العام".

- "إنه صراع الهيمنة يا عزيزتي، وهذا كوكب الأرض وليس المدينة الفاضلة".

لاح المعسكر بالأفق فأضاف روبرت بعدما تفحصه بعينيه:

- "لقد تم ترحيل حملة اليونان، المعسكر يبدو هادئًا".

هزت رأسها مؤكدة، وحين باتا على مقربة من المعسكر، تركت السيارة كي لا يشاهدا سويًا، وتوجهت لعنبر الوحدة الحادية عشر، وهناك فوجئت بالفتيات وهن يجهزن حقائبهن، فتساءلت بفزع:

- "لم تجمعن أغراضكن؟"

أجابت إحدى المجندات دون أن تنظر لها:

- "سنترك المعسكر، وسننتقل إلى أحد الفنادق بالقاهرة بناءً على أوامر القادة، من الجيد أننا سنبتعد عن تلك الصحراء القاحلة، وعن هؤلاء المتحرشين".

جحظت عينا فيرونا وركضت نحو الخارج لتخبر روبرت بأي وسيلة، ولكن الأخير كان واقفًا بمنتصف ساحة التدريب مع أحد الجنود وينظر نحو عنبرها بترقب، لقد علم بالفعل بمستجدات الأمور.

رفع يديه وخفضهما عدة مرات، وكأنه يطلب منها أن تهدأ، ثم هز رأسه ألا بأس، فعادت للعنبر من جديد لتجمع أغراضها.

ستبتعد عنه مجددًا ولكنه على الأقل يعرف تلك المرة مكان وجودها.

***

أرخى المساء سدوله، وحسين لم يلمح كارلا بعينيه منذ أخبرها بحقيقة مشاعره في الصباح، وهذا جعله هلوعًا للغاية، ويظن أن الاعتراف ناكدها، ولذلك كان يجادل نفسه فيما فعل، فما أقدم عليه كفيل بإنهاء علاقته بها كليًا، أو أن يبدأ علاقة من نوعٍ آخر تكون الأفضل بحياته.

أيًا كان ما سيحدث، فهو سيتقبل الأمر لأنه رجل لا يحب أنصاف الأشياء.

ودع العُمال وخرج ليلقي عقب سيجارته بالشارع ونظر لشرفة كارلا الملآنة بِسلال الزهور البهية للمرة الألف، فوجدها مسدودة كما العادة.

زفر بضيق ونظر للمتجر، وتردد في الذهاب لتفقد وجودها به، ثم حسم الأمر بأنه لن يفعل هذه المرة، يجب أن تعطيه إشارة لتقبلها الأمر، وإلا فسيتفهم أنها لا تبادله الشعور.

هم بإغلاق المطعم، ولكنه سمع شرفتها تُفتح بذات الصرير المحبب له، جالبةً معها الضوء والأمل، فأحجم عن الغلق والتفت صوبها.

علق عينيه عليها فوجدها تخرج بمنامة حريرية بيضاء، وعكفت على سقي الأصيص تلو الأصيص ببطءٍ متناهٍ، وكانت ترمقه بخجل كل حين.

لوح لها بيديه بينما يبتسم ببهجة تجلت عقب رؤيتها، رغم أنه قرر ألا يبادرها بشيء، فلوحت بدورها فيما تسقي نبتة الورود، وحين وجدت الشارع خاليًا من المارة، قطفت زهرة حمراء وألقتها نحوه كإجابة على اعترافه الصباحي.

كانت تلك المقذوفة الملتفة البتلات تعادل في قوة سقوطها عليه ما يقارب صاروخًا من البارود، ولكنها لم تفتك بجسده كاملًا كما القصف بل نسفت قلبه فقط، وسلبته خلده بغمضة عين، وتركته واقفًا كما التماثيل ينظر للوردة وهو لا يكاد يصدق أن هذا حدث.

"افعل شيئًا أيها الأبله!"

انحنى ليلتقطها بعد حين، وقربها من أنفه، وكانت رائحة يد كارلا تفوح منها وتطغى على أريج الزهرة العابق، فابتسم ملئ فمه، وحملق بها وقد رفع رأسه للأعلى.

ارتفع نداء ماركو، فلوحت له مودعة وابتسمت بحياء وغبطة، قبل أن تعود للداخل، فلوح لها رغم أنها دخلت، والتفت ليغلق المطعم بنشوة جارفة كالسيل.

تلك الليلة، تجول بالطرقات وهو لا يلوي على شيء، فقط كان يشم رائحتها التي طبعت على الوردة، ولم يكن مباليًا بأي أمر آخر، حتى صوت صافرة الغارة الذي عاد يدوي كل حين.

***

ألقت كتابها الخاص بمادة الامتحان الأول، ونهضت كالممسوسة لتسير في الغرفة الجامعية، وكان طعام العشاء الواصل منذ قليل ما زال يصدر البخار والرائحة الشهية، ولكنها لا تستسيغ أي شيء منذ تركت سالم بالصباح.

علها لن تراه من جديد، وقد يكون اقتنع فعلًا بما قالته وعاد لرشده.

تهاوت فوق الفراش وأمسكت رأسها قبل أن ينفجر، وبقيت تُصدر أنينًا مكتومًا، إنها لا تريد سوى السعادة، ولا تكترث بالثروة التي يريد والدها أن يحميها لأجلها.

كان الأجدر به أن يبحث عمن يحميها هي، وسالم يجيد هذا، ولكن سالم ووالدها كما وجهين لعملة واحدة. إنهما قريبان، ولكن من المستحيل أن يشاهدا بعضهما البعض، فإن علم والدها بما يدور بينها وبين سالم فمن المحتمل أن يرسلها لتركيا على متن أول سفينة، وإن لم يعلم فسيرسلها للهاوية بتزويجها لعاصم، وفي الحالتين سيكون هلاكها، وتلك هي المعضلة التي تواجهها.

نظرت للساعة ووجدت عقاربها تشير لكونها تمام الثامنة، فنهضت للشرفة بخطى متعثرة سببتها الدموع الجارية من عينيها، وبقيت تنظر للسماء في توسل.

إنها لا تطلب سوى معجزةٍ صغيرة تمكنها من العيش مع الرجلين دون أن يغضب أحدهما ويُجرح، ولا تريد شيء آخر بعد ذلك.

بعد دقائق من التجمد، ألمتها ساقيها بسبب الوقوف، فجلست فوق مقعد الشرفة ببطء العجائز، وكان ظهرها منحنيًا لكثرة همومها، وعيناها معلقتان على حجر الفستان، حيثما تتساقط الدموع، ووسط همها وحزنها سمعت صوتًا تألفه، صوت النغمة التي يصدرها سالم بنفير القطار.

تلفتت بالأنحاء لترى من أين ينبع الصوت المتكرر، ولكنها فشلت في رؤيته، وبقيت فقط تسمع صوت النغمة المحببة لها وهي تتكرر.

لقد أخبرها أنه سيكون لجوراها دومًا، ولكنه لم يقل إنها ستراه بكل مرة، ولذلك جلست تستمع لنفيره الشبيه بشفرة مورس وهو يدوي تنازليًا مع ابتعاده عن المكان، فيما تبتسم ببعض التفاؤل.

يبدو أنه لم يبال بكل ما قالته، وسيحاول ألا يفترقا.

***

في صباح السادس من أبريل، بدأت عملية ماريتا.

فوجئ جيش اليونان وجنود التحالف لدى وصولهم للجبهة على الحدود اليوغوسلافية ـ اليونانية بعشرين فرقة ألمانية يقومون بالهجوم عليهم من ناحية يوغوسلافيا وبلغاريا اللتين تم اجتياحهما في ظرف الساعات القليلة المنصرمة، وبذلك فتح الألمان جبهة جديدة ليضعفوا جنود اليونان أكثر، وفشل الأخيرون بالفعل في أن ينظموا حتى صفوفهم، فاستسلموا على الفور، ولم يمض وقتًا طويلًا حتى تقدم جيش الفيرماخت وحاصر الجنود الرابضين عند الحدود الألبانية ـ اليونانية.

ظلت طائرات ستوكا تحلق فوقهم وتمطرهم بالمتفجرات بلا هوادة، وكانت المدافع الثقيلة تطاردهم من خلف الحدود، فيما الرصاص الطائش يطير حولهم كالذباب، ورأوا أنه لا يوجد ملاذ من شبح الموت المخيم عليهم سوى الجبال والأحراش القريبة، أو الاستسلام المهين.

***

كان سيمون يشق طريقه بين الجثث، والأشلاء، والحشود فيما يضع يديه على خوذته قاصدًا الجبال المخضوضرة، ولما بلغها بعد مثابرةٍ عناد، كانت تملؤه بعض الخدوش السطحية من أثر الشظايا.

استند لصخرة كبيرة، وطفق ينظر لميدان القتال المتأجج بالنيران، وللطائرات الخاصة بالحلفاء التي استهدفت بالهجوم، وللجنود الذين يتقدمون نحو الأحراش وقد كستهم الدماء، وللآخرين الذين جثوا على أقدامهم أمام الخندق القريب من الحدود طالبين الرحمة من النازيين والفاشيين، كيلا يدفنوهم به.

فتش جيوبه في غضب وحماس بحثًا عن سلاح يُمكنه من القتال، فلم يجد معه سوى سكين صغير، وحينها أقر سيمون بالهزيمة التي حذره منها روبرت، ولكنه وجد غاية أخرى يقاتل لأجلها بالوقت الحاضر.

يجب أن يفر بحياته ليحاول الوصول لأهله من جديد.

"فكر يا سيمون، فكر!"

نظر للأشجار القريبة ولكنه يعلم أن الألمان سيمشطونها بحرص، أو سيشعلونها ليقتلوا من فيها دون تعب، فرجح أن يختبئ داخل الجبال المكسوة بالعشب، وحين هم بالبحث عن شق مناسب، أو هوة خفية، لمح بعينيه رجلًا ممددًا على الأرض.

لم يكن قادرًا على التحرك بسبب شظية اخترقت ساقه، فركض نحوه ليساعده دون تفكير رغم أن التوجيهات تنص أن يتكفل كل جندي بحياته، وحين بلغه همس وهو ينحني ليرفعه:

- "تجلد أيها الرفيق، سنختبئ بالجبال ولن يجدونا".

سحب المجند نفسًا عميقًا ونظر له بعينين غائرتين وهو يحذره:

- "دعني ولا تقتل نفسك لجواري، اهرب!"

لم يبال سيمون بما قاله وأخذ يتحرك به فوق الوحل الزلق، وبين الأشجار المتشابكة، وحين سمع هدير الطائرات يرتفع، مشط المكان بتوتر، ولكن دون جدوى.

أشار الجندي اليوناني لفجوة يألفها، كانت تقع بجانب الجبل وتسدها الحجارة، بالكاد كانت تُرى وسط ضخامة الجبال، ولكنه عليم بالموقع بعد بقاءه هنا شهورًا.

ـ "هناك، هناك".

تحرك سيمون صوبها بإسراع وهو يجر الجندي، وحين بلغاها أسنده لسفح الجبل وحاول بكل جهده أن يحرك الصخرة الضخمة حتى يحشرا جسديهما ويدخلان، وفيما هو يحاول، تعالت الأصوات الألمانية حولهما، الفيرماخت بدأ يمشط المكان.

جاهد المجند في دفع الصخرة بيديه فيما يستند للجبل.

ـ "إنهم يقتربون، ادفع بقوة".

كادت عروقهما تتفجر وهما يحاولان تحريك تلك الصخرة التي تزن ربع طن، وبصعوبةٍ شديدة، أزاحاها قليلًا، فقال سيمون وهو يتلفت بتحفز:

ـ "أسرع بالدخول، هيا ازحف".

زحف الرجل بكل قوته حتى دخل، وحين هم سيمون بالدخول خلفه، فوجئ بيد تقبض على كتفه، وصوتًا ألمانيا ينبعث من خلفه.

ـ "هل أنت ذاهب لمكان ما؟!"

التفت بحذر وهو يظهر يديه فوجد أمامه جنديين ألمانيين، كان الأول أمامه مباشرة، والثاني على وشك إبلاغ الآخرين، فلم يملك سوى أن يشتبك معهما.

باغت الأقرب بلكمةٍ سريعة، فهم الآخر برفع سلاحه ليطلق النار، ولكن سيمون توارى خلف جسد الجندي الذي ترنح من شدة اللكمة، ودفعه بقوة على الآخر ليتلقى الرصاصات المنفلتة ويوقعه أرضًا.

استغل انشغال الجندي بالجثمان الملقى فوقه فأخرج السكين من جرابه، وقفز على كلاهما وظل يطعن ويطعن دون توقف، كما لو أنه ماكينة تعمل دون وعي، وحين انتبه لما يفعله، توقف مدهوشًا ونظر للخلف في اضطراب.

لمح الجندي اليوناني يشير له بالقدوم بأقصى سرعة، ولكن كان يتعين عليه إخفاء الجثتين أولًا كي لا يتجمع الآخرون حولهما.

سحبهما تباعًا وأدخلهما للفجوة، وراح يلقي بعض الحجارة والفروع للداخل، ثم دلف بصدر يعلو ويهبط، وعكف على سد المنفذ، ولم يكن معتمدًا على شيء سوى الحظ، فكل ما يفعله ليس سوى حرص بسيط، وقد يُكشف على إثر تمشيطٍ قاسٍ، ومنتبه.

لما انتهى استند لجانب الفجوة، ودام ينظر للجثتين المحدقتين بالفراغ قبل أن يحرك عينيه ويطالع يده التي قتلتهما بكل سهولة، كان هذا هو اشتباكه التلاحمي الأول، ولكنه يشعر أن شغف القتل بات يجري بعروقه.

تحدث الجندي الآخر مهونًا:

ـ "كانا سيقتلانك دون تردد، لقد فعلت ما يجب فعله".

ابتلع سيمون ريقه وغمغم:

ـ "ربما كانا مواطنين عاديين، ولديهما عائلة مثلي، قد يكونا أجبرا على القتال كما فعلت أنا، إنهما يتبعان الأوامر مثلنا!"

قال المجند بنبرةٍ متوددة فيما يمزق ساق بنطاله ليتفقد الجرح النازف:

ـ "آه، فيم كنت تعمل قبل الحرب؟"

ـ "كنت مزارعًا ثم طالب جامعي".

ـ "أنا أتفهم، فأنا أيضًا كنت مزارع، بم يدعونك أيها الرفيق؟"

نسي سيمون وجود الجثتين لبرهة وانشغل بالجرح المفتوح أمامه، فبدأ يساعد الرجل في نزع الشظية وهو يعلن:

ـ "سيمون غوستاف، لقد قدمت مع حملة اليونان، ولكن يبدو أننا قدمنا متأخرين، سأعد حتى ثلاثة وسأنزع الشظية، واحد..."

لم يكمل العد ونزعها بغتة فكتم المجند فمه، وبقي يكز على أسنانه بسبب الألم حتى كاد يهشمها، وحين تمالك نفسه قليلًا، فتح فمه وطفق يتنفس بقوة محاولًا أن يعدل أنفاسه.

كان متعرقًا للغاية، وأجفانه ترتخيان، ولكنه قال بخمول وصوت لاهث:

ـ "شكرًا لمساعدتك، اسمي توماس أليخاندرو، أنا..."

لم يكمل الجملة قبل أن يغشى عليه، فبدأ سيمون يستغل فقدانه الوعي ليسد الجرح.

لم يكن هنالك علبة إسعافات ولا مخدر، لا شيء إطلاقًا سوى جرح مفتوح يجب أن يسد بأي شكل من الأشكال قبل أن يلتقط عدوى، أو يصفي كافة الدماء من الجسد.

فتش سيمون جيوب الجثتين، حتى عثر على قداحة، وبعض الرصاصات، وبإسراع يصاحبه توتر، أفرغ البارود ثم أشعله وراح يسخن السكين خاصته.

احمر السكين بعد دقائق، فمد يده نحو فم توماس وكتمه، وسرعان ما بدأ يكوي مكان الإصابة.

فتح توماس عينيه عندما لامست السكين جرحه، وبقي يرتعش ويئن بوجع، كانت صدمته تتضخم كل ثانية وهو يبصر ساقه يُكوى أمام عينيه حتى بلغت أوجها وغاب عن الوعي من جديد.

تحسس سيمون نبضه، ولما وجده مرتفعًا، تنفس الصعداء، سيفيق قريبًا ولكنه لن يسير بشكل جيد بعد الآن، فالشظية التي اخترقت ساقه، مزقت اللحم وبعض الأعصاب، ونفدت لنسيجه العضلي.

سكن نفسه المشفقة، بأن العرج أفضل من الموت ثم شرع يريح ظهره لجانب الفجوة، ومن الحين للآخر، كان يطالع الجثتين بعينين نادمتين، وكأنه يطلب منهما الصفح.

لا أحد يعرف ماذا كانا يصنعان قبل الحرب، ربما هما مزارعان، أو صاحبا حوانيت، ومن المحتمل أنهما كانا طالبين مثله، أو أبوين لأطفال صغار.

بقي يقظًا رغم إنهاكه، ومتماسكًا رغم خوفه، حتى هبط الليل، وهدأت الأصوات فقرر عندئذ أن يرتاح لساعتين، وآخر ما فكر فيه قبل نومه، هو ما يحدث بمصر الآن.

ترى كيف تسير الأمور؟

***

حوصرت طبرق، وتم أسر اثنين من الجنرالات الإنجليز.

عندئذ تيقن الكل أن روميل سيتقدم أكثر نحو مصر، ذلك لأن الستين ألف الذين غادروا لليونان، كانت مهمتهم الأولى هي حماية الحدود المصرية ـ الليبية، وذلك أثار غضب وخوف الشعب لدرجةٍ كبيرة، وبدا له أن الأمر متعلق بالأهميات السياسية والجغرافية، وليس بالحريات الدولية.

توترت العلاقات بين مصر وبريطانيا، وجاءت الأخبار عبر إذاعة لندن لتزيد الطين بلة، فلقد علم كلٌ من الجنود والعامة، أن الجيش اليوناني سقط على الجبهتين.

***

كان روبرت يفكر بتطورات الأمور بينما يذرع أرضية المعسكر، وكان خوفه على سيمون قد بلغ أوجه، فالأخبار تصرح أن الخسائر فادحة، سواء في المعدات أو الأرواح، وتؤكد أن الناجين تفرقوا والأغلبية تم أسرها، وكل هذا يدفعه لكي يُحبط، وغياب فيرونا عن المعسكر يزيد إحباطه أضعاف.

انتبه على صوت طومسون وهو يهتف من بعيد:

- "ملازم أول روبرت، أهذا أنت؟ اخرج من الظلام لأراك".

تقدم روبرت منه وحين بلغه قال وهو يؤدي التحية بتكاسل:

- "نعم يا سيدي، لقد شعرت بالأرق فخرجت من الغرفة".

كانت أضواء كشافات الحراسة تتحرك حولهما في دوائر كبيرة، وتصل لمكانهما كل حين بضوئها الكثيف، فأشار القائد لحراس الأبراج لكي يثبتوها، ووقف يطالع روبرت للحظات قبل أن يهمهم بسيره:

- "الأرق رفيقنا الدائم، وخصوصًا بظروف كتلك، الألمان استغلوا الثغرة جيدًا، ولكن لا بأس فنحن سنوقفهم، الاستراليون يحصنون طبرق وهذا سيشغل الألمان لبعض الوقت حتى تصل المعدات".

كرر روبرت وهو يلتفت له:

- "حتى تصل المعدات!"

هز القائد رأسه وهو يؤكد بحماس:

- "تمامًا، هناك معدات متطورة ستصل لنا من لندن".

صمت روبرت لثوانٍ ثم تساءل:

- "متى يا سيدي؟"

- "هذا سري من الدرجة الرابعة أيها الرقيب".

أومأ روبرت برأسه متفهمًا وظل يسير مع طومسون وقد عقد يديه خلف ظهره، فأضاف الأخير موضحًا قبل أن يرحل:

- "الجهل نعمة يا بني، فلقد أسر حتى الآن آلاف الأشخاص واتهموا بأنهم ينتمون للطابور الخامس، والأفضل أن نمسك ألسنتنا، طابت ليلتك".

كان يُقصد بالطابور الخامس، الجواسيس العاملين لحساب ألمانيا، وعلى الفور عاد روبرت يتذكر فيرونا وهو يهز رأسه ليودع طومسون، ثم نظر نحو عنبرها القديم بسيره، ووقف أمامه شاردًا.

كم يشتاق لوجودها قربه بتلك اللحظات لتنسيه الفجائع المتتابعة، ولكنه لن يراها قبل الصباح، وكذلك لن يستطيع المبيت بالغرفة، وإلا سيظل يفكر بأمر سيمون كلما رأى فراشه الخاوي.

أشعل سيجارته ونظر للسماء بنفاد صبر وكأنه يطلب رحيل الليل بسرعة، وظل يفكر بما قد يحدث لفيرونا إن علم البريطانيين بحقيقة هويتها وظنوها جاسوسة، أو إن هجم الألمان المعسكرات بأي لحظة واعتبروها بريطانية، وبحلول الصباح كان قد قرر وعزم على التنفيذ.

يجب أن تهرب فيرونا بعيدًا عن الفريقين، لا بد أن يفاتحها في الأمر بأسرع وقتٍ ممكن.

***

إنها ليلة الامتحان.

ها قد جاءت بعد مرور أيام قلائل، ولكنها مضت في سرعتها كالسنوات بسبب الوحدة التي تواجهها أميرة لجانب الضغوطات، والوساوس. إنها تحيا بالسكن الجامعي كما المنفيين، بلا عائلة، وبلا حبيب.

والدها لم يحدثها أو يراسلها، وعيناها لم ترزق برؤية سالم منذ تركته على البوابة الخارجية للجامعة، وقلبها يقتات على صوت نفيره وحسب، كما لو أن النفير أمسى يشكل أبجدية بينهما، كما نواقيس الكنائس، الوتيرة السريعة تعبر عن البهجة، والبطيئة تجسد الحُزن.

نهضت لتسير بالأنحاء بعدما وضعت الكُتب جانبًا، وبقيت تعض شفتها السفلية، أيكون حديثها أغضبه لدرجة أنه لا يريد رؤيتها بتلك الآونة حتى يهدأ؟

هذا محتمل فحديثها كان متشائمًا للغاية، ولكنه رغم هذا حقيقة حتمية، فما ذنبها إن كان الواقع نفسه شنيع، وليس وردي وسهل كالأفلام.

ربما الحل يتلخص في اعتذارها عن صراحتها التي انسابت من شفتيها، فلقد غالبها الشوق ولم تعد تستطيع الابتعاد أكثر، كما أنه لا توجد فائدة في تضييع الوقت بالفراق، وخصوصًا إن كان قصير المدة.

ولكن كيف ستطلب صفحه وهي لا تراه؟

زفرت بضيق بينما تعقد حاجبيها، وفيما هي تتحرك كغزالة مصابة فوق السجاد المستورد، تعالت الطرقات على باب حجرتها، فتوجهت لتجيب.

وجدت إحدى العاملات بالسكن تقف أمامها بتراخٍ، وتلك الأخيرة نبهتها بعينين ناعستين:

ـ "المنزل يطلبك على هاتف الخدمة في البناية الأخرى".

لم تعقب بكلمة، وأطلقت ساقيها للريح قاطعة الدرج ومدخل السكن، وحشائش الحديقة، ولم تتوقف إلا أمام البناية المقابلة.

هناك دخلت لمكتب الخدمة والشكاوى، ولم يكن به سوى موظفة واحدة تغزل بإبر التريكو، فنهضت بتهذيب لتترك لها حرية التحدث بعدما تأكدت من هويتها، وجلست على أحد المقاعد بالردهة لتكمل صنع الكنزة الشتوية.

التقطت أميرة السماعة بسرعة، وقالت بصوت متهدج مستخدمة التركية:

ـ "مرحبًا يا أبي".

جاء الصوت على الطرف الآخر يقول بالعربية:

ـ "مرحبًا يا أميرة".

شهقت للمفاجأة فما سمعته كان صوت سالم، وغمغمت وهي تتهاوى على المقعد القريب:

ـ "سالم! أهذا أنت؟ ولكن كيف؟"

صمت للحظات ثم قال بهدوء وهو يحاول إضحاكها:

- "الأمور مضطربة في المحطة منذ أيام، ولم أتمكن من التواصل معكِ، لذا جلبت الرقم من بواب الجامعة لقاء ربع جنيه".

وصمت لوهلةٍ ثم قال بصوتٍ مبحوح:

- "لقد اشتقت لكِ كثيرًا، هل أنت بخير؟"

احمرت وجنتاها الشاحبتان، وتسارع نبضها مجددًا رغم أنها لم تركض، وهمست بصوتٍ خجل فيما شفتاها تتمددان بعرض وجهها:

- "لقد أصبحت كذلك حين سمعت صوتك، فلقد افتقدته كثيرًا، لقد تحدثت معك المرة الأخيرة بطريقة فظة، فاغفر لي هذا الخطأ".

تنهد بعمق قبل أن يعقب بصوتٍ هادئ:

- "لا تعتذري مجددًا، فأنا لا أغضب منكِ لوقتٍ طويل، حُبكِ لي عادةً يشفع لكِ، سمعت أن الامتحانات غدًا، أهذا صحيح؟"

هزت رأسها بطريقة عفوية رغم أنه لن يراها، وأكدت:

- "نعم، هذا صحيح".

- "ستبلين جيدًا، أنا واثق من هذا".

- "أتمنى، ولكن أخبرني من أين تتحدث؟"

- "من هاتف المحطة العمومي في بورسعيد، اللاجئين اليونان يفدون بأعداد كبيرة والإنجليز يكثفون الجهود لنقلهم عبر المدن".

ضحكت أميرة وهي تعقب:

- "أبت تعمل مع الإنجليز يا سالم؟"

ضحك تباعًا ثم فسر بنبرةٍ جادة يشوبها حزنٍ طفيف:

- "حالتهم أجبرتني على الموافقة، إنهم لم يأكلوا منذ أيام، ولم يناموا، والبعض مصاب أيضًا، إنهم ضحايا جُدد وأقل ما أستطيع تقديمه هو أن أوصلهم لوجهتهم".

شعرت بحزنه المتجسد على وجهه رغم أنها لا تراه، فصدحت بصوتٍ حانٍ:

- "أنت تفعل الصواب يا حبيبي، وطيبة قلبكَ هي التي تميزك وتجعلني أحبك".

صمت للحظات وأخذ يبتسم وينظر للمسافرين حوله ثم قال بنبرةٍ مبتهجة:

ـ "سأحاول أن ألقاكِ بأقرب وقت، وحتى وقتها تفوقي بكل الاختبارات".

ـ "سأفعل لأجلكَ".

كان المفترض أن ينتهي الحوار هنا ولكن لم يغلق أيهما المكالمة، وظلا صامتين لدقيقة ويزيد حتى همس سالم في محاولة لفتح موضوع:

ـ "أنت لم تحدثيني عن تركيا أبدًا!"

ابتسمت بقولها المنساق:

ـ "أنا لم أرها بحياتي، ولا أعرف عنها سوى ما قرأته، أو ما ينقله والدي لي، لقد ولدت هنا ونشأت هنا، أنا مصرية مئة في المئة".

ـ "لا شك أنكِ قضيتِ طفولة جيدة".

ـ "لا أتذكر طفولتي جيدًا، ولكن هناك بعض الذكريات المهمة التي لا تُنسى، كيوم سقوطي من فوق الأرجوحة، لقد خاط الطبيب الجرح وما زال مكانه باديًا بذراعي".

دام الصمت لوهلة حتى أعلن سالم:

ـ "أنا أيضًا لدي نُدبة، ولكنها بركبتي، لقد حصلت عليها بحادث دراجةٍ قُمت بتأجيرها، كنت أسابق حسين ونحن أطفال وكان الرابح يشتري لكلينا السكاكر، كانت من هذا النوع الدائري، والأحمر، هل تعرفينها؟!"

ـ "نعم، نعم، أظنني أعرفها".

بدأت تجلس بارتياح أكثر وأسندت ذراعها للمكتب، وقررت أنها ستتبع أسلوبه، وستتحدث عن أي شيء من باب الثرثرة، لتهدئ ثورة الشوق داخلها، حتى يُكتب لهما لقاء.

***

إنها أوقاتٌ عصيبة، وكارلا تواجهها بكل الصبر الممكن، وجميع الأمل المتاح، فمنذ سقوط الجيش اليوناني وهي لا تنفك تذهب للميناء كل يوم لتترقب قدوم عائلتها وسط اللاجئين الكُثر، ولكنها تعود كل مرة صفر اليدين.

لقد مرت ليلة أخرى وهي تنتظرهم، وجاء وقتُ الغسق الصباحي، وكانت تراقبه بعينين ساهمتين بعدما اتخذت مجلسًا فوق صندوق خشبي ضخم الحجم، يقع قرب الرصيف لجانب مجموعة من الأحبال الغليظة.

نظرت بعينيها للبحر المتوسط في استياء، ولوم، فلولا كِبر حجمه لتمكنت من رؤية موطنها الواقع على الجانب الآخر، ولكان فؤادها اطمئن على عائلتها.

إنها سجينة التضاريس، وهي لم تعد تحتمل.

نظرت بالأرجاء ورأت مركبًا يعود لأحد الصيادين، فنهضت نحوه بخطوات الإنسان الآلي، وبدأت تفك الحبال التي تقيده بحوض الميناء دون وعي، ثم جلست به، وبدأت تُجدف مبتعدة، ولم يكن عقلها يفكر بتلك اللحظات بأي شيء سوى الوصول لجزيرة كريت.

كانت كارلا نفسها لا تشعر بما تفعله، وكانت عيناها ناظرتان نحو الأفق وكأنهما تبصران بيتها الواقع على منحدر الجزيرة فيما قلبها يتمزق إربًا بسبب القلق.

وصل حسين بالوقت ذاته للميناء بعدما حدثه ماركو لبعض الوقت وأخبره بما يجري لها، فرآها وهي كذلك.

بدأ يركض لرصيف الميناء وهو يصيح بها:

- "كارلا، كارلا، توقفي، ماذا تصنعين؟"

لم تجبه لأنها لم تسمع شيء، فنظر حسين بالأنحاء لوهلة بحثًا عن مركب، وحين لم يجد قرر القفز للبحر والسباحة حتى يبلغها قبل أن تبتعد أكثر، وعلى الفور بدأ يغطس في الماء بخفة، وظل يسبح بكل سرعته وهو يصيح بها ولكنها لم تنتبه لوجوده إلا حينما أمسكها من يدها لدى بلوغه المركب.

نظرت نحوه وهي تشهق ثم بقيت تنظر لمكانها وقد اعترتها الدهشة، فصعد حسين ليجلس بالقارب، وهمس مطمئنًا وهو يميل عليها:

- "لا بأس، أنت بخير".

كانت قد تفهمت ما يجري بعدما لاحظت يديها الممسكتين بالمجدافين، فغمغمت بينما عيناها تترقرقان بالدموع:

- "أنا لست كذلك، أنا أجن يا حسين، أنا...أنا لا أريد شيء سوى رؤيتهم".

نظر لوجهها المكتئب، وربت على يدها فيما قميصه يقطر، وقال مخففًا:

- "قد يأتون اليوم أو الغد، ولا يجب أن يشاهدونكِ وأنت عابسة، ثقي أن الله يختار لنا الأفضل حتى وإن لم يبدو لنا كذلك، توقفي عن البكاء الآن".

لم تتوقف وزادت حدة النواح وهي ترتمي على صدره بحثًا عن الاحتواء، وبقيت تنشج بقولها:

- "كنا سعداء قبل الحرب، وكان لدينا كل شيء، كنا نحيا بجنة عدن سويًا، ولكنهم حولوها لجحيم، وفرقوا شملنا، بئسًا لهم وللحرب".

ربت حسين على ظهرها فيما يدفع ريقه لحلقه الجاف، وهمس بحنو:

- "الحرب شنيعة بلا شك، ولكنها جعلتني أراكِ، وأنا أعلم أنكِ تشتاقين لأسرتك، ولذلك سأحاول أن أتحرى عنهم بكل الطرق الممكنة".

رفعت عينيها لتنظر نحوه شاكرة، ثم عادت تريح وجهها فوق قميصه المبلل، وبقيت كذلك لوقتٍ طويل، لقائها به لفتةٌ جميلة من القدر، ولكن فراقها عن عائلتها طعنة مؤلمة، تجعلها لا تستمع بجمال المنحة كثيرًا.

****

العملية تايجر كانت خطيرة وتكاد تميل للجنون، ذلك لأنها اعتمدت على الحظ كركيزة أساسية في التخطيط، فالخمسة سفن المحملين بالعتاد والذين غادروا لندن، كان يتحتم عليهم المرور أمام أعين المحور، لأنهم سيصلون لمصر عبر مضيق جبل طارق، ولكنها كانت الطريقة الوحيدة لتجنب التأخير.

في الثاني عشر من مايو، وصلت أربعة سفن بنجاح، وغرقت الخامسة بسبب لغم قرب مالطة، ولكن لم يتم تسليم الدبابات والطائرات للجنود، فلقد خضعت لعمليات تمويه، وتجهيز لتلائم البيئة الإفريقية، فتمكن الألمان بكل اليسر من التمركز بالسلوم في غضون الثلاثة أيام التالية، وحين وصلت المعدات للثكنات العسكرية في التاسع من الشهر التالي، قرر البريطانيون الهجوم تحت عملية سميت باتيليكس، ولكنها لم تحقق أي نتائج تذكر، فلقد دمرت أغلبية الدبابات، والطائرات الجديدة، بواسطة الألمان.

****

بمنتصف الشهر، وبساعة صباح حارة وخانقة، كان روبرت يركض في الفِناء المزدحم وقد كساه العرق، واستبد به الإعياء، ولم يكن يرغب بالتوقف.

إنه يشعر بالغضب والخوف، فموضوع تهريب فيرونا لم يفلح بعد، وما يوقفه هو خوفه من رد فعلها، وخصوصًا حين تعلم أنها ستهرب وحيدة وإنه سيبقى هنا.

لمحها تقترب بالسيارة الدودج، فبدأ يركض نحوها لتلاحظه، وبسط أمامها إصبعًا واحدًا ليخبرها بضرورة اللقاء بعد ساعة، فهزت كتفيها باستسلام بينما تهز رأسها يمينًا ويسارًا وقادت لمرآب المركبات، فتفهم أنها عادت لتصليح عطلًا ما بالسيارة، وستعود من جديد لالتقاط المصابين.

لعن الحظ العاثر، فلقد مرت أيام وهما مشغولان في خضم الأحداث، ولا يملكان وقتًا للقاء، وبينما هو يتمتم باستياء، سمع صوت نفير التجمع الخاص بسلاح الطيران.

توقف عن الركض وبدا عليه الضجر، لا بد أنها عملية استطلاع أخرى.

***

تم إجلاء سيمون، وتوماس مع بقية الجنود الناجين، إلى جزيرة كريت، وهناك انضموا للحامية اليونانية ليشكلوا خط الدفاع الأخير، ورأت القيادة أنه لو وصلت المعدات والمؤن للجنود فستبقى الجزيرة كمركز مقاومة يصعب اختراقه، ولكن كُلٍ قوافل نقل الإمدادات تم إغراقها من قبل الفيرماخت قبل أن تدركهم، فعاشوا حالة من الجوع والضعف، إلى جانب الضغط النفسي الذي تحدثه غارات المحور كل حين، لدرجة أن أغلبية الجنود رفضوا النوم بالخيم المصطفة بطول المعسكر، وفضلوا الاضجاع قرب سفوح الجبال كي لا يُروا من قبل الطائرات.

بتلك الليلة، كان سيمون جالسًا أمام خيمته يرسم أشكالًا سريالية على التربة بواسطة إصبعه، وقد بدا عليه اليأس والجنون، إنه ينتظر الغارة القادمة لكي تقتله وتخلصه من هذا البؤس.

علا صوت الطائرات تزامنًا مع أمنيته، فرفع وجهه للأفق حتى يستدرك، وحين تيقن أنها الغارة المنشودة، انتصب واقفًا رغم تعبه وجروحه ليستعد للقصف، ولبث يطالع بعينيه الغائرتين الجنود الذين يهرولون من خيامهم مبتعدين عن مجال الضرب، ولكن لم يحدث شيء، ولم يُسقط الألمان ولو قذيفة واحدة.

إنها غارة تزيد الضغط النفسي، ولا تقتل.

بدأ الجنود يتراجعون للخيام مرة أخرى، وكان توماس يسير معهم في استياء وهو يجر ساقه المصابة، فتوقف لدى رؤيته سيمون، وسريعًا عدل مساره ليتجه نحوه، وبادره:

- "سيمون، أأنت بخير أيها الرفيق؟"

أجاب وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما:

- "أنا أصاب بالجنون هنا".

تقدم توماس بحذر، وهمس له:

- "كان المفترض أن يتم إجلاؤنا ودعمنا ولكن لم يحدث أي من ذلك، لذا سأهرب الليلة من المعسكر، ويمكنك القدوم معي إن شئت".

نظر له دون تصديق، وتساءل في حرص وهو يتلفت:

- "إلى أين ستتجه؟"

جلس توماس أمام الخيمة وأجاب وهو يرسم الخطة فوق الرسوم السريالية:

- "إلى خانيا، سنسلك طريق الغابات حتى المنحدر، ثم سندور حول الجزيرة لنبلغها، والداي يعيشان هناك، سنلتقطهم وسنهرب جميعًا للإسكندرية، أأنت معي؟"

صمت سيمون مليًا وكان يفكر بكل ما يدور، وحين عقد العزم، اكتفى بهز رأسه، فأضاف توماس بينما يجذب حبل الخيمة لينهض:

- "سأمر عليك بحلول منتصف الليل، فلا تنم بعمق".

ابتسم سيمون نصف ابتسامة ساخرة فهو لم ينم منذ أيام، ودام جالسًا كما هو لا يتحرك رغم الغارات التي تحدث كل ساعة.

شيئًا ما فيه ليس راضيًا عن أفعاله، قد يكون ضميره الذي يؤنبه ويذكره بالواجب، وقد يكون عقله الذي ينذره أن الموت في ميدان القتال فخر للإنسان، وربما يكون فؤاده الذي يلومه لتركه عائلته وحبيبته لأجل هذا الجحيم.

إنه يعاني من آلام حربين، إحداهما تدور حوله، والأخرى تجري داخله، وفي كلتيهما ليس لديه سلاح ليقاتل.

***

في غرفةٍ مرتبة تقع داخل فندق ثلاث نجوم، اتخذت فيرونا مجلسًا أمام المرآة، وشرعت تنفذ مهمتها في إسراع وتوتر.

اليوم إجازة أسبوعية ولديها موعد مع روبرت، لذا ينبغي عليها أن تصفف خصلاتها الشقراء، وأن تضع أحمر الشفاه، وطلاء الأظافر، وكُحل الرموش، وأن ترتدي فستانها اللامع سريعًا كي لا تضيع الليلة، فهما بالكاد يلتقيان منذ الاحتلال.

نهضت بخفة حين انتهت، ومشت صوب الخزانة الخشبية بتغنج لترتدي حذائها ذا الكعب العالي، ولم تكد ترتديه حتى سمعت دوي الهاتف.

التقطت السماعة وقالت بسعادة:

- "مرحبًا".

جاء صوت موظف الاستقبال يصرح بنبرة خالية من المشاعر:

- "أحدهم يسأل عنكِ يا آنستي، إنه من الجيش".

- "سأهبط على وجه السرعة".

وضعت السماعة وانطلقت نحو الرواق، وحين باتت بأعلى الدرج المُطل على الردهة، عادت تسير بهدوء. كان بهو الفندق مكتظًا بالأفراد والجنسيات، وكانوا جميعًا يستمعون لسيدةٍ حسناء تعزف البيانو، فتطلب الأمر بعض اللحظات لترى روبرت.

وجدته واقفًا لجوار أصيص نبات صناعي، يدخن في ضجر بينما ينظر بعينيه للحشود المتجمعة، فسارت نحوه بخطى واسعة، وهمست مبادرة بينما تقبل وجنته:

- "أتمنى أنني لم أجعلك تنتظر طويلًا".

ابتسم مبتهجًا فيما يمد لها ذراعه وقال:

- "أنا أنتظر رؤيتكِ منذ أيام".

تأبطت ذراعه، وفسرت بينما تخرج معه لشوارع القاهرة:

ـ "الأمر ليس بيدي، فأنت على دراية بمستجدات الأمور. أنا أتمنى رؤيتكَ كل لحظة، فبمجرد انتهاء لقائنا يتضخم شوقي لك، ولكنني غارقة حتى رأسي في التقاط المصابين وتطبيبهم، الحرب تزداد وحشية مع الوقت يا روبرت".

توقف روبرت عن السير ورأى أنها اللحظة المناسبة ليقول ما يريده، فعقب وهو يلقي بسيجارته نحو أسفلت الطريق:

ـ "لذلك يجب أن تغادري مصر".

ضيقت عينيها وهي تقول باستنكار:

ـ "أغادر! لماذا يجب أن أغادر؟"

أمسك روبرت كتفيها وقال بجدية:

ـ "لا يمكنكِ أن تبقي هنا، فالألمان قد يداهمونا بأي وقت، وكذلك حملات التفتيش عن عملاء الطابور الخامس لا تتوقف، يجب أن تغادري يا فيرونا، يجب أن تكوني آمنة".

ارتعشت شفتيها وبقيت تفكر بالجملة الأهم لتقولها من بين آلاف الأفكار التي غزت ذهنها، وتمتمت في النهاية بعين راجية:

ـ "ستأتي معي، أليس كذلك؟"

نظر نحو الأرض كي لا يرى رد فعلها وأجاب:

ـ "لن أفر من الحرب، سأُهربكِ وسأبقى".

جحظت عيناها وهتفت بغضب وهي تلكزه في صدره:

ـ "أتظن أنني سأرحل وحدي؟ كلا، لن يحدث هذا أبدًا. أنا لا أعترض على فكرة الهرب لأي مكان ولكن يجب أن تكون فيه، هل تفهم؟ ها؟"

أمسك قبضتها التي تضربه وقال بعينٍ دامعة:

ـ "إن فررت سيعلم الجيش بسرعة وسيبحثون عني حتى يجدونا مًعا، فرصكِ جيدة دوني".

ـ "إنها ليست كذلك، لا يوجد شيء جيد على الإطلاق دونكَ".

هتفت بها فيرونا ثم انفجرت باكية وهي تعيد تكرارها بنبرات تقل تدريجيًا فشعر روبرت بالألم يكتسح صدره وهذا ما توقعه.

توجه نحوها ليربت عليها وقال مستسلمًا:

ـ "حسنًا، سنفر سويًا في الوقت الملائم".

***

ركضا وسط الظلام الدامس، ولم يكن القمر بازغًا تلك الليلة، فظلا يتعثران بنباتات الأحراش، ويصطدمان بفروع الشجر، حتى تجلى لهما منحدر الجزيرة.

جلسا تحت صف الأشجار الأخير ليلتقطا أنفاسهما، وبقيا يتلفتان كل وهلة.

صوت تلاطم الأمواج وتحطمها على الجرف يصل لآذانهما ويخبرهما أن التنقل حول المنحدر لن يكون بتلك السهولة، ولكنهما لا يملكان حلًا آخر فكل الطرقات مكسوة بالجنود.

تقدما بعد حين نحو الجرف ليستترا خلفه بنزوحهما، وكانا يصعدان للأعلى بالمناطق الخالية من الجنود ليسيرا فوق الأرض المستوية، وحين أشرقت الشمس، كانا قد بلغا مدينة خانيا.

وقف توماس يطالع المدينة وسرعان ما سقط على ركبتيه لفرط الصدمة.

كل البيوت كانت مقصوفة، وحتى الكنيسة الصغيرة التي اعتاد أن يرتادها مع عائلته سويت بالأرض، ولم يجد الأرض معشوشبة بأي مكان حوله، فكل الحقول والمراعي، باتت سوداء اللون بعدما أكلتها النيران، حتى الآبار أصبحت تنضح دمًا بسبب الجثث الملقاة داخلها لا ماءً، الطيور نفسها لم تعد تحلق فوق سماء كريت خوفًا من البارود.

ركض كالمجنون نحو منزله، ولم يكن ركضه مستقرًا بسبب إصابته، وحين وصله تعثر وسقط على أبوابه لفرط تعبه وبسبب فزعه.

بيت العائلة، والحقل الكبير، والبستان الغَناء باتوا ماضيًا، ولا يوجد الآن سوى أطلال تحمل رائحة الموت.

تبعه سيمون وبقي يطوف بالأرجاء بحثًا عن والديه اللذين سيتم التقاطهما والهرب، فلعلهما يختبئان بأي زاوية ولكنه توقف عن البحث حين وجدهما، وصاح بصوتٍ مرتفع ليلفت انتباه رفيقه:

- "توماس، لقد وجدتهما، إنهما..."

لم يكمل وبقي مشيرًا بسبابته نحو القبرين المرتفعين عن أرضية التربة حتى وصل توماس، ففهم الأخير حالتهما ولم يحتج للسؤال.

تهاوى على ركبتيه، وبقي يبكي بين القبرين بلا توقف، لقد مات والديه ودفنا دون علمه، وهذا لم يحدث منذ فترة طويلة، فالتراب المرتفع ما زال يحمل رطوبة الأرض، وقد يكون مر يومان على أقصى تقدير، أي أنهما ماتا فيما جنود التحالف هنا لا يستطيعون فعل شيء بسبب قلة السلاح والمؤن.

وضع يديه على القبرين وهمس بصوتٍ مبحوح:

- "سامحاني، لقد فشلت في حمايتكما، ليتكم غادرتما مع كارلا".

توقف عن الحديث واتسعت عيناه، لقد تذكر كارلا، وتذكر الإسكندرية، يجب أن يذهب لها، فلم يعد هناك شخصٌ آخر ليعتني بها، ووجوده هنا لن يفيد والديه ولن يفيده بشيء.

نهض بإسراع وهو يقول:

- "لنذهب يا سيمون".

نظر سيمون للقبرين ثم رشم الصليب وغادر خلف توماس وهو يتعجب من هدوئه، وكان الأخير يسير والجحيم بصدره.

توجها لمرفأ البيت القريب بحثًا عن مركبه القديم الذي كان يخرج به للصيد، ولكنه لم يجد هناك أي وسيلة نقل، وكذلك لم يشاهدا أي زورق بميناء البلدة لدى ذهابهما له.

كافة المراكب والسفن معطوبة وغارقة.

تبادلا النظرات الحائرة وفيما هما يفكران بما سيفعلانه، شاهدا من بعيد طائرات الألمان، ولكن تلك المرة لم تكن تلقي القنابل، بل المظليين الذين غطوا الشمس

لكثرتهم، والذين كانوا يهبطون للجزيرة أحياء أو أموات بسبب الرصاص القليل المندفع نحوهم من قبل جنود التحالف.

حدث هذا في العشرين من مايو.

****

صدرت أوامر الانسحاب، وجاهدت البحرية، وسلاح الطيران في نقل الجنود من جزيرة كريت، وبعد خسارة خمس سفن، وألفي جندي، تم إنقاذ ثماني عشرة ألف محارب، وبقي الآخرون ليؤخذوا أسرى.

في أوائل يونيو وصلت السفينة التي تنقل سيمون لميناء الإسكندرية، وكان برفقته توماس الذي سُرح من الخدمة بسبب إصابة ساقه التي شكلت عاهة مستديمة، وهناك كان روبرت بالانتظار.

كان هدفه الأول هو لكم سيمون حين يراه ولكن حالته لم تكن تحتمل هذا، فلقد بدا شاحبًا ومتعبًا، وكانت شفتاه متشققتين وجسده مكسوًا بالجروح.

وقف أمامه وبادره بنبرةٍ تحمل الفرح واللوم:

- "من الجيد أنكَ حي".

ابتسم سيمون بينما يعانقه، ثم أشار نحو توماس بقوله:

- "هذا المجند توماس من القوات اليونانية، توماس، أعرفكَ بالرقيب أول روبرت".

هز توماس رأسه ببطء ليقدم التحية المدنية، وكان تفكيره بأكمله منصبًا على مغادرة المكان المكتظ بالأشخاص ولقاء كارلا، فقال بنظره لسيمون:

- "سأكمل ما بدأته أيها الرفيق، حاول أن تزورني من الحين للآخر، وداعًا".

أمسك سيمون يده ليمنعه من الرحيل وهمس:

- "انتظر لحظات، سنقوم بتوصيلك".

نظر بعينيه لروبرت في رجاء، فاستدار الأخير وتوجه لجلب لسيارته العسكرية، وحين وقف أمامهما قال:

- "دعونا نرحل عن هذا التجمهر".

مشى توماس للسيارة بعرج ملحوظ، وهو لا يكف عن التفوه بجمل الشكر، وسرعان ما انطلقوا نحو الخارج، ولم يلاقوا صعوبة تذكر في إدراك مسكن ماركو القريب من الميناء.

هبط توماس هناك وعلى ظهره مخلته، وبقي يلوح للرجلين مودعًا، ثم وقف بباب الحانوت ينظر للداخل.

كانت كارلا رابضة أمام المذياع الذي لم تهتم بمتابعته في السابق، وبدت منحنية الظهر بسبب حزنها، ولكنها كانت جميلة رغم ذلك فلم يصدر حرفًا كي يملي عينيه برؤيتها أولًا.

انتبهت حين شاهدت الظل الساقط لجوار مقعدها، فالتفتت للخلف وقد حسبته زبونًا ما أو حسين، وسرعان ما تسمرت من المفاجأة حين ألفته.

نهضت بعد لحظات، وبدأت تخطو تجاهه غير مصدقة ولزمت مطالعته بعينيها المتسعتين للغاية والدامعتين، وحين باتت أمامه مدت يدها لتتحسس وجنته، وكانت فرحتها غامرة حين شعرت بملمس جلده ولم تجده تبخر كالسراب كما كل مرة.

عانقته وهي تهتف بصوتٍ باكٍ:

- "أخي، لقد أتيت فعلًا، لقد استجاب الرب لتضرعي وأعادك لي سالمًا".

ربت توماس عليها للحظات قبل أن تمسك يده وتسحبه عبر الباب المؤدي لمدخل المنزل، وهتفت بكل سعادة وهي تصعد الدرج:

- "عمي ماركو، لقد جاء توماس".

كان توماس يهرول خلفها فيما يكز على أسنانه بسبب سرعتها، ولكنه مع الوقت لم يستطع المداومة فتوقف عن الحركة بسبب ألم ساقه، وسحب يده من يدها.

غمغم فيما يستند لحاجز الدرج:

- "لم أعد أستطيع الركض كالسابق يا أختاه، الرب أعادني لكِ ولكنني لست سالمًا كليًا".

نظرت ليده القابضة على ساقه، وانسابت دموعها حين تفهمت المغزى من جملته، وخرج ماركو على أثر النداء، وبقي يحملق بتوماس المحمل بخيبة الهزيمة،

وبعاهة الحرب حتى صعد، وعندئذ وضع يديه على كتفيه وقال بينما ينظر له بفخر:

- "لقد فعلت كل ما يمكنك يا بني، الآن ارتح قليلًا".

هز توماس رأسه بالموافقة فيما يطلق تنهد طويل، ودخل معهما للشقة، وحين أوصلاه لغرفته تساءلت كارلا بصوتٍ مبحوح وهي تفتح النوافذ:

- "طمئني على حالك يا توماس، وأخبرني لماذا لم يأت والدانا؟"

ابتلع ريقه وبقي يداري وجهه عنها ولكن ماركو شاهد رد فعله فتساءل وهو يقترب:

- "لماذا لم يأت والداكَ يا بني؟ أخبرنا".

جال بعينيه بين وجه العم المرتقب، ومحيا شقيقته المتوتر، وغمغم ودموعه تنحدر على وجهه:

- "لقد وجدت قبريهما أمام أطلال منزلنا حين عدت لكريت، لقد قصف البيت ولا بد أن السكان الأحياء أخرجوهما من تحت الأنقاض وقاموا بدفنهما".

شهق ماركو، وصرخت كارلا قبل أن يغشى عليها بسبب الصدمات المتتابعة، فحملها الرجلان بأعصابٍ تالفة ووضعاها على الفراش القريب، وبقي كلٌ منهما ينظر للآخر بينما يحاولان إفاقتها.

همس ماركو متناسيًا ألم فجيعته:

- "كارلا ستواجه صعوبة في تقبل الأمور التي تبدلت، ولكن وجودكَ وتماسكك سيهونان آلامها، تعازي الحارة يا توماس، وثق أن والديكَ يرقدان في سلام، فهما عند الرب الآن، وهو لم يشأ لهما أن يعيشا بتلك الحرب أكثر من هذا".

أمسك توماس بساقه ليرفعها على الفراش وعقب بينما يتمدد لجوار شقيقته:

- "سأتماسك كما فعلت طوال وقت الحرب يا عمي، سأتماسك لأجل كارلا، فلا يجب أن ننهار كلينا".

بقي ينظر لها ولساقه تباعًا، إنه يبغض إصابته كثيرًا، ولكن لولاها لبقي في الخدمة التي تطوع لها بمحض إرادته، ولبقت شقيقته وحدها تمامًا دون خَيار.

عل تلك الإصابة كانت تذكرته للنجاة من أهوال الحرب.

***

تمطى بقوة حين خرج من محطة الإسكندرية، وكانت عضلاته متشنجة للغاية بسبب مناوبة العمل الطويلة والمرهقة، فارتفع صوت فرقعة فقراته ومفاصله ليسمع المارين لجواره، ولكنه لم يكترث بإرهاقه في تلك الساعة، فالأمر الأهم هو أن يتجه لأقرب هاتف.

تلفت بالأرجاء قبل أن يعبر الطريق فلقد باتت أعداد السيارات أكثر من السائرين، ومشى حتى أقرب متجر وهناك طالع الهاتف الموضوع على الحامل الخشبي بعينين فرحتين، وسرعان ما بادر المالك متسائلًا:

- "أيمكنني إجراء مكالمة؟"

بسط المالك يده بترحاب نحو الهاتف وهو يُجيب:

- "تفضل يا أفندي".

التقط سالم سماعة الهاتف الأسود اللون، وبقي يلف القرص المعدني ليطلب رقم الجامعة، وحين فُتح الخط قال مبادرًا وبلهجة واثقة:

- "مساء الخير، أهذا رقم الخدمة الخاص بجامعة فيكتوريا؟"

- "بلي، أهناك ما يمكنني فعله لك؟"

ابتلع ريقه ثم أجاب بهدوء وهو يستند بيديه للجدار القريب:

- "أنا أتحدث من قصر رستم باشا نيابةً عنه لأتفقد أحوال الآنسة أميرة، هل يمكنني التحدث لها؟"

- "سنبلغها باتصالك يا فندم، انتظر دقيقة".

صمت سالم مستسلمًا ولزم الانتظار كالعادة، ولكن قلبه بقي يهتف باسمها في تَعجل، واستمر نبضه يتسارع كالقطار السريع، وكان يرتقب سماع صوتها ليُسكن قلقه، وشوقه المتضخمين، حتى سمعها تهمس بصوتها العذب والحاني:

- "كنت أشعر أنكَ ستحدثني الليلة".

تنهد بقوة، وغمغم:

- "شعوركِ في محله، لقد اشتقت لكِ كثيرًا".

عقبت ببعض الخجل:

- "وأنا أيضًا، من أي محطة تتحدث؟"

- "أنا أتحدث من هاتف في الإسكندرية، وددت أن أعلمك بأنني سأبقى هنا حتى مساء الغد، هل يمكننا أن نلتقي؟"

تمتمت وهي تداعب خصلاتها على الطرف الآخر:

- "بالطبع يمكننا، وهل تظنني سأفوت تلك الفرصة، نحن لم نلتق منذ الاحتلال، ولا أعرف ما قد أفعله حين أراك".

هدأت وهلةٍ ثم أضافت بتردد:

- "أظنني قد أجن وأعانقك، كيف سيكون رد فعلكَ حينها؟"

- "أنا أعرف ما سأفعله".

صمتت طويلًا ثم تساءلت بفضول لم تستطع إخفائه:

- "ماذا ستفعل يا حبيبي؟"

ابتسم وهو يجاوبها ببعض الخجل:

- "سأحتضنكِ بقوة، فالعناق بالعناق، والسلام بالسلام، والبادي أكثر لوعةً".

ضحكت لجملته، وشعرت برجفة تسري في أوصالها لمجرد تفكيرها باحتضانه، وهمست ببعض الحنو:

- "سأنام مرتاحة البال لأنني تيقنت من حقيقة وجودكَ معي بنفس المدينة، أنت أيضًا نم جيدًا فلا بد أنكَ مرهق".

- "سأفعل، وسأنتظركِ بموعد احتساء القهوة في نفس المقهى، طابت ليلتكِ".

- "وليلتكَ كذلك".

هم بإغلاق الخط فأضافت بسرعة:

- "سالم، انتظر لحظة".

ابتسم وهو يتساءل ببعض البلاهة المتعمدة:

- "ماذا هناك؟"

أجابت وهي تنظر لأسفل بعفوية:

- "نسيت إخباركَ بأنني أحبك كثيرًا".

تلمظ وجهه بينما يُعقب:

- "وأنا أيضًا، كوني بخير لأجلي".

أغلقا الخط بتوتر وحماس، وكأنا يتوقان لرؤية الساعة وهي تدق الثالثة عصرًا، وظل سالم يرسم بمخيلته أفكار وأمنيات قطعها صوت البَقال الذي قال:

- "سعر المكالمة نص فرنك يا أفندي".

***

صوب عينيه على المتجر المقابل وبقي يحرق لفائف التبغ تباعًا، وبدا عصبيًا للغاية وهو يدخنها.

كارلا تتألم وهو لا يستطيع فعل شيء بسبب توماس الذي وصل بالصباح، إنه يشعر بقيودٍ شتى توثقه بالمقعد، ولكنه لا ينوي الرضوخ لها طويلًا، وينوي أن يُجن ويكسر القواعد، فمجانين الحب ليسوا خطرًا على الأفراد، ولكنهم بلا شك خطر داهم على العادات والأفكار، ومن العادات المنتشرة ألا تختلط الجنسيات والأديان في علاقة حُب، ولكنه كسر تلك العادة منذ زمن، ولم يبق سوى أن يستمر في كسرها مرة تلو المرة حتى يظفر بكارلا.

نهض في ظل تحدٍ يلمع بعينيه، وعبر الشارع بخطى واسعة كجواد يركض بلا تريث، وحين بلغ عتبة الحانوت سحب نفسًا طويلًا وأطلقه قبل أن يدخل، ولم تمر لحظات حتى شاهد كارلا جالسة بين عمها وشقيقها، تذرف الدموع بلا توقف، وكأنها تبكي والديها، ووطنها، ومنزلهم، وسوء الحظ دُفعةً واحدة.

شعر بالألم يعتصر قلبه كأفعى رقطاء، فهمس بصوتٍ مبحوح:

- "تعازي الحارة، أتمنى أن تكون آخر الأحزان".

نهض ماركو حين انتبه لوجوده وهمس فيما يسير له:

- "شاكرين للطفكِ يا حسين، تفضل بالدخول لأعرفك على توماس".

تقدم حسين فيما يسترق النظرات نحو كارلا، ولكنها لم تكن انتبهت لوجوده بعد، وكانت الذكريات تجول بعقلها كما الطوفان، مذكرةً إياها بكل اللحظات التي عاشتها في كنف والديها، والتي لم تعد سوى ماضٍ.

صافح توماس بينما يهمس:

- "تعازي الحارة يا توماس".

كان توماس قد علم اسمه لأن ماركو ذكره منذ وهلة، فتمتم وهو يشير للمقعد المقابل لكارلا:

- "متشكر يا حسين، أتمنى ألا تمر بالأمر، تفضل بالجلوس".

جلس وهو يعقب بنصف ابتسامة:

- "لقد مررت به بالفعل وأعرف مدى ألمكم".

تم قطع الرؤية البصرية الثابتة لكارلا بسبب جلوسه على المقعد المقابل، فرفعت رأسها لتنظر بالأرجاء وقد انتبهت من شرودها، وحين لمحت حسين أنزلتها من جديد وعادت تنتحب دون حرف، وكان توماس يفكر في الجملة الأخيرة غير متفهمًا، فهو لا يدري أيعني حسين أمر الوفاة أم هزيمة الحرب، ولكنه فطن حين أضاف ماركو وهو يرتخي بجسده الضئيل على المقعد:

- "آوه، ما زلت أذكر هذه الأوقات يا حسين، رحم الله والديك، لقد كانا محبوبين من الكل، سواء هنا أو في الإبراهيمية، لقد بكيت على ساقي ليلتها كما الأطفال، ولكنكِ أتيت لفتح مطعم والدكَ في اليوم التالي كرجل بالغ".

صمت حسين لبعض الوقت ثم فسر بصوتٍ رخيم ليسمع كارلا:

- "لقد بكيت ليلتها كما تفعلي الآن، ذلك لأنني ظننت أنهما ماتا، ولكنني علمت بعد طول بكاء أنها لم يموتا، بل حصلا على الخلود في مكان آخر لا يوجد به سوى العدل، في الحقيقة نحن الأموات وليس هم".

حدجته بعينين محمرتين لفرط العويل، وغمغمت بصوتٍ يكاد يفهم:

- "ولكن ألم الفراق صعب للغاية، أنا لا أحتمل غيابهما وإن كانا لدى الرب".

هز رأسه متفهمًا وهمس بصوتٍ يفيضُ بالطاقة الإيجابية فيما ينظر لهم تباعًا:

ـ "لقد فتحت المطعم لأحيي بعضًا من والدي عبر إحياء طِباعه، فهو لم يكن يغلقه أبدًا، لقد جعلته يحيا داخلي بطريقة ما، وكذلك والدتي تسكنني بخصالها، فأنا لا زلت أضع المفارش الملونة بالأعياد والمناسبات كما كانت تفعل لتبهجنا ولتذكرنا بطريقة غير مباشرة، عمر الإنسان لا يحسب بالسنوات التي يعيشها بيننا، ولكن بالسنوات التي يعيشها داخلنا، ووالداي ما زالا حيين داخلي حتى اليوم".

عم الصمت المطلق على أربعتهم، فحتى أنين كارلا كان قد هدأ بسبب نبرته التي تفيضُ سكينة كما الواعظين، ولم يقطع الهدوء سوى صوت سالم الذي قال من مكانه عند الباب الخارجي:

ـ "لقد علمت ما حدث من العاملين بالمطعم، تعازي الحارة لكم".

لم يكن لدى سالم سابق معرفة بتوماس أو حتى كارلا، ولكنه عرفهم حين وصل للمطعم وتحدث للعمال، فنهض ماركو من جديد وهو يمد يده لحسين وقال بالإنجليزية ليفهمه:

ـ "شاكرين للطفكَ يا سالم، تفضل بالدخول يا بني فلقد مر زمن منذ رأيتك".

دخل سالم بخطى ضيقة فيما ينظر للساعة المعلقة عل الحائط من الفينة للأخرى، إنه يحصي الدقائق حتى يأتي موعد لقائه المنتظر.

***

لم يذق للنوم طعم، وما هدأت عاطفته المتأججة ولو لجزء من الثانية كي يرتاح من التفكير فيها، وكذلك فشلت كل محاولاته في تمالك مهجته، فغلبه الحنين لرؤيتها قرب الظهيرة، فخرج وقتها من منزل العائلة مُهرولًا، وألقى بنفسه داخل أقرب تاكسي يمر، وانطلق نحو المقهى.

الخطة هي أن يذهب مبكرًا وينتظرها هناك، ولكن تلك الخطة فشلت هي الأخرى لأنه لدى تفحصه المقهى عبر الزجاج الشفاف الموجود بالمقدمة، وجد أميرة قد بادرت في تنفيذها.

وقف أمام الزجاج الحائل بينهما مدهوشًا وكأن صاعقة ضربته، وبقي يطالعها للحظات بعينين متلهفتين فيما هي تنقر الطاولة بسأم الجالسة منذ فترة.

كانت عيناها مصوبتين نحو كوب المياه المثلج الذي شغل المنضدة بمفرده، فهي لم تكن لتبدأ في الطلب قبل وصول سالم، وهذا الحدث جعله يستشعر أنه يتخاطر معها ذهنيًا وجعله يفكر بأن كل شيء يسير لصالحه، وأن السماء تبارك ملحمته.

هكذا كان يعتقد.

التفتت أميرة نحوه بعد ثوانٍ، وسرعان ما اتسعت عيناها برؤيته، بدأت تنتصب واقفه في بطء غير متعمد، كان سببه الأدرينالين المندفع بعروقها لفرط حماستها، وأخذا يحملقان ببعضهما البعض فيما يسيران سويًا نحو باب المدخل ليتفاديا وجود الفاصل الزجاجي، وبعد خطوات قليلة بدآ يسرعان في الحركة لدرجة الركض، ولم يتوقفا حتى بوقت عبورهما مساحة الفاصل الزجاجي.

غمر كلٌ منهما الآخر بلوعة ورغم أنه عناقهما الأول، كان إلى حدٍ ما عنيفًا ويكاد يوصف بالاعتصار.

انسابت أميرة على ذراعيه وكأنها خلقت بلا عظام، وغمغمت بصوتٍ محشرج:

- "كم كنت مشتاقة لرؤيتك".

همت بالتراجع فرفض أن يفلتها وقال فيما يتشمم رائحتها الذكية:

- "أنا أيضًا غلبني الشوق، ولا أدري لماذا ضربت موعدًا في الثالثة بينما كان من الممكن أن نلتقي بوقت الشروق، كم أنا أبله!"

ضحكت لانتقاده نفسه، وهمست وهي تتملص منه:

- "أحم، دعني رجاءً، فالناس بدؤوا يتابعوننا".

أمسك يدها ودخل للمقهى وعقب بسيرهما للطاولة:

- "إنهم يتابعون أي شيء من باب الفضول وسرعان ما يسأمون، دعك منهم".

سحب لها الكرسي، فجلست بدلال، وسرعان ما اقتلزت كوب الماء لتروِي حلقها الجاف، ولتبرد حرارة وجنتيها المتوردتين، وهمست بحصافة محاولةً أن تظهر وجهها العثماني الأسلوب:

- "شاكرة للطفكَ، الآن تفضل بالجلوس أمامي لأراكَ، ودعني أزف عليك نبأ انتهاء اختباراتي، سأعود الليلة للقاهرة وأنت ستوصلني كالعادة".

جلس مستجيبًا وأسند رأسه على يده وغمغم:

- "هذا خبر رائع، كما أنكِ تبدين خلابة حينما تتحدثين بطريقة الطبقة الأرستقراطية، أنت خلابة في كل أفعالك الحقيقة".

أحنت رأسها وهمست فيما تبتسم بطفولية:

- "أنت تخجلني بكلامك".

ابتسم بمرح وبقي ينصت لأغنيات أسمهان وسيد درويش المنبعثة من الراديو، وقرر أنه سيلتزم الصمت كي لا يخجلها، ولكنها كانت تستحي من صمته كذلك، فلقد كان أكثر فصاحةً.

***

بعد هزيمة اليونان ودعم الحليف موسوليني، عاد هتلر ليكمل خطة غزوه التي أخر تنفيذها شهورًا،

أسماها عملية باربروسا، هدفها كان غزو الاتحاد السوفيتي لأجل الموارد والمصانع العملاقة والأيدي العاملة التي سيتم تسخيرها لخدمة ألمانيا، وبالتالي كان لا بد من نقض المعاهدة التي جرت سابقًا بين الدولتين إبان غزو بولندا.

في الثاني والعشرين من يونيو زحفت قوات الفيرماخت للأراضي الروسية واتخذت ثلاث وجهات للتقدم، كانت موسكو، وأوكرانيا، ولينينغراد -سان بطرسبرغ حاليًا- وبدأ الهجوم دون إنذارٍ مسبقٍ بالحرب، وكان التوغل يسير بسرعة خمسين كيلو متر في اليوم، الأمر الذي جعل الحلفاء يشكون في كون الفيرماخت يتعاطى عقاقير منشطة، ولكن لم تفلح العقاقير في جعلهم ينالون غايتهم، فلم يجد الألمان أحدًا رغم أنهم توغلوا لأسابيع، وحينها فقط بدأ الجنود يلاحظون أن روسيا بلدٌ فسيح للغاية.

في النهاية، وباقترابهم من القرى الريفية التي لطالما تمنوا رؤيتها، كان ستالين قد أمر المزارعين عبر الراديو بتطبيق سياسة الأرض المحروقة، وعليها قام المدنيون البسطاء بحرق أكواخهم، وحقولهم كي لا يستفيد منها الألمان كما فعلوا مع نابليون سابقًا.

غادروا بما يستطيعون حمله من المؤن والأثاث، وحين وصل الفيرماخت لم يجدوا شيئًا على الإطلاق سوى الرماد الأسود الممتد، وحينها بدأ الجنود يعانون،

فالأراضي الروسية ليست مستوية، وليست صغيرة المساحة، ولقد بات هناك صعوبة في وصول الإمدادات، وتلك الصعوبة تفاقمت بحلول الخريف، فلقد اضطر الألمان للتعامل مع الطبيعة نفسها، والتي تلخصت قواتها في الأمطار الخريفية التي تشكل الطين اللزج، مما يعوق سير كل شيء بدءًا من الأفراد وحتى الدبابات، وجاء الشتاء ليشكل ضربة مؤلمة، فهم لم يعتادوا صقيع يصل لأربعين درجة تحت الصفر، فبدأوا يتساقطون بسبب البرد، والأمراض، والمقاومة الروسية، ولكن هذا لم يمنع التقدم حتى لينينغراد ومحاصرتها بإحكام.

في مصر كان تقدم روميل وفيلق إفريقيا لا يكاد يُمقل، فطبرق صمدت بفعل الحامية الأسترالية حتى تم إجلائها في أوائل سبتمبر، وحل مكانها جنود بريطانيين وبولنديين، وكان إنزال الجنود والعتاد عبر موانئ مصر لا يكاد يتوقف، وكذلك صافرة الغارة.

***

داخل حظيرة الطائرات الواقعة بمعسكر الحلمية، كان روبرت يتفقد بعينين محمرتين شحنة المتفجرات التي يتم تحميلها لطائرته الماتيلدا، وكان سيمون يقف لجواره وقد عقد يديه لصدره وبدا عليه التعجل، وبعد لحظات هتف بالجنود في نفاد صبر:

- "ألا تسرعون بحق اللعنة، سيمضي الليل وأنتم تقومون بالتحميل".

ارتبك الجنود وهم ينقلون المتفجرات لمتن الطائرة، وبدا عليهم الهلع من عصبيته المفرطة، فنظر روبرت نحوه بعينين متأملتين، ثم جذبه من كتفه ليتحركا نحو الخارج، وهناك قال بنبرةٍ هَادئة:

- "منذ وصولك وأنا ألاحظ تغيرك يا سيمون، تبدو كأنكَ شخصٌ آخر غير الذي غادر لليونان، لم لا تحدثني عما بك؟ ماذا جرى هناك؟"

أدار سيمون وجهه وهمهم فيما يطالع السماء:

- "لا شيء يذكر، أنا بخير حال".

وأضاف ليغير الموضوع:

- "الطقس جيد الليلة والرياح هادئة، ولا أظنها قد تمطر، ستكون مهمة سهلة".

خرج الجنود ليعلنوا أن التحميل تم، فتوجه سيمون لطائرته بإسراع، وكان روبرت يتابعه في خشية وقلق بينما يسير لطائرته بخطى هادئة.

إنه لم يعهده متعطشًا للدماء كما تلك الفترة التي تلت وصوله وتعافيه، ويبدو الأمر كما لو أنه بات يقاتل للثأر وليس لتحرير فرنسا.

جلسا بالطائرتين وبدآ يتفقدا الوقود وأنظمة الملاحة، ثم ارتديا سماعات الراديو ليجرباها، وقال روبرت مبادرًا:

ـ "من ألفا واحد إلى تانغو، هل تسمعني؟"

أجاب سيمون فيما يضع قناع التنفس:

ـ "من تانغو إلى ألفا واحد، أسمعكَ جيدًا، وسأبدأ بالإقلاع خلال، ثلاثة، اثنان، واحد، الآن".

انطلق سيمون نحو الخارج فبدأ روبرت يتحرك خلفه مستاءً، وحين أقلعا دام يناضل ليلحق بخطاه فوق السُحب الغائمة، وحين رأى أن تحركه يتسارع مع الوقت قال بنبرةٍ آمرة:

ـ "من ألفا واحد إلى تانغو، التزم بالسرعة المتفق عليها، وحلق على ارتفاع ٢٠ ألف قدم لنتفادى الرادار، إنها مهمة وليست عراك شارع".

جاء صوت سيمون يعترف ببؤس وألم:

ـ "إنه عراك شارع يا روبرت، وأنا لم أعد أنوي خسارته، أنت لا تعرف ماذا فعلوا بنا في كريت، لقد مرت علينا ليالٍ دون طعام أو شراب، أو حتى نوم، كانوا يقومون بالغارة كل ساعة تقريبًا، وكنا بكل مرة نرى شريط حياتنا يعرض أمام أعيننا، لم يقتلونا ولكنهم جعلونا نتمنى الموت مليون مرة".

صمت روبرت لوهلة وابتلع ريقه لفرط الأسى على سيمون، ولكنه فصل بين مشاعر الصديق والعسكري، فقال بجمود وهو يضغط عددًا من الأزرار:

ـ "من ألفا واحد إلى تانغو، نفذ الأمر واتبع الخطة".

لم يعقب سيمون بأي شيء ولكنه امتثل للأمر، وبعد قرابة العشر دقائق كأنا يحلقان فوق البحر المتوسط، وعلى ضوء القمر المنعكس فوق صفحة المياه شاهدا سفينة الإمدادات التي تحمل مؤن وعتاد روميل، فجن جنون سيمون، وبقي

يحلق فوق السفينة بعينين تشعان كراهية، وما لبث أن أفرغ حمولته بأسرها على الهدف ثم تراجع ليطالع المشهد من بعيد.

كانت السفينة لا تنفك تنفجر بسبب البترول والبارود اللذين تنقلهما، فسارع البحارة المتواجدين على ظهرها بإلقاء أنفسهم نحو المياه، ولكن البترول المتسرب على صفحة المتوسط اشتعل بعد لحظات فأحرقهم حتى الموت، وكان سيمون يطالعهم فيما يصرخون وقد بدا عليه البرود الشديد.

التف روبرت ليعود مع بقية السرب، دون أن يسقط قنبلة واحدة، وكان قد تأكد أن سيمون الرقيق كالملاك قد مات باليونان، وجاء شيطان يشبهه، شيطان صنعته الحرب.

***

في السابع عشر من سبتمبر قُصف حي العباسية في غارة كان هدفها معسكرات تمركز جنود الحلفاء، ولكن القصف لم يعرقل المواطنين في التأهب لشهر رمضان الذي بدأ بعد أيام قلائل، واستقبلت قاهرة المدن، الشهر الكريم وقد ارتدت فوق بدنها المطعون ثوب الصبر والجمال.

الزينة اليدوية الصنع، علقت بكل الشوارع والطرقات حتى المقصوفة منها، وكان الأهالي بمختلف جنسياتهم يعلقون المصابيح الملونة دون اكتراث للطائرات، ويتبادلون الحلوى المنزلية الصنع في أطباق مزينة، وحتى الأطفال تناسوا النكبة الأخيرة فراحوا يلعبون بالطرقات في مرح وشغب.

في محطة مصر، انشغل سالم وأميرة ببسط أوراق الجرائد على الأريكة الحجرية، ووضع الفطور فوقها قبل أن ينطلق المدفع، وبدت أميرة كغزالة تتحرك في دأب على الرصيف وقد علت وجهها ابتسامةٌ مبتهجة لأنها ستحظى بتناول الفطور مع سالم للمرة الأول منذ تعارفا، ومن الحين للآخر كانت ملامحها تميل للعبوس لتذكرها غياب والدها في السفر رغم أنه كان يمتنع عنه برمضان على الأخص.

نبهها سالم أن الأذان يرتفع بمساجد القاهرة، فاقتربت لتجلس قبالته في شرود ووجوم، وبقيت تحملق بالطعام والتمر دون أن تقرب أيهما، فالتقط سالم رطَبة ومدها نحوها بينما يهمس بأمل:

ـ "للصائم دعوة لا تُرد".

هزت رأسها لما تفهمت المغزى من جملته، وبقيت تغمغم بصوتٍ لا يُسمع فيما تلتقط منه الرَطبة، وحين أكلتها همست بصوتٍ عذب:

- "إنه أول فطور رمضاني لنا معًا، وتطور علاقتنا يسعدني كثيرًا، ولكن انزعاجي سببه والدي، إنه يهمل صحته ولقد بات حريصًا على العمل وعقد الصفقات لدرجة أنه لم يبق معي بأول يوم في رمضان رغم علمه بأن هذا اليوم تجتمع فيه العائلات بلا استثناء".

تزرد سالم اللقمة بسرعة ليعقب مستفسرًا:

- "أتفتقدين والدتكِ بتلك الأيام؟"

أُضيئت أضواء الممرات في المحطة، فنظرت أميرة للمصابيح الصفراء وهي تجيب:

- "أنا أفتقدها حينما تغيب أنت، أما بوقت وجودكَ معي فأستشعر رقتها وحنوها، الفتاة دومًا تقول لحبيبها أنها تراه كوالدها، ولكنني أراكَ كوالدتي في الطباع، ولا تعتبرها إهانة فأنت لا تدري كم أحب والدتي، وحدها كانت تحتويني، والآن أصبحت أنت من تفعل".

صمت سالم للحظات وبدت أسارير وجهه منفرجة وهو يقول:

- "أنا لا أحتويكِ بقدر ما تفعلين، لقد أمسيتي شيئًا كبيرًا بحياتي، بل أمسيتي حياتي نفسها، فأنا لم أعد أتحمل اليوم دون رؤيتكِ".

توردت وجنتيها كما زهرة توليب، واعتدلت ببطء فيما تمضغ الطعام لتطالع القضبان الممتدة والمتداخلة، وهمست بينما تلتفت له بعد حين:

- "أتظن أننا قد نحيا سويًا حتى النهاية، أم أننا سنكون كما قضيبي قطار، قريبين من بعضنا ولكننا لا نجتمع أبدًا".

استشعر موجة تشاؤم قادمة فشكر الله أنه تمكن من شغلها بالحديث حتى تناولت فطورها، ونهض ليجمع بقايا الطعام وهو يُجيب بمصداقية بحتة:

- "أنا لا أعرف ما قد يحدث بعد دقيقة، ولكن ما أعرفه هو أنني سأحبك حتى النهاية، وبعدها أيضًا. أنت المحطة الوحيدة التي دخلتها ولم أغادرها، ولم تغادرني بدورها، أنت مقصدي الذي لن أتخذ سواه مقصد".

ظلت تراقبه فيما يتحدث وكان نبضها يرتفع مع كل حرف ينطقه، ودامت عيناها تراقبان وجهه الذي بدا عليه الخوف من المستقبل، فشعرت بعد حين أنها ترهقه بحديثها المُتطير، وتزيد من همه الراسي على ظهره كالجبل، فقالت وهي تساعده في جمع الصُحف:

- "أنا لم أقصد إزعاجكَ، ولكن الواقع حولنا كالجحيم".

نظر بعينيها مليًا وكان الليلُ الحزين في أحداقها يغريه لينهار، فوجد نفسه يهمس بينما يقترب منها:

- "الله رحيم للغاية، ولقد أعطى لكل إنسان جنة مصغرة في الدنيا ليلجأ لها بأوقات الشدة، وجنتي بين كتفيكِ".

عانقها ببطء وضعف ملموس فرفعت يديها بتراخٍ لتطوقه، وغمغمت فيما تمرر يدها على رأسه:

- "لديكَ جنة صغيرة المساحة يا سالم".

أجاب وهو يفرك وجهه بدثار رأسها الأبيض:

- "يكفي أنها تحتويني، أنا لا أريد شيئًا آخر".

أغمضت عينيها لتنعم بالسكينة التي تتخلل جسدها كتيار كهربي، وضغطت عليه في العناق دون وعي بينما تتمتم:

- "أنا أحبك أكثر من نفسي، ولا أريد لتلك السعادة أن تنتهي أبدًا".

***

ارتكبت اليابان فظائع قبل ومنذ بداية الحرب، لا يهمنا ذكرها في شيء كي لا يحدث تشويش، ولكن يكفينا القول إنها قررت بسط سيطرتها على المحيط الهادئ فقامت بمهاجمة قاعدة بيرل هاربل البحرية والتابعة للولايات المتحدة المحايدة في بدايات ديسمبر، وعليه قامت أمريكا بإعلانِ الحرب على اليابان قبل نهاية العام، وفيما كان رؤساء التحالف يتوسمون زيادةً عددية في الجنود وأملًا جديدًا يتمثل في أميركا وروسيا اللتين ستنضمان لقتال المحور، كان العامة في مختلف البلاد لا يأملون بشيء سوى أن ينتهي الكابوس الذي يبدو أنه سيدخل عامًا جديدًا.

١٩٤٢

"يا ليندا، تمنيت في ليالٍ كُثر أن تضميني ليهدأ خوفي غير المنبعث من الحرب ولا احتمالية الموت المرتفعة، فالحرب رفيقتي، والموت ظلي الدائم، أنا أخاف من الشخص الذي أصبحته منذ تركتك والديار، الحرب تعيد تشكيلي وليت صدركِ يذكرني بنفسي".

من رسائل سيمون غوستاف إلى ليندا

بدأ العام في مصر بأزمةٍ اقتصادية، وارتفاع في مستوى المعيشة يكاد يقارب الضعف، وأدى اختفاء السلع الضرورية من الأسواق إلى نشوب موجةٍ من المظاهرات، والسرقات، أما ذوي المال فلم يواجهوا صعوبة في شراء مستلزماتهم رغم زيادة سعرها، وكان قلقهم يكمن فقط إزاء اللحوم التي كانت تَرد مصر طيلة الأسبوع عن طريق تركيا والبلقان، والتي أضحت تواجه صعوبة في الوصول بسبب الحرب الدائرة، وكانت تلك الأحداث وغيرها كفيلة بتداعي الحكومة حتى تم إسقاطها في أوائل فبراير، وعليه بدأ السفير البريطاني –لامبسون- في الضغط على الملك فاروق ليسلم الحكومة لحزب الوفد، ولكن الملك لم يبد حماسةً كبيرة لهذا الأمر، فالصراع بينه وبين الحزب كان ممتدًا منذ أعوام، فرأى أن الأفضلية تكمن في تشكيل حكومة انتقالية، وهكذا توترت العلاقات المصرية ـ البريطانية أكثر.

***

بعينين شبه مغلقتين طالعت أميرة تلك الأخبار بجريدة البروجيه إيجيبشان فيما هي جالسة بمستراح الحديقة الممتدة، وحينما فقدت الأمل في العثور على بشارةٍ أو نبأ مبهج، نهضت مستاءة لتتجول بالأرجاء، وكانت من الوقت للآخر تطالع ساعتها منتظرةً خروج والدها ليتسنى لها التسلل لحديقة الأزبكية، فهي على موعد مع سالم، ووقتها ستجد البهجة بلا شك.

لمحت رُستم يغادر القصر بعد دقائق، وبدا في أبهى صورة، فبادرته بمرح مصطنع:

ـ "أأنت على موعد أيها الوسيم؟"

قهقه لمبادرتها اللطيفة، وعقب بوجهٍ منشرح:

ـ "نعم، لدي موعد مع المديرين، أتريدين مرافقتي؟"

هزت رأسها بالنفي وهمست باقترابها منه لتقبل وجنته:

ـ "كلا، أظنني سأخلد للنوم، الأعمال التجارية لا تجذب انتباهي".

ربت على كتفها بحنو وهو يقول مطمئنًا:

ـ "لا بأس يا طفلتي، عاصم يحب التجارة وسيعتني بكل شيء لأجلك".

ابتلعت أميرة ريقها وتطرقت للأمر بصوتٍ متردد:

ـ "أنا لا أريده أن يعتني بأي شيء".

نظر لها رستم وقد غابت ملامحه الفرحة، ونبهها في تحذير واضح:

ـ "لا تتحدثي بتلك الطريقة عن زوجك المستقبلي".

عبست ملامحها وتمتمت برجاء:

ـ "ولكنني لا أحبه يا أبي، فكيف سأحيا معه؟ لماذا تفرضه عليَّ؟"

صمت لبرهة مفكرًا ثم وضح:

ـ "ستعتادين عليه مع الوقت، أنا أفكر بخطبتكما لتتحدثا أكثر وليعرف كلٌ منكما طباع الآخر قبل الزواج".

شهقت أميرة وشحب لونها وصدحت غير مصدقة:

ـ "ماذا؟ كلا، لن أُخطب له يا أبي، أنا لا أريده، فهو فظ وسكير ولا ينفك يرتاد الخمارات".

أمسك رستم بكتفها وقد أغضبته صراحتها، وهتف بها منفعلًا:

ـ "لقد أخبرتكِ أن تحترميه، لماذا لا تطيعيني؟ أنا... آه!"

بدأ يترنح وقد جحظت عيناه فسارعت بسنده كي لا يسقط وهتفت بالخَدم:

ـ "اتصلوا بالطبيب، وساعدوني بنقل والدي للغرفة، يا إلهي، إنها غيبوبة السكر مجددًا".

اجهشت بالبكاء بينما كان الخدم يحملون جسده المغشي عليه، وبدأت تلوم نفسها لمعارضته فيما تتبعهم بخطى متعثرة عبر البهو الفسيح، وظلت طوال صعودهم الدرج تطالعه بعينين آسفتين.

لن تسامح نفسها إن حدث له شيء.

وقفت أمام باب غرفته وتساءلت بصوتٍ محشرج لفرط انفعالها:

ـ "هل اتصلتم بالطبيب؟"

أجاب صوت أحدهم من الأسفل:

ـ "نعم يا أميرة هانم، وهو لن يتأخر".

دخلت للغرفة وفتحت النوافذ على مصارعها وحاولت فعل الممكن لإنعاش والدها الممدد على الفراش حتى وصل الطبيب بعد قرابة النصف ساعة وكان يبدو عليه التوتر وهو يبادر فور دخوله:

ـ "أعتذر عن التأخير، ولكن الإنجليز يحاصرون قصر عابدين ولم أتمكن من العبور بسهولة، أظنهم سيخلعون الملك".

زفرت أميرة وهي تسير نحوه وهتفت بغضب لما بلغته:

ـ "أنا لا أبالي، افحص والدي بسرعة".

توتر الطبيب أكثر ففتح حقيبته بأطراف مرتعشة والتقط سماعة الكشف، ثم بدأ يعد حقنة البنسلين، وحين أفرغها داخل جسد رستم، همس مطمئنًا:

ـ "سيكون بخير إن لم ينفعل".

جحظت عينا أميرة وهي تسمع هذا التحذير، وشعرت أنها تخير بين حياتها وحياة والدها، فقالت بصوتٍ باكٍ وهي تسير نحوه:

ـ "لن ينفعل يا دكتور، لن ينفعل".

صمتت وقررت أنها لن تخرج للقاء سالم، وستحاول جاهدة ألا تفكر في أمره بعد الآن، ولو كان الأمر سيقتلها.

كان هذا يوم الرابع من فبراير، تاريخ حصار عابدين كما سُمي لاحقًا، وفيه تم إغلاق الطرق المؤدية للقصر الملكي ونُشر بالطرقات المحيطة قرابة النصف ألف جندي وحاصرت الشاحنات الكبيرة والدبابات قصر الملك لتجبره على ترك الحكم أو الامتثال لمطالبهم التي تتلخص في استدعاء حزب الوفد لتعيين حكومة للبلاد، وقُضي الأمر بأنه امتثل للمطلب.

***

جمع شتات نفسه طيلة يومين رغم صعوبة التماسك، وانتظر قدومها لرؤيته بالمحطة ولكن عبثًا، وفي صباح اليوم الثالث كان قد تأكد أنها لن تتجلى عما قريب، فلو كان غيابها بسبب حادثة عابدين لكانت جاءته منذ وقت، ولكن غيابها غير المفسر يجعله يشك أن هناك خطبًا ما.

هم بمغادرة المحطة ليذهب للقصر بارتجاليةٍ مطلقة، ولكن لحسن حظه لمحها تقترب من بعيد فتوقف مكانه ولزم مطالعتها.

لاحظها تحدق بالأسفل في شرود ولا تنفك تصطدم بالمسافرين الكُثر، وبدا ظهرها مقوسًا ويعلوه الهم، فهرع نحوها وهو يقول:

- "أميرة، لقد قلقتني للغاية، ماذا حدث؟ ماذا بكِ؟"

رفعت وجهها لتبصره، وسرعان ما ذرفت الدموع وهي ترتمي بين ذراعيه، ولكنها تراجعت بغتة ووقفت تحدق في كل شيء حولها حتى قررت أن تجيبه فقالت بتمتمة:

- "لقد جاءت غيبوبة السكر لأبي يوم لقائنا، أنا السبب فيها فلقد رفضت".

أمسك كتفيها برفق وبدأ يجلسها على الأريكة العامة وهو يستفسر:

- "رفضتِ ماذا؟"

حملقت به مترددة، وخشيت أن تخبره، ولكنها علمت أن الكذب لن يجدي الآن، فأجابت ببطء بينما تفرك يديها بتوتر:

- "رفضت الخطوبة، لقد أخبرني أنه يريد خطبتي لعاصم حتى نفهم بعضنا، انفعلت وأخبرته أنني لا أحبه ولن أقبل بالخِطبة، ولكنه لم يكترث وأخذ يهتف بي حتى أغشي عليه، وحذرني الطبيب حين جاء من إرهاقه أو إغضابه".

تجلت مخاوف سالم بأسرها على منحنيات وجهه حينما تساءل باقتضاب:

- "ثم؟"

مدت يدها لجيب المعطف وأخرجت خاتم الخطبة فيما تنوه بانهيار:

- "لقد جاء أخوتي من إستانبول في اليوم التالي بناءً على تلغراف عمي، ووجدتهم مجتمعين مع عاصم بغرفة والدي حينما دخلت بموعد الدواء، شعرت باللوم في عيونهم ووضعوني أمام الأمر الواقع وقالوا اقبلي بالخطوبة فما فعلتيه بوالدك يكفي، لم أشعر بشيء بعدها يا سالم، لقد خطبت له دون إدراك، لقد... لقد انتهى الأمر".

وصمتت برهة ثم استطردت وهي تطالع وجهه الشاحب للخبر:

- "لقد سببت لكَ الألم رغم أنني لم أرغب في شيء سوى أن أهبكَ كل السعادة الممكنة، أنا آسفة للغاية، أتمنى أن تغفر لي".

همت بالنهوض فأمسك يدها ليُجلسها وهمهم بعينين دامعتين ونبرة متوسلة:

- "أنت لم تهبيني سوى الفرح، وأنا لا أطلب منكِ أن تقاتلي عائلتكِ لأجل علاقتنا، ولكن كوني جواري لتمنحيني الأمل، يمكنني التحدث مع والدكِ ولسوف أقنعه".

حملقت به ورأسها تدور، ثم أغمضت عينيها وقالت بصوتٍ ذابل:

- "حين أتيتني شعرت أن الله يعوضني بكِ لتكون سعادتي السرمدية، ولكننا اجتمعنا لنؤلم بعضنا لا أكثر، نحن اخترنا الألم من البداية، فكلانا كان يعلم أننا لن نجتمع أبدًا، حديثك معه لن يغير الأمور سوى للأسوأ".

أمسك يدها وهو يعقب بعينين محمرتين:

- "لقد جمعنا وترك لنا الخيار، إما القتال وإما الاستسلام، إما أن نحقق السعادة وإما نجني الألم، أنت تختارين جني الألم يا أميرة، ستضحين لأجل والدكِ ولكنكِ ستقتلين نفسكِ ببطء، كيف ستحتملين مشاركته الفراش وأنت لا تحبين رؤيته، وماذا عني، ألن تخونيه بتذكري؟"

صدحت بانفعال وهي تنهض:

- "توقف يا سالم، توقف".

سدت أذنيها وبقيت تنشج، فنهض خلفها وأضاف ببعض الحنو:

- "لم أقصد إزعاجكِ ولكنني أنبهكِ لما سيحدث، علاقتنا صعبة ولا شك، ولكن وجودنا سويًا يستحق المثابرة، أتتخيلين وجودنا ببيتٍ واحد، أن نفعل كل شيء

معًا دون التقيد بالمواعيد أو الناس، كوني إلى جواري ويومًا ما سنضحك على تلك الصعوبات ونحن ببيتنا وسط أبنائنا".

تنهدت أميرة بعمق حين تخيلت المشهد، ونظرت للسماء بتوسل فيما تعقب:

- "لا يوجد لدي دعوة سوى تلك، ولكن كيف؟"

- "سيدبر الله الأمر إن وثقنا به، أنا أعترف بعجزي لكِ وأصرح..."

صدحت لتقاطعه بينما تعيد الخاتم لجيبها:

- "أنت لست عاجزًا، أنت قوتي، ولولا وجودك قربي لكنت توفيت بسبب الحزن منذ زمن، أنت الأمل الذي يحييني يا سالم، أنت خطيبي وزوجي وكل شيء".

دام الصمت بينهما للحظات وكان كلٌ منهما لا يدري ماذا يصنع إزاء تطور الأحداث فلا القتال متاح، ولا الاستسلام هين.

إنهما بحاجةٍ لمعجزة تتلخص في أن يحدث قصف لبيت عاصم وحده!

****

أعلن هتلر الحرب على أميركا، وتمنى أن تفعل اليابان المثل وتحارب معه ضد الجيش الأحمر الروسي، ولكن جاء قصف مدينة أيسين الألمانية ليشكل صفعه مؤلمة على عكس ما توقع، فلقد دمرت مصانع السلاح والمخازن في تلك الغارة إضافة للخسائر البشرية.

وحين سمعت فيرونا تلك الأخبار عبر محطة برلين، أصيبت بالغضب إزاء تصرفات هتلر، ورأت أنه على مشارف الجنون، فلقد عزل القادة منذ فترة وتولى القيادة بنفسه في روسيا، وها هو يناطح أميركا التي دخلت الصراع بقوة بعدما أُرهق الكل.

أطفأت الراديو وانتصبت واقفة وراحت تذرع الغرفة في حزن وقلق يتضخمان بلا توقف، فالأمور تزداد دموية مع الوقت، وروبرت لم يظهر منذ أيام، وبالكاد يحدثها من القاعدة العسكرية في طبرق إن سنحت له الفرصة.

إنه على الجبهة وهي تتقلب على نيران الخوف، ولا تملك إلا مكابدة الوحدة، والحزن، والقلق، فلا يوجد مفر يتخذاه، ولا وجهة يلوذان بها ليتنعما بالسكينة

والرفقة، العالم كله عبارة عن جبهات للحرب، وساحات عظيمة للقتال، العالم بأسره يحترق.

ارتفعت الدقات على الباب، فركضت نحوه بسرعةٍ خاطفة لتفتحه ولكنها لم تجد روبرت خلف الباب، بل إحدى العاملات بالقافلة الحادية عشرة، والتي تسكن معها بالفندق.

قالت تلك الفتاة في فزع فور أن فُتح المولج:

- "هل سمعتِ ما تطلبه القيادة من الفتيات، إنهم يطلبون منا التطوع للتواجد قرب بير حكيم في صحراء برقة الليبية".

التفتت فيرونا لتدخل وتساءلت حين خابت ظنونها:

- "أين بير حكيم هذا؟"

دلفت الزميلة وأجابت بينما تبدي تعجبها لقلة معلومات فيرونا:

- "إنه يبعد عن طبرق حوالي تسعين ميل من ناحية الجنوب، أعتقد أننا سنمكث بقاعدة طبرق، ألم يحدثْكِ أحدهم؟"

لمعت عينا فيرونا منذ سمعت كلمة طبرق فأجابتها ببسمة حالمة وهي تستدير:

- "كلا، ولكنني سأوافق على الذهاب حين يطلبونني".

حملقت الفتاة بها وهي تتمتم ببعض العتاب:

- "أنت مجنونة وتطلبين الموت بتواجدك هناك".

هزت رأسها بالنفي وهي تصحح:

- "بل أطلب الحياة، حياتي هناك وأنا لن أتركها تفلت مني".

تمددت على الفراش اللين بينما تضحك بمرح واستمرت تحملق بالنجفة الكريستال المتدلية من السقف، ستذهب له ما دام لا يستطيع القدوم لأجلها، فهو بلا شك يحتاجها قربه بتلك الآونة، وهي أيضًا تستميت لتكون جواره.

***

خط الغزالة، كان أعظم خطوط الدفاع الممتدة في عمق الصحراء الليبية فهو يصل حتى بير حكيم، وقيل إنه غير قابلٍ للاقتحام، فلقد زرعت ملايين الألغام بطوله،

وانتصبت آلاف المدفعيات خلفه لجانب الدروع، وحفرت الملاجئ الأرضية وبنيت الأسقف المسلحة لتحتمل الغارات، وزود الجنود بإمدادات ضخمة من العتاد والمؤن عبر ميناء طبرق الذي حافظ عليه الحلفاء منذ بداية الحرب، فلم يجد روميل مناصًا من الالتفاف حول الخط ليهجم من المؤخرة، ورغم فشله في المباغتة إلا أنه تمكن من شق الصفوف البريطانية وسبب توتر، وسوء تواصل بين القيادات.

تمركز بمنطقة تُسمى كولدرون، وهناك دارت معارك فادحة الخسائر لكلا الطرفين وانتهت باستسلام جنود الحلفاء في الأول من يونيو بعدما قصفت معسكراتهم المحصنة، فعمد روميل إلى بير حكيم الذي يسيطر عليه الفرنسيون الأحرار، وهذا الأخير سقط في العاشر من يونيو، ولم يكن من وجهةٍ بعده أمام الإيطاليين والألمان سوى طبرق.

***

سافرت فيرونا إلى طبرق صحبة عدد قليل من الفتيات بعد تلك الأحداث، ولم تنجح الأخبار السيئة في ثنيها عن قرارها، فلقد عقدت العزم على الوصول لروبرت أو الموت في سبيل ذلك، وكانت السيارة التي تقطع الصحراء لا تنفك تتحلحل بسبب الكثبان الرملية، وكان جسد فيرونا يتمايل كذلك فيما هي شاردة حد اللا وعي التام.

إنها تسترجع بذاكرتها كل الأحداث التي مرت، ولم تجد بها شيئًا مبهجًا غير روبرت، إنه الجمال الذي يحيها وسط البشاعة ولولاه لكانت عزيمتها ثبطت منذ زمن.

شعرت بيدٍ نسائية ترج كتفها المتعرق فانتبهت فَزعةً واستدركت ببعض الاستياء:

- "ماذا هناك؟"

أشارت الفتاة لباب الشاحنة الخلفي وهي تفسر:

- "دعينا نهبط، فلقد وصلنا طبرق".

تلألأت عيناها بالغبطة، وبدأت تفتح الباب بإسراع لتقفز عبره، وحين لمست ساقيها الأرض؛ مشطت المكان بعينيها بعدما رفعت كفها لتحجب الشمس الساطعة.

رأت المعسكر مكتظ بالدبابات، وطائرات لانكستر، ولم تحتج للعبقرية كي تفهم أن الحليف الأميركي أرسل تعزيزات لا يستهان بها.

تقدم منهن أحد القادة بعد دقيقة ليعرف عن نفسه، وليصحبهن كي ينهي أوراقهن، وكان يعطي بسيره تعليمات أولية عن كيفية سير الأمور في القاعدة لم تنتبه لها فيرونا بسبب انشغالها في البحث عن روبرت وسط الجنود الكُثر المتواجدين بالساحة، كانت بالواقع تبحث عنه بكل مكان، في صالات التدريب، أو الأبراج العالية والمكاتب المُفتحة، ولم تسلم الدبابات ولا الشاحنات من نظرها الثاقب كذلك.

كادت عيناها تقلبان ذرات الرمال الممتدة بحثًا عنه لولا أنهم دخلوا إحدى منشآت الإدارة كي ينهوا الأوراق، فلجأت لتفقد الغرف المصطفة بعينين منهكتين لم تعتادا بعد على الإضاءة المحيطة، وفؤاد أعياه البعد.

قبل الإغماء بلحظات، لمحته بغرفةٍ ما، فتعمدت أن تسقط حقيبتها، وانكفأت على جمع محتوياتها المبعثرة فيما تعتذر لتسمعه صوتها.

التفت روبرت على آثر الصوت حين ألفه، وترك مشاهدة الخريطة المبسوطة على المكتب، ودام مُحملقًا بها في مزيجٍ من اللوم والشكر وكان كلا الشعورين قد تولدا بسبب قدومها لطبرق بتلك الأحوالٍ العصيبة.

غمزت له بعينيها فيما تبتسم بشغب، فتجلت على قسماته البهجة والراحة، وطفق يحرك شفتيه بكلمات كانت تترجمها داخل عقلها باحترافية، وحين انتهى بدأت تنهض واقفة قبل أن يعود القائد أدراجه ليتفقدها.

لقد ضرب لها موعدًا بعدما أخبرها عن مدى شوقه لها، فبدأت بسيرها للمكتب الإداري كما البندورة لفرط نشاطها، إنها الآن تعاني من حرارة اللقاء، وحرارة الصحراء.

***

عَدلت قُبعتها الصيفية حينما عبرت باب الكنيسة وتبسمت للشمس بمودة، لقد انتهى قداس الأحد ولديها مهمات شتى سوف تؤديها، وكذلك خطة واحدة تأمل أن تنفذها، ولذلك سرعان ما تأبطت ذراعي توماس وماركو ولزمت التبسم بشدة فيما تسلك معهما الدرب المؤدي للمنزل، والمتجر، وحسين.

لقد تناست فجيعتها بالنظر لجانبها الإيجابي، ولم يضافرها على ذلك إلا وجود حسين بالجوار، أينعم لم يتحدثا كثيرًا بالفترة المنصرمة، ولكنهما اكتفيا برؤية بعضهما البعض ليتفقدا الأحوال، ومن الحين للآخر كان حسين يسهر لوقتٍ متأخر

بالمساء رغم كساد العمل، ليتبادل الهمسات معها أثناء تواجدها بشرفة غرفتها، كانت أقصر اللحظات تحييهما ساعات تالية حتى يعودا للبحث عن خصلة هاربة، أو نظرة متوارية، أو حتى همسة لا تسمعها الرياح.

توقف ثلاثتهم عند التقاطع ولزموا مطالعة موكب العربات الضخمة الذي يغادر الميناء وسط حراسة مشددة، وضيق توماس عينيه وهو ينوه بثقة فيما يستند لعكازه:

- "السلاح الأميركي لا ينفك يصل للبلاد، يبدو أن موقفنا يتحسن".

حرك ماركو يديه بعصبية وهو يعقب:

- "النساء يعملن بمصانع السلاح، والرجال يحاربون على الجبهات، ولم يبق سوى أن يحمل الأطفال الذخيرة ليعيدوا تعبئة المدافع، لا يوجد موقف يتحسن، إنه عالم همجي وما يزيد قبحه أن الكل فيه يدعي الحضارة".

أمسكت كارلا يده حتى تهدئه وهمست برقة:

- "لا تزعج نفسكَ يا عمي كي لا يرتفع ضغطكَ، نحن لا نملك إيقاف الحرب".

بدأ ماركو يجتاز الطريق وهو يصحح:

- "بل نستطيع ولكننا شعوب جبانة تسير خلف السياسيين كالخراف، وهم لا يريدون إلا الاستحواذ على كل الثروات لأنفسهم".

لم تسرع كارلا خلفه وبقيت تسير الهُوينا لجوار توماس الذي غلبه الشرود منذ رؤية السلاح، وحين لاحظت الانزعاج على قسماته بادرته بلين:

- "انزعاجكَ لن يغير شيء يا أخي، ما حدث قد حدث".

رسم ابتسامةٍ مصطنعة على شفتيه، وغمغم وهو يصعد الرصيف حيثما ينتظرهما ماركو المتعجل على فتح الحانوت:

- "لست منزعجًا، ولكنني أريد أن تنتهي الحرب لنشعر بالأمان مجددًا".

عادوا يسيرون في صمت، ولكنهم توقفوا بعد عدة خطوات حينما شاهد ماركو أحد أصدقائه اليونانيين يقترب منهم في غبطة، وكانت الجالية اليونانية في الإسكندرية قد باتت تعرف توماس حق المعرفة، بل يراه البعض بطل حرب مغوار، وهذا الصديق كان أحدهم، ولذا همس ماركو فيما يخرج مفاتيح المتجر ويمدها لكارلا:

ـ "اسبقينا للمتجر يا عزيزتي، فهذا الرجل ثرثار وسيوقفنا طويلًا".

هزت رأسها بالطاعة وغادرت بعدما قدمت التحية للرجل الغريب، وظلت تسرع الخطى ناحية المتجر فيما تراقب مطعم حسين، وحين اقتربت، عادت تُهدئ سرعتها تدريجيًا لتستكشف الوضع.

"ابدئي التنفيذ يا فتاة".

رفعت سلسلة المفاتيح حينما انتصبت قبالة الدكان، وبدأت تقلبها بحثًا عن المقلاد المراد، وحينما عثرت عليه بدأت تفتح الأبواب مُصدرةً أصوات مزعجة للغاية حتى خرج حسين على آثر الهوشة.

التفتت نحوه قبل أن تدخل وابتسمت بعذوبة فتبعها على الفور وهو يُبدي ابتهاجًا، وحين بات داخل الحانوت بادر باشتياق:

ـ "لقد انتظرت عودتكِ طويلًا، كيف أنت؟"

نزعت قبعتها الكبيرة ووضعتها على المنضدة فيما تجيب:

ـ "بخير حال، ولكنني منزعجة لأنني مقيدة بسبب عمي وتوماس ولا أستطيع التحدث إليك كثيرًا".

نظر حسين نحو خصلاتها التي تطايرت على الفور وهمس بعد حين:

ـ "ماذا إن أخبرتهما أنني أحبك؟"

جحظت عينا كارلا واندفعت الدماء لوجهها حينما ردت:

ـ "ستحدث مشكلات بالطبع، أنا... أنا لا أريد أن يحدث شيء يبعدكَ عني، أي شيء حتى وإن كان هدفه نبيل".

ابتسم حسين لانفعالها، وتساءل بتتيم:

ـ "ألتلك الدرجة تحبينني؟"

استدارت كي لا ينتبه لحُمرة وجنتيها، وهمهمت ببطء:

ـ "بل أكثر، ولا أستطيع إيقاف نفسي، أنا أشعر بأشياء لم أعهدها من قبل، ورغم كل الأحداث المريرة التي تحيطني ما زلت ألتمس السعادة، ألتمسها حين أراك كل صباح".

صمت حسين لحظات ثمينة ثم تساءل بجدية:

ـ "إن طلبتكِ للأبد، أتقبلين رغم اختلافاتنا؟"

شحب لونها مجددًا وتمتمت وعيناها تحملقان بالفراغ:

ـ "أتقصد أنكَ تريد..."

قاطعها ليجيب دون تمهل:

ـ "نعم، أريد الزواج منكِ ولا آبه لشيء سوى هذا، ماذا عنك؟"

كادت أن تجيب لولا دخول توماس وماركو، فعدلت جملتها لتقول:

ـ "شيء آخر غير السجائر؟"

أجاب وهو ينظر لهما بضيقٍ متوارٍ:

ـ "كلا، شكرًا لك، مرحبًا يا توماس، أهلًا يا سيد ماركو، لقد سألت عنكما منذ لحظات".

طالعه ماركو بعينين متفحصتين ثم همهم وهو يسير للراديو:

ـ "واثق أنكَ فعلت، فأنا أعرفكَ جيدًا".

استشعر حسين أن أمره فُضح ولكن هذا لم يقلقه، بل جعله يلتمس وجود حليف، فقال مؤكدًا:

ـ "أنت كذلك فعلًا".

مدت كارلا السجائر له وكانت تراقب ملامح توماس الذي لم ينطق منذ دخوله، وحين وجدته هائمًا التفتت لعمها وتساءلت وهي تنظر لأسفل كي تتفادى عينيه:

ـ "أأخبركما صديقكَ بشيء مزعج؟"

هز رأسه بالنفي فيما يدير مؤشر الراديو، وأجاب:

ـ "لقد عرض على توماس وظيفة محاسب في مصنع أقمشة، ما رأيكَ يا حسين؟"

وضع حسين حساب السجائر أمام كارلا، وأجاب بأدب:

ـ "الرأي يعود لتوماس في نهاية الأمر، ويمكنه أن يجرب".

عقب توماس بعد تفكير وصمت طويلين:

ـ "أنت محق، التجربة لن تضرني، أنا موافق مبدئيًا على العمل".

ابتسم حسين لقراره، فخروجه للعمل سيجعله يترك ماركو وكارلا وحدهما، وهذا سيكون لصالحه، قال وهو يستدير للخارج مبتسمًا:

ـ "بالتوفيق إذن، سأترككم الآن فلدي عمل".

قالها وغادر دون أن ينتظر منهم تعقيب، وقبل أن يتلقى من كارلا إجابة على سؤاله، وبقي أمام متجره يتطلع لرؤيتها، حتى رآها تجلس بعد حين على المقعد القريب من واجهة الحانوت، وتهز رأسها بالموافقة.

****

كانت ليلةٌ العشرين من الشهر دُحمسة لا يوجد بسمائها قمرٌ أو نجوم، ولم يكن هنالك ما يُنير ميناء طبرق سوى أضواء الكشافات الضخمة، وفجأة علا بأرجاء المرفأ صوت طائرات ستوكا الألمانية والتي قدرت أعدادها بالمئات، ولم تمض دقائقٍ من القصف حتى كان الميناء يحترق عن بكرة أبيه، ولأن الهجوم كان مباغتًا وفي وقت لم تكن فيه القيادة البريطانية على استعدادٍ للقتال، لم يملك جنود الحلفاء قبل فرارهم سوى تسميم صهاريج الماء، وحرق مخازن البترول كي لا يستفيد منها روميل، الذي سيعلم بوقتٍ لاحق من الليل أنه رُقي لرتبة مارشال.

****

استفاق روبرت على صوت صافرات الإنذار فنهض حاملًا قنينته ووقف أمام النافذة لينتشي مجددًا، وقد حسبها غارة اعتيادية، ولكنه تمكن من رؤية وهج النيران بعد لحظات، فعلم بما يدور.

ألقى القنينة وهرول عبر باب الغرفة قاصدًا عنبر الفتيات، وكان الكل من حوله يركضون باتجاه معاكس ويصطدمون به في قوة وهلع، ولكنه لم يكن يتراجع، بل كان يشق الحشود باستماتة تتضخم مع الوقت، يجب أن يدرك فيرونا قبل الفيرماخت.

لمح بركضه سيمون واقفًا بالساحة وكان الشرر يتطاير من عينيه فعلم أنه يرغب بالقتال، ولكنه لا يستطيع فعل هذا وسيضطر للإخلاء عاجلًا أم آجلًا، فلم يعره

اهتمامًا وأسرع الركض تجاه وجهته حتى شاهد فيرونا واقفةً أمام عنبرها بملابس النوم، والنعاس باديًا عليها.

خلع سترته العسكرية وألبسها إياها، ودون حرف التقط يدها وبدأ يركض بها نحو الخارج، وحينما شعر أنها لا تستطيع مسايرته في الركض بسبب خمولها، حملها فوق ذراعه حتى حظيرة المركبات، وهناك وضعها بأقرب سيارة، وانطلق بها مبتعدًا عن المعسكر، قاطعًا عمق الصحراء الممتدة، وكان من الحين للآخر يرى سيارةً أو اثنين يفران بالقرب منه.

لم يكن يرغب بالتوقف، ولكن حينما ارتفع نشيج فيرونا لم يتمهل في ضغط المكابح ليتفقدها، وبادر بلهفةٍ يصحبها خوف:

- "لا بأس، نحن بخير، لقد تجاوزنا الخطر والآن سنكمل السير، اصمدي معي وسأعيدكِ للقاهرة".

رفعت فيرونا عينيها الباكيتين لتنظر نحوه، وغمغمت بانفعال:

- "وما الفائدة، قريبًا سيدخل روميل والإيطاليين الحدود المصرية، يجب أن نترك مصر كلها.

تنهد روبرت في استياء وفسر وهو يشير بيديه ناحية الجهات الرئيسية:

- "لا يمكننا ترك مصر، العدو خلفنا باتجاه ليبيا، وفي السودان، وفلسطين سنجد جيش الحلفاء قبل أن يجدنا، وإن فررنا عبر المتوسط فلن نجد على الجانب الآخر سوى اليونان، وفرنسا وإيطاليا، وأنت تعرفين موقف كلٍ منهم جيدًا، لا يوجد ملاذ آمن بالعالم لآخذك إليه!"

قال جملته الأخيرة ببطء وحزن، وبعض العجز المتواري، فابتلعت فيرونا ريقها وألقت بجسدها على صدره الممشوق، وتمتمت بأسى:

- "لقد وجدت واحد فلا تنزعج بالبحث".

خيم الصمت جزئيًا ولم يكن يقطعه إلا صوت تنهداتهما المرتفعة، وبعد دقيقة تراجعت فيرونا وطلبت بلطف فيما تمسك يده:

- "قُد بنا نحو القاهرة".

هز رأسه موافقًا وعاد يشق الرمال بسيارة الجيش، ومع مرور الوقت بدأ جسد فيرونا يرتخي بسبب تأرجح السيارة، فنامت على ساقه كما طفلةٍ داخل المهد، وبدا وجهها ملائكيًا رغم نومها المتكدر، لدرجة أن روبرت علق عينيه عليها طويلًا ولم ينتبه للطريق، وكانت حجته أنه يقود بصحراء فارغة لا يوجد بها زحام، ولكن الحقيقة كانت أنه يود رؤية قسماتها قدر الإمكان.

إنه يشعر باقتراب النهاية المحتومة.

***

بلغ جيش المحور حدود مصر بعد أربعة أيام، وبحلول آخر الشهر أدركوا مرسى مطروح، وهناك تجلى الإرهاق على الجنود بعدما توغلوا طيلة أيام في الصحراء دون راحة، فتوقف الزحف عند قرية العلمين، وكانوا يَبعدون عن الإسكندرية مسيرة ستين ميل تقريبًا.

انتشر الرعب في مصر عمومًا، وفي الإسكندرية على الأخص، ونشبت حالةٌ من الفرار واسعة النطاق، فعمال الموانئ تركوا العمل، والأسطول الراسي بميناء الإسكندرية تم سحبه، ولذلك لم يجد الكثير من الأهالي حلًا سوى النزوح للصعيد للمرة الثانية، وبحلول أول الشهر كانت طرقات الإسكندرية تكاد تكون فارغة.

***

أبت كارلا إلا البقاء بعدما رأت أن الحرب تتبعها أينما ذهبت، وفشلت كل محاولات توماس وماركو في إقناعها، وحينما ملت من إصرارهم هبطت لتفتح المتجر رغم انعدام الزبائن وبقيت تسير داخله في حزن، لقد هربت مرة وفقدت والديها، وبصعوبة عوضتها الأقدار بحسين، فكيف تتركه وتفر.

توقفت عن الحركة وخرجت لتراقب مطعمه قبل أن تتقدم منه بخطى ضيقة، وحين باتت على عتبته، جاست بعينيها في الأنحاء، فلمحت حسين جالسًا أمام مكتبه الصغير، يدخن بعصبية فيما عينيه تطالعان الجريدة بضجر ولا مبالاة.

تنحنحت لتنبه عن وجودها، فرفع عينيه لينظرها بتوق، وسرعان ما نهض ليشعل الأضواء، وبادرها بلطف:

- "من الجيد أنكِ لم تغادري كما الجميع، لقد رأيت الدكان مغلق وظننتكم رحلتم".

اقتربت منه فيما يداها تعبثان بفستانها في توتر، وهمست لما بلغته:

- "إنهما يريدان هذا ولذلك تركتهما وهبطت، أنا لن أرحل وأدعكَ أبدًا".

قطع نقاشهما صوت صافرة الغارة، فهرول حسين ناحية المفاتيح الكهربية لينزلها، وحين عاد بدأ يجذبها لتسير معه حتى وقفا أمام إحدى نوافذ المطعم، وتساءل مكملًا نقاشهما بينما ينظر للطائرات الكثيرة التي تشق العلياء:

- "حتى ولو لأجل حماية حياتكِ؟"

وقفت أمامه ومدت سبابتها لتشير نحوه فيما تجيب بثقة:

- "أنت حياتي".

ران الهدوء بينهما للحظات وكانت أصوات الهواتف المنبعثة من البيوت الفارغة تصل إليهم، فأضافت كارلا بصوتٍ متألم وهي ترتخي فوق المقعد القريب:

- "أنا لا أصدق ما يجري يا حسين، وأرفض أن أصدقه، الكل يقول إن المحور قادم لنا، ولكنني لا أكترث، أنا لم أعد أخاف الموت، ولكني أخاف أن أبتعد عنكَ، سأموت فعلًا إن حدث هذا".

وقف لجوارها لحظات ثم انحنى ليقبل رأسها فيما يهمس بلطف:

- "لن تبتعدي عني، ولن أسمح لأحد بأخذك، فقط اهدئي".

همعت عينيها دون تمهل والتقطت يده القريبة منها، وقالت بإصرار فيما تضغط عليها:

- "عدني بهذا، عدني أنكَ ستكون لجواري حتى يدفن أحدنا الآخر".

جلس جانبها وضغط على كفها بالمقابل حينما عقب:

- "بل سأكون لجوارك بعد هذا أيضًا، الآن اهدئي رجاءً".

بدأت تستكين على كتفه، وكانت عيناها تحملقان بيديهما المعقودتين، وتتمنى في قرارة نفسها ألا يفرق جمعهما شيء، وكان حسين في أوج قلقه، ولكنه لم يبد هذا لها وبقي متماسكًا أمامها كي يطمئنها، فالأمان شبه منعدم بتلك الآونة.

***

سُمي الأول من شهر يوليه لذاك العام، بأربعاء الرماد، لأن قيادة الجيش، والسفارة البريطانية أقدما فيه على حرق الآلاف من الأوراق السرية، خشية أن تقع بأيدي الألمان كما حدث بفرنسا إبان احتلالها.

كان الهواء بذاك اليوم ثقيلًا وخانقًا بسبب رائحة الدخان، والنتف السوداء الناتجة عن احتراق الملفات، فيما كانت البنوك تعاني من حالة زحام لا مثيل لها، الكل يرغب في سحب أمواله قبل أن يصل الألمان ويسيطروا على البنوك.

أما سائقو التاكسي والحنطور والباصات فلم يُشاهدوا عملًا كثيفًا كيومها، فلقد خرجت حشود غفيرة من اليهود العرب قاصدة محطة القطار لتتجه إلى فلسطين هربًا من هتلر الكاره للسامية، وفي المحطة كان الزحام في أوجه، ولم يكن الأشخاص على مختلف جنسياتهم وأديانهم يترددون في دفع رشوة ليحصلوا على مقعد بالقطار المغادر لحيفا.

***

وسط تلك الحشود الغفيرة، كانت أميرة تسعى لإيجاد سالم، وبعد انتظار ليس هينًا، وتفتيش دؤوب، لم توفق في العثور عليه، فاستدارت لتغادر وهي تجر ذيول الخيبة.

أوقفت سيارة أجرة لتعيدها للمعادي، وكانت طيلة الدرب قلقة، وخائفة، ليس لأجل حدث قد تم، ولكن لأن تلك هي طبيعتها في ظل كل ما تعانيه، فكافة الأمور المحيطة بها تدفعها لذلك بدءًا من حالة البلاد، وحتى حالتها الشخصية، ولا يوجد أحد ينسيها ما يدور سوى سالم، إنه بمثابة جرعة المخدر، وكأس الخمر الذي ينقلها لعالم آخر من الانتشاء، واللا وعي.

توقفت السيارة قبالة القصر، فنقدت السائق أجرته، وهبطت بتراخٍ لتدلف.

لمحت سيارة عمها تقف فوق الممشى الإسمنتي، فزفرت بضيق، ونظرت للسماء الملآنة بالنتف السوداء وقررت أنها لن تدخل القصر فقد يكون عاصم هناك.

اتجهت لمقاعد الحديقة وجلست فوق أحدها، وطفقت تفكر بسالم الغائب، لا بد أنه على متن أي قطار الآن، ولن تدركه سوى بالمساء وقتما يُسلم ورديته، وعليها أن تنتظر حتى حينها لتحاول الخروج من جديد للقائه، ولكنها تعلم يقينا أن والدها لن يوافق على مغادرتها مهما كانت حجتها عظيمة، خصوصًا بعدما تدهورت الأوضاع هكذا.

"اللعنة".

ـ "أهلًا يا أميرة".

قطعَ تفكيرها صوت عاصم فانتبهت مفزوعة وحملقت فيه بوجهٍ شاحب كمن رأت شبحًا، وحين تمالكت نفسها صدحت باستياء:

ـ "ماذا تريد؟ وكيف تباغتني هكذا؟"

جلس عاصم دون إذن وأجاب:

ـ "أنا خطيبكِ ولي الحق في التحدث معكِ وقتما أشاء".

عقدت حاجبيها بينما تزمجر، وقالت في نفاذ صبر:

ـ "أنا لا أريد التحدث معك، ولا أريد رؤيتك من الأساس، أنا لا أحبك، هل تفهم؟ أنا أكرهك".

ابتسم ببرود بينما يشعل سيجاره الفاخر، وعقب بلا اكتراث:

ـ "وماذا إذن، يكفي أنني أحبك".

رفعت سبابتها نحوه وصححت:

ـ "أنت تظن هذا، وربما والدي، ولكنني أعلم ماذا تريد جيدًا".

سألها في برود متعمد وهو ينفث الدخان حولهم:

ـ "وماذا أريد؟"

همت بأن تقول: "تريد ثروتي وجسدي ولا شيء آخر"، ولكنها استحت أن تفسر نيته الخبيثة وبقيت تكز على أسنانها في استياء ونفور بالغين، وحين نطقت قالت باقتضاب:

ـ "أنا أحب أحدهم".

رحلت برودة أعصابه، وبدا الغضب واضحًا على قسماته وهو يستفسر بصوت مرتفع:

ـ "ماذا؟ من يكون؟ هل هو أغنى مني؟"

انتصبت واقفة لتنهي الحوار فيما تجيبه:

- "بل أنبل منكَ بكثير، وأنا لن أتركه لأجلك، لقد وافقت كي لا يصاب والدي بسوء، ولكنه الآن بخير، فافسخ تلك الخطبة من فضلك قبل أن أفعل أنا".

تركته وغادرت، فبقي ينفث دخان سيجارته بينما يسب ويلعن، ودام يتساءل: "من الذي تجرأ على تحدي عاصم شوكت؟"

لم يجد إجابة ولكنه لن يهدأ حتى يعلم ولو اضطر لمراقبتها منذ الحين ليعرفه.

***

صَمدت الدفاعات في العلمين، وتمكن الجنرال أوكلينك من تحويل الانسحاب إلى حرب استنزاف ضارية بعدما استهدف خط الإمدادات الخاص بروميل لينهكه مع الجنود داخل الصحراء عبر مهاجمة قوافل الإمدادات بسلاح الطيران، ومع مرور الأيام تيقن روميل نفسه أنه لن يبلغ الإسكندرية، فبات يحافظ على العمق الذي بلغه كي لا يتراجع للحدود مجددًا.

دامت المعارك والمواجهات تتوالى حتى استبد التعب بالجيشين بعد أسابيع من القتال المستمر، وازداد الطين بِلة بسبب الحرارة الشديدة التي ترافق شهر يوليه، فقرر أوكلينك وقف الهجوم مضطرًا، وكان هذا كفيلًا بتحطيم الآمال المصرية والأجنبية، ولكن رئيس الوزراء تشرشل وصل مصر بعد أيام ليرفع من معنويات الجيش، وبغض النظر عن كونه لم يحتمل الحرارة والبعوض، وتوجه لقاعدة سلاح الطيران ببرج العرب قبل الظهيرة ليتناول فطوره هناك، إلا أنه قام بتبديل القادة بعدها، وحل مونتجومري محل أوكلينك، وعرف الأول وسط الجنود بشخصيته القوية المائلة للفظاظة، فلقد ألغى كل خطط انسحاب أوكلينك لدى توليه القيادة، وجاءت معركة علم حلفا، وانسحاب روميل بسبب نقص الوقود، لتؤكد أنه الرجل المناسب بالموقع المناسب.

***

في نُزلٍ رخيص بأحد شوارع القاهرة كان روبرت يفكر في تطورات الأمور، وكانت الدماء تندفع لوجهه طرديًا مع ارتفاع نبضه، وبعد حين ترك مقعده القريب من النافذة الصغيرة، ونهض ليخطو بالأرجاء فيما يُفكر بأمره المعقد.

لقد هرب من الجيش ليحمي فيرونا من المحور، ولكن الموازين تبدلت، وأصبح الأوجب هو حمايتها من الحلفاء الذين سيبحثون عن الرُتب الفارة دون سأم أو ضجر بعدما تصدوا للعدو.

رنا نحو قامتها المُلتفة بملاءة الفراش بينما يفكر في قرار وراح يمشى على سلاميات كاحليه حتى بلغها، ثم انحنى ليزيح خصلاتها المنسدلة على وجهها وكتفها، ولبث يُراقبها طويلًا.

يجب ألا يعرضها للخطر مهما كانت النتائج، سيعود للجيش وسيسلم نفسه، ولكن يجب أن يخبرها أولًا.

جلس على الأرضية، واستند بمرفقيه على الفراش وأراح رأسه فوقهما، ودام ينتظر استيقاظها بصبر الزاهدين، وبتحفز المقاتل، فمما لا شك فيه أنها ستعترض وستغضب، ولكنه لن يتراجع أبدًا فالأمر متعلق بحمايتها.

ارتعشت أهدابها قُرب الظهيرة، وحين رفعتهما كانت قامة روبرت أول شيء تقع عليه عيناها، فتبسمت بحب وهي تقترب منه لتقبله رغم خمولها، وبادرته بتراجعها:

- "وجب عليك أن توقظني بدلًا من مراقبة نومي".

كان جسده متخشبًا فنهض ليتمدد جوارها فيما يعقب:

- "فكرت في هذا ولكنني فضلت التريث، هل ترغبين بتناول الفطور؟"

اعتدلت لتضع رأسها فوق صدره، وتمتمت:

- "كلا، ابق كما أنت، لا أريدكَ أن تنهض أبدًا".

كان صوتها الناعس جميلًا للغاية، كما لو أنه لحن ينبعث من الفردوس، ولكنه رآه مخيفًا ولا يُنذر بالخير، فتطرق للأمر وهو يمرر يده على ظهرها العاري:

- "لقد صد الجيش هجوم روميل وأجبره على التراجع، موقف الحلفاء يتحسن من جديد".

كانت فيرونا قد استكانت بسبب حركاته كما القطط السيامي، ولكنها تراجعت حين فهمت مبتغاه، وحدقت به بعينين ثاقبتين لبرهة قبل أن تبرم بدنها بالغطاء الأبيض وتترك الفراش.

تقمأت ثيابها بسخطٍ بَين، واختفت خلف باب خزانة الملابس وقالت بصوتٍ باكٍ من هناك:

- "كنت أخشى قدوم تلك اللحظة لأنني لم أعرف أبدًا ماذا سأفعل لدى مجيئها، لقد بدأت أخاف من البهجة التي تنتابنا كلما اجتمعنا لأنها لا تنفك ترحل سريعًا وتتركنا بحزنٍ لا يوصف".

نهض روبرت ليواسيها رغم حاجته للرثاء، ولكنه حين بلغها رآها تغلق أزرار قميصها العسكري الذي التقطته من الخزانة عوضًا عن القميص المدني الخاص بالأمس، فاستفسر متعجبًا بينما يقترب منها:

- "ماذا تحسبي نفسكِ صانعة؟"

هتفت لتجيبه بصوت يكاد يفهم:

- "سأسلم نفسي كذلك، أم أنكَ تظنني سأتركك تمضي وحدكَ".

أمسك كتفيها بقوة لتتوقف عن الانفعال، فحملقت بعينيه اللامعتين وقد سكن صوتها المبحوح، وسمعته بإنصات بينما يتمتم بألم:

- "لا أريد ترككِ ولكن أخشى أنني لن ألحق بكِ هذه المرة لأنقذكِ، حين أسلم نفسي سيضعونني على الجبهة في العلمين بلا تمهل، ولن أستطيع العودة إلا حينما تحسم الحرب، قد لا أعود يا فيرونا حتى وإن انتصرنا".

لم يغير كلامه رأيها بل زادها تصميمًا، فقالت وهي تمسك كتفيه بالمقابل:

- "سألحق بكَ أنا وسأنقذك هذه المرة، ستراقبكَ عيناي في المعركة، ولا تنطق حرفًا آخر، لا أبالي إن عشنا معًا أو متنا سويًا، ولكنني سأحرص على ألا تفرقنا الظروف مهما كانت، إن كان هناك ثانية متبقية بحياتي، فأنا سأضيعها في النظر لكَ".

غابت الكلمات عن ذهنه، فلم يملك سوى أن يغمرها في شغف يصحبه قلق، لقد تحققت مخاوفهُ إزاء رد فعلها، ولم، ولن، يتمكن من تغييره.

***

رغم أن الصحراء خالية، وواسعة للغاية لتكون ساحة معركة، إلا أن التلال، والهضاب الممتدة من ساحل المتوسط وحتى منخفض القطارة شكلت عوائق أمام الجيشين المتناحرين، وأضيفت حرارة الصباح، والبرد الزمهرير بالمساء، والكوليرا والبعوض لقائمة الصعوبات، ولكن كل هذا لا يُضاهي حقيقة أن الجيشين

كأنا يُعدان الخطط على مرأى ومسمع من بعضهما الآخر بسبب القرب الجغرافي لموقعيهما، ولذلك استعان مونتجومري بأحد الأخصائيين في مجال التمويه والخداع، وقاما بإعداد الآلاف من الهياكل المزيفة الشبيهة بالشاحنات والدبابات، ووضعوها أمام مرأى طائرات الاستطلاع الألمانية التي تيقنت على الفور أن الحلفاء لا يملكون وقودًا يكفي لتحريك هذا الكم من المعدات، وإن تمكنوا فلا حل سوى دفع هجومهم قدر الإمكان، فالقيام بهجوم الآن ودون إمدادات يمثل انتحار وليس بطولة.

في الليلة التي سبقت القتال جرى تبديل الهياكل المزيفة بمعدات حقيقة وسط الظلام الدامس، وفي الساعة العاشرة مساءً ليوم الثالث والعشرين من أكتوبر، بدأت معركة العلمين، وكان روميل وقتها يتلقى العلاج بألمانيا.

بدأ الهجوم بقصف مدفعي ثقيل باغت الألمان تمامًا، وتبعه هُجومٌ للمشاة كان غرضه تمهيد الطريق أمام الدبابات، وببواكير صباح اليوم التالي كان روبرت يقود طائرته الهالي فاكس فوق رقعة الحرب مع سربٍ صغير لتأمين الدفاع الجوي، ورغم أنه لم يكن مباليًا بالقتال إلا أنه اضطر للخروج بتلك المهمة، وإلا فسيعود للندن مع فرقةٍ من الجنود ليحاكم بسبب هربه.

مكث يتصبب عرقًا، وللمرة الأولى شعر بالتشتت أثناء المعركة، ولم يكن هنالك ما يدور بخاطره سوى فيرونا التي تجلس بأحد الخيام تنتظر خبر انتصاره أو اندحاره.

انتبه على صوت سيمون الذي حذر عبر اللاسلكي:

- "احذر المدافع يا روبرت، ودعنا نستهدف الجانب الشمالي كما تنص الأوامر".

هم روبرت بالتعقيب ولكن سيمون أضاف وهو يصيح غاضبًا:

- "تبًا، لقد أصابوا أحد المحركات لدي".

نظر روبرت لساحة المعركة وكان كل شيء تحته متناهي الصغر كما النمل، ولكنه لمح بريق فوهة مدفع تُوجه نحو طائرته، فمال جانبًا وأدى دورانا بهلوانيًا للتضليل قبل أن يحلق مبتعدًا تجاه طائرة سيمون التي ينبعث من جناحها الأيمن دخانا خفيفًا.

هتف باللاسلكي فيما يلهث بسبب توتره:

- "سيمون، حاذر".

لم يكد يُكمل جملته حتى أشتعل جناح الطائرة، فنوه سيمون وهو يبدي انزعاجًا:

- "سأترك الطائرة وسأهبط بالمظلة".

حذر روبرت بينما يتفقد الوضع بالأسفل:

- "ستسحقك الدبابات فور وصولك للرمال، حلق فوق جيشنا وغادر الطائرة هناك".

امتثل سيمون دون حرف، وبدأ يعدل مساره فيما اللهب يمتد بطول الطائرة مع الوقت، ولما اطمأن أنه صار فوق جيش الحلفاء، ضغط أحد الأزرار فاندفع مقعده نحو الأعلى كرصاصة، وفتحت المظلة خاصته لتنزله للأرض، وبقي طوال وقت هبوطه يراقب طائرته وهي تحلق بعد حدود جيشه حتى انفجرت لأجزاء.

تلقاه بعض الجنود، وكانوا مختلفي الجنسيات من إفريقيا ونيوزيلاندا، وأستراليا، وفرنسا، فنظر لهم ببعض الجنون والسخط قبل أن يركض للمقدمة، وكانت الدبابات المدمرة تملأ ساحة المعركة أمامه لجانب عددًا من المشاة، فانحنى ليلتقط بندقية أحد القتلى، وبدأ يصوب بها يمينًا ويسارًا في غضب وكراهية بينما يصرخ بقوة كالبربريين.

في السماء أُمطرت طائرة روبرت بوابلٍ من الرصاص فاضطر أن يغادرها قبل أن تنفجر، ولكنه لم يندفع للقتال مثل سيمون لدى وصوله للأرض، بل فعل ما يجب فعله بمجرد ملامسته الأرض.

تراجع خلف الصفوف وقد أنهى دوره، ولبث يطالع الجيشين وسيمون الذي تحول لسفاح حرب بطرفٍ دامع، لقد رأى أناسًا يتحولون من ملائكة إلى شياطين بسبب الحرب، وكان صديقه الوحيد آخرهم.

تردد وسط الصفوف خبر مقتل القائد الألماني الذي يحل محل روميل، فارتفعت الصيحات البربرية، وازداد اهتياج الجنود أكثر وأكثر، فركضوا كما المُسيرين ليقتلوا بعزمٍ بالغ حتى غسق الغروب، وحينها توقف القتال وقد حال بينهما الليل لا السَلم.

نهض روبرت حينما تراجع كل الأحياء بعدما لم يحققوا توغلًا أو اقتحامًا، وظل يسير وسط الجثث المشوهة، والممزقة التي كست ميدان المعركة، وكانت عيناه تُطالعان الرمال وقد تناثرت فوقها برك الدم في فزع وندم.

شيئًا ما بداخله لم يعد يتقبل العنف كما السابق، لقد لان قلبه.

لمح بعينيه موكب السيارات الدودج التي جاءت لنقل الجثث، وبخلال دقيقة أبصر فيرونا تهبط من إحدى العربات بعدما لم تتمكن من التريث والصبر أكثر.

وقفت تنظر للجثث المترامية على مد بصرها، وكانت الدموع تنهمر عبر مقلتيها كالشلال خشية أن تجد روبرت بينهم، وقبل أن تبدأ في البحث عنه، تقدم ليطمئنها، وهمس لدى بلوغها:

- "حالي أفضل منهم، لا تقلقي".

استدارت تجاهه وحينما رأته على ضوء النيران المشتعلة بأجزاء الدبابات مدت يدها لتكتم فمها كي لا يرتفع صوت نشيجها، وتساءلت بعتاب بينما تحتضنه بشوق التائقين للحياة:

- "كم واحد قتلت اليوم يا روبرت؟"

هز رأسه على الجانبين وهمس وهو يمرر يده فوق رأسها:

- "ولا واحد، كنت أريد أن أقتلهم جميعًا كي لا يصلوا إليكِ، ولكنني رغم هذا لم أستطع الضغط على زر الضرب، أنا بحالةٍ يرثى لها".

قال جملته الأخيرة وتراجع في وهن حتى سقط على ركبتيه فوق الرمال، وشرع يتنفس باضطراب، فجلست فيرونا أمامه ودامت تمسح وجهه الكالح فيما تصرح:

- "أنت لم تكن بحالٍ أفضل كما اليوم، اليوم أنت إنسان ولست وحش".

عبست ملامح روبرت وهو يعقب:

- "حتى هم ضحايا، أنت لا تعرفين ماذا يحدث بعقل الجندي حين يسمع الغارات ويرى انفجار القنابل، ويحيا وفق قانون البقاء للأفضل عتادًا، الحرب تغسل العقل يا فيرونا، هؤلاء الأموات حولنا لم يولدوا بالجيش، بعضهم كان طبيب، والآخر مزارع، والبعض عامل، أغلبهم جاء ليدافع عن أسرته ووطنه، وبعضهم جاء على

أمل الدفاع عن الإنسانية والحرية، ولكن الدفاع عن الإنسانية لا يمكن أن يطبق بقتل الإنسان، حتى أسوأهم".

بدأ يُحاول النهوض وهو ينبهها:

ـ "ورغم علمي بهذا إلا أنني سأضطر لقتل أحدهم حتى أدرك النجاة، أقتل أو سيتم قتلك، هذا هو قانون الحرب الوحيد".

صمتت فيرونا وكانت البشاعة المحيطة تفتت قلبها، فلم تملك سوى البكاء وقد علقت عينيها على الجنود الذين يحملون الأموات من أطرافهم ليلقوهم داخل السيارة كما لو أن آدميتهم وحقوقهم تلاشت بوفاتهم.

وقف روبرت أمامها وهمس بينما يمد لها يده لتنهض:

ـ "دعينا نعود فلا بد أنهم نصبوا الخيام".

هزت رأسها بالنفي بعدما انتصبت واقفة، وتمتمت بسيرها للشاحنات:

ـ "عد أنت لترتاح فقد يجدوا أحدهم حي فيما ينقلون الجثث، سأوافيك لدى انتهائي".

تنهد مستسلمًا واتخذ الطريق الآخر ليعود للخيام والكارافانات المنتصبة، وكان يترنح فوق الرمال متوجعًا رغم أنه لم يصب جسديًا، وإنما كان يشكو ندوب روحه وقلبه اللذينِ تضررا هذا اليوم فوق حدود المعقول، وبوصوله المخيم، وجد سيمون واقفًا أمام خزان المياه يغسل دماء الجنود عن جسده الشامخ.

تحرك من خلفه دون أن يبادره، فالتفتت سيمون بغتة ولبث يطالع هيئته المزرية حتى قال:

ـ "أعلم أنكَ تتلاشى التحدث لي، ولكنني لم أخطئ، لقد نفذت الأوامر".

توقف روبرت عن السير وتمتم بألم:

ـ "الأوامر كانت أن نشن هجومً واحدًا بالطائرات، وكان يمكنك العودة مثلي بعدما تحطم السرب، ولكنك ركضت للدماء كالمسعور".

خلع سيمون قميصه الدامي باستياء، وغمره في الدلو ليغسله فيما يقول بصوتٍ محشرج:

ـ "لقد سئمت الخسارة يا روبرت، وإن توقفت الآن فسأموت دون أن أرى ليندا، سأموت بأرضٍ غير فرنسا".

وصمت لبرهة ثم أضاف:

ـ "كنت ستفعل المثل لأجل فيرونا".

نزلت الكلمات على روبرت كالصاعقة، إنه لم يعد يحتمل كل تلك الضغوطات والفظائع، أنفاسه بالكاد تسحب، وعيناه بصعوبة تريا ما يحيطه، وما يزيد الطين بلة هو أن سيمون محق، روبرت قد يقتل أي أحد لأجل فيرونا، مهما كان بريئًا، أو ضعيفًا.

طفق ينظر لكل شيء حوله بعينين مرتعشتين وجسد يترنح قبل أن يفقد الوعي، فلحقه سيمون قبل أن يهوي على الرمال، ورفع كتفه ليضعه خلف رقبته، ثم أحاط خصره وبدأ في السير حتى الكارافان الخاص بالرُتب.

***

بلغ روميل الجبهة بعد يومين، ولكن عودته لم تفلح وحدها دون المؤن في تثبيت الجيش، واضطر للتقهقر حتى قرية سيدي عبد الرحمن بأواخر الشهر، وفي ليلة الأول من نوفمبر شن مونتجومري هجومه الذي سبب خسائر فادحة بجيش المحور، وحينها تيقن روميل بأنه هزم، ولكن جاءت أوامر هتلر لتطالبه بالثبات، ورغم هذا لم يدم الثبات طويلًا، فلقد انسحب روميل بالرابع من نوفمبر، وكان جيش الحلفاء يطارده بالصحراء الليبية دون شفقة أو تريث حتى وصل تونس ليحتمي لدى حكومة فيشي المسيطرة هناك، وفي غضون أربعة أيام قامت بريطانيا وأميركا بإنزالٍ ضخم في المغرب والجزائر، تحت اسمٍ رمزي يدعى الشُعلة، وكان هدفة قتال المتمردين من حكومة فيشي الفرنسية التيّ نشأت عقب سقوط فرنسا، والموالية للألمان منذ وقتها.

استُقبلت السفن المقاتلة بوابلٍ من مدافع المقاومة وقُتل الآلاف طيلة يومين حتى تم الإنزال بنجاح، وجاءت الأخبار تصرح أن الحلفاء أنهوا المقاومة الفيشية في المغرب والجزائر ويتأهبون لدخول تونس، وفي هذا ربحٌ كبير للحلفاء، ذلك لأن المسافة بين تونس وإيطاليا لا يفصلها إلا البحر التيراني.

***

حظيت مصر بسعادة الاحتفال قبل أن يمضي العام، وليلتها كانت أميرة بغرفتها تتهندم وقد أشارت الساعة لكونها العاشرة مساءً.

نظرت لفستانها المزركش حين انتهت، وابتسمت بحيوية قبل أن ترتدي المعطف الطويل فوقه، وسرعان ما حثت الخطى نحو باب الحجرة، لا بد أن تُسرع فسالم ينتظرها قرب جروبي.

طلت برأسها عبر مدخل الغرفة وراقبت الرواق بعينيها السوداوين قبل أن تتسلل نزولًا، وحين بلغت الحديقة المعشوشبة، توارت خلف غطاء الأشجار حتى قفزت عبر السور برشاقة كي لا يراها البواب، ولم تتمهل في إلقاء نفسها أمام أول سيارة أجرة لتوقفها بالإجبار.

ضغط السائق مكابحه ودام ينظر لها في سخط وما كان منها إلا أن دلفت للسيارة وقالت:

- "اعذرني ولكنني متعجلة للغاية، أوصلني لجروبي".

تمتم السائق وهو يتحرك بها:

- "كنت سأتوقف دون أن تفعلي هذا، أي جروبي؟"

كان هناك اثنان، أحدهما بشارع عدلي والآخر بميدان سليمان باشا -طلعت حرب حاليًا- فقالت أميرة وهي تنظر عبر النافذة:

- "القريب من الميدان".

زاد السائق سرعته وقد فهم مبتغاها، ولم تغلق هي النافذة رغم الهواء البارد المندفع نحوها، بل أخرجت جزءًا من يدها وبقيت تقاوم به الهواء في طفولية بحتة، ولم تنتبه وسط سعادتها للسيارة التي تراقبها من مسافة أمتار.

توقف السائق بالوجهة فهبطت بعدما نقدته الأجرة وإكرامية تساويها كتعويض عن إيقافها المباغت له، وطافت بالأرجاء بحثًا عن سالم حتى شاهدته واقفًا أسفل عمود إنارة وقد بدى مليح القسمات فوق العادة.

توقفت أمامه وبادرت بشيء من الخجل:

- "تبدو وسيمًا".

أمسك يدها وبدأ يحركها لتدور بينما يعقب:

- "لا أقاربكِ ولو قليلًا، ولكنك متأخرة كالعادة".

- "أعتذر عن هذا، فلقد انهمكت في التزين، لقد أصبت بالدوار".

توقفت عن الدوران حين شعرت بدوخةٍ بسيطة، وبقيت تراقب الميدان الذي يهتز أمامها، وكان الكل فيه يحتفل، سواء مدنيين عرب، أو أجانب، وحتى جنود الجيش كانوا يتحركون بأفواج وقد ارتدوا ملابسهم العسكرية ليجذبوا النساء.

تمتمت مبتسمة:

- "لقد تجاوزنا الحرب يا سالم، أنا مسرورة للغاية".

بدأ يسير معها فيما يؤرجح يدها وكان يعقب بتفاؤل:

- "أشعر أننا سنتجاوز كل العقبات، بل لدي يقين بهذا".

ضحكت أميرة وهي تضيف:

- "أنا أيضًا أشعر أننا نزداد اقترابًا كلما حاولت الظروف إبعادنا، أظننا علقنا ببعضنا البعض وقضي الأمر يا حبيبي".

شعر بالحرارة رغم برودة الهواء، ولم يُعقب فاستطردت وهي تصفق بيدها:

- "لقد أخجلتكَ، هل تعرف الآن كيف يكون الشعور؟"

نظر لها بصبابة متفجرة وأجاب بهدوء بينما يومئ برأسه:

- "إنه شعور جيد، خصوصًا بهذا الوقت من العام".

تأبطت ذراعه كي لا يرى تورد وجنتيها، وأراحت رأسها على كتفه وظلا يتجولان على غير هدى حتى سمعوا المارة وهم يبدئون العد التنازلي للعام الجديد، فتوقفا ليشاهدا الألعاب النارية وهي تنطلق نحو السماء لتنير الظلمة التي خيمت على نفوسهم طويلًا، وحين بدأ العام الجديد تمتمت أميرة بينما تضغط على قبضته:

- "عامك سعيد يا حبيبي".

ابتسم لجملتها اللطيفة، ورد بحب بضغطه على يدها:

- "سيكون كذلك ما دمتي لجواري، فأنتِ سعادتي، أنا أحبك جدًا".

- "وأنا أيضًا أحبك".

كان الموقف لا يحتاج منها ذكر اعترافها لعاصم وإلا فسد، فعادت ترتخي على كتفه ببطء بعدما علقت عينيها على المارة الذين يحتفلون ببهجة، وبقيت السيارة المراقبة واقفة قرب الناصية دون أن يهبط منها أحد.

ولكن من الحين للآخر كان هناك وميضٌ ينبعث بداخلها، بدا كوميض آلة تصوير.

١٩٤٣

"حصون فؤادي هدمها حبك بغمضة عين، ولا عجب في هذا فحبك جارف، العجيب هو أنني لم أعد أقاوم هجماتك، ولم أعد أعارض الأمواج، لقد بت منساقة لها تمامًا، أنا أرغب في الاستسلام".

من خطابات كارلا إلى حسين

وضعت القفاز الذي حِيكَ لتوه مع إبرتي التريكو على المنضدة، ونهضت صوب الشرفة مبتسمة بينما تفرك راحتيها المتجمدتين، والمرتعشتين.

الطقس بارد للغاية ببدايات العام، فالهواء القادم من المتوسط يكاد يقتلع أحواض الزهور من مكانها، ولكن مشاهدتها للسكان وهم يعودون من نزوحهم الذي طالَ شهورًا أنساها الصقيع.

لقد تحسنت الأمور في مصر منذ معركة العلمين، وللمرة الأولى منذ إعلان الحرب ينام الناس مطمئنين رغم الأضواء المنبعثة عبر بيوتهم نحو السماء.

لقد عادت الأمور لطبيعتها ولم يعد هناك شيء بالأعلى سوى الطيور، والسُحب الداكنة، وليس الطائرات المخيفة والقنابل.

تبعت موكب السكان بحدقتيها حتى اختفى قرب المنعطف القريب من شارع سستر، ثم علقتهما على مدخل المطعم منتظرة أن يطل حسين، وحين مر الوقت ولم يفعل، التقطت مِشبكًا خشبيًا من السلة القريبة، وقذفته نحو الواجهة بكل عزمها، ولم تمض لحظات حتى شاهدته يخرج لالتقاطه، وعلى وجهه ملامح السرور.

لوحت له مبتهجة، فبادرها التلويح في الخفاء قبل أن يقذف المشبك إليها ويطلب منها الهبوط، فوضعت إبهامها على عُقلة سبابتها لتنوه أن الأمر لن يأخذ دقيقة، وتراجعت للحجرةُ في حماس لتلتقط الشال الصوف من فوق المشجب وحين وضعته على كتفيها، تناولت القفاز من فوق الطاولة وغادرت غرفتها ركضًا قاصدة عمها ماركو.

بلغته تلهث وبادرت دون أن تلتقط أنفاسها:

ـ "صباح الخير يا عمي، سأتوجه للميناء لأجلب رطلين من سمك القاروس حتى أعد الغداء، أم أنكَ تريد صنفًا آخر؟"

سَعل ماركو قبل أن يجيب ممازحًا:

- "لا تبالي بأمري، فحين أجوع سأتناول أي شيء حتى الصدف".

اقتربت منه وهي تضحك لدعابته والتقطت كوب الماء القريب من الكانون ومدته نحوه ليشرب بينما تسأله:

- "تبدو شاحبًا، أأصبت بالزكام؟"

أومأ برأسه ليؤكد هذا، وعقب مطمئنًا وهو يضع الكوب مكانه:

- "البحر قريب من شارعنا، لذا الإصابة بالبرد عادية، جسدي هو الذي شاخ ولم يعد يقاوم".

قالت كارلا وهي تربت على يده:

- "سأبقى إذن وسأعد لكَ بعض الحساء الدافئ فالسمك سيزيد تعبكَ".

ابتسم لاهتمامها ونظر بعينيها طويلًا وكان يعلم أنها لم تكن ستخرج لأجل السمك، بل للقاء حسين ورغم ذلك قال:

- "أعدي كلاهما، فتوماس بحاجة للتغذية، ولكن لا تتأخري فقد تُمطر".

هزت رأسها موافقة، وأطلقت ساقيها للريح، وظلت تركض بالطريق الفارغ وتقاوم الهواء حتى شاهدت حسين جالسًا عند الزاوية وقد عقد يديه لصدره وبدا عليه الارتعاش.

نظرت للقفاز الأسود بابتسامة فلقد صنعته بالوقت المناسب، وبادرته فيما تضعه على يده:

- "أخبرني إن كان سيدفئك".

نظر للقفاز بدهشة العائد من الشرود، وحين أعاد الجملة برأسه رد بهدوء:

- "سيدفئني لأن يديكِ صنعتاه، وليس لأنه من الصوف".

نهض بينما يرتديه ونظر لوجهها المبتهج لإطرائه وأضاف برقة:

- "أترغبين بتناول بعض الشوكولا الساخنة؟"

لقى سؤاله ترحابًا كبيرًا فلقد لمعت عيناها العسليتان كما الأطفال، وبقيت تهز رأسها بالموافقة دون حرف، وحين بدآ بالسير قاصدين أحد المقاهي المصطفة، تساءلت بحيرة:

ـ "أتظن أن عمي ماركو يعرف بشأننا؟"

ـ "بل أنا متيقن، وما يسعدني هو أنه لا يبدي انزعاجًا، أظنني قد أتحدث معه ليقنع توماس".

وقفت أمام المقهى ذي الواجهة الفرنسية الملمح، وعقبت بأمل:

ـ "أظن أن توماس لن يمانع، ولكن ماذا عن سالم شقيقك، أنت قلت من قبل إنه تخرج من الأزهر، ولا بد أنه سينزعج لأنكَ ستختار زوجة مسيحية".

تقدم للداخل وهو يضحك، وسحب لها كرسي المنضدة بينما يهمس:

ـ "شقيقي الأصغر لن يعترض على فعلٍ لي".

جلست في صمت فارتخى أمامها، واستطرد بتأمله قسماتها الملائكية:

ـ "الحب ليس عنصري يا عزيزتي، فهو لا يبالي بأي شيء سوى قلبٍ يعيشُ فيه، ولقد سكن حبكِ في قلبي منذ رأيتكِ، لقد أحياني حبك من جديد".

أعادت خلصتها التي يعبث بها الهواء لخلف أذنها، وتمتمت بحياء:

ـ "أنا أريد أن أحيا معكَ اليوم قبل الغد".

تساءل باقتراب النادل من طاولتهما:

ـ "ماذا إن حُررت اليونان، هل ستتمنين العودة؟"

تجمدت بجلستها وأخذها التفكير في كل شيء عن وطنها، وبتلك الأثناء طلب حسين الشوكولا الساخنة وانصرف النادل، وبقي ينتظر ردها بفارغ الصبر حتى سمعها تُجيب:

ـ "ليس لأجل شيء سوى زيارة والدي ووضع بعض الزهور فوق قبريهما".

مد يده نحو كفها الموضوع فوق الطاولة، وقال بجدية:

ـ "لن أمانع بذهابنا لهناك بأي وقت، ويمكننا تحديد إجازة سنوية لنقضيها في اليونان، أنا لا أطلب منكِ إنهاء حياتكِ القديمة لأجلي، أنت فقط ستكملينها معي".

رفعت يدها الأخرى لتضعها فوق يده، وأنزلت جبهتها حتى وضعتها على الطاولة وهمست:

- "أنا أتوق لكتابة فصولها التي تتضمنكَ، صدقني".

رفعت رأسها بغتة لتنبه قبل أن تنسى بسبب السعادة:

- "تذكر أن نجلب رطلين سمك من الميناء قبل عودتي، إنهما حجة الخروج".

هز رأسه موافقًا رغم أنه سينسى كذلك، ولكنه لن يجد مشكلة في نسيانه، فالسمك لديه بالمطعم.

***

تغير مسار الحرب منذ هزيمة المحور في مصر، وكانت معركة ستالينغراد التي دارت على الجبهة الشرقية بين الجيشين اللذين حاربا جنبًا إلى جنب في بولندا قد انتهت بهزيمة الجيش السادس الألماني أمام السوفييت، وبدأ الانسحاب في بدايات فبراير.

كان أول شيء فعله روبرت بعد حرب العلمين، هو تقديم استقالته لمقر القيادة بالقاهرة، ولكنها رُفضت على الفور وقوبلت بالنقد اللاذع، فجيش الحلفاء بحاجةٍ لكل جنديٍ مقاتل، وهذا ليس الوقت المناسب للانسحاب، فهناك خطط كثيرة تُدبر ووقت تنفيذها بات قريب، ولذا لم يحصل على شيء سوى إجازة غير معلومة المدة، تنتهي حين يتم طلبه، وعليه سَكن في إحدى الشقق التابعة للجيش، حتى يسهل استدعائه.

لم تكن فاخرة للغاية، ولكنها كافية لتتمكن فيرونا من زيارته فيها، ومنعزلة بحيث تسمح بمبيتها أحيانًا دون ملاحظة الأهالي أو الجيش.

ذات يومٍ شبه دافئ بمنتصف فبراير، استيقظت فيرونا مُبكرًا فتركت الفراش الوثير ونهضتً لترتدي قميص روبرت، ومن ثم توجهت للمطبخ كي تعد بعض الشاي الصباحي لأجلهما، ولما عادت وضعته على الطاولة الموجودة قرب الفراش، وبدأت توقظ روبرت عن طريق تقبيل وجهه تباعًا.

فتح إحدى عينيه لينظر لها، وتمتم بخمول وهو يمسك يدها لترتخي جواره:

- "طريقتكِ في إيقاظي رائعة للغاية، يجب أن توقظيني هكذا لأعوام حتى يخرج صوت نفير الجيش من أذني".

رفع رأسه ليضعها فوق ساقها، فظلت تمرر يدها على وجنته ورأسه بحنو قبل أن تهمس:

ـ "سأفعل دائمًا فلا تقلق".

كانت الغرفة مُنارة بواسطة ضوء الصباح البرتقالي، وكانت الإضاءة تتحول للأبيض كلما مرت سحابةٍ أمام قرص الشمس، فظلا يتابعان الضوء المتقلب كما الطقس حتى أضافت:

ـ "لنحتسي الشاي قبل أن يبرد، فالطقس شبه بارد".

اعتدل روبرت لجوارها واستند لظهر الفراش، فبدأت تلتقط الفنجانين من فوق الطاولة تباعًا، وحين بدأت ترتشف تساءل روبرت في اهتمام:

ـ "هل نمتِ جيدًا؟"

ـ "آها، حتى النخاع، أنا اشعر بالخمول في الشتاء تحديدًا".

تثاءب وهو يعقب بحزنٍ متوارٍ:

ـ "وأنا أيضًا، ولكن الخمول يزيد حين تكونين معي".

وضعت الفنجان الفارغ وضحكت بقوة ثم نظرت إليه فوجدته عابسًا، أمسكت وجنتيه براحتيها وتساءلت في قلق متفجر:

ـ "ما الذي طرأ فجأة؟ أنت لا تبدو على سجيتك".

تنهد بقوة، ثم ابتلع ريقه وفسر فيما يغمض عينيه:

ـ "لقد تذكرت الكوابيس التي تنتابني، نفس الوجوه الدامية، والأشلاء، وهذا الشاطئ الذي لا أعرفه، وموتي".

جحظت عينا فيرونا ووضعت إصبعها على فمه لتصمته، فأضاف رغم هذا:

ـ "أنا أشعر باقتراب أجلي يا فيرونا".

دمعت عيناها وغمرته بقوة فيما تصيح بانفعال:

ـ "كُف عن قول هذا، سنكون بخير حال!"

قطع حديثهما صوت طرقات على الباب الخارجي للشقة، فحدق كلاهما بالآخر وكان روبرت يعرف من الطارق دون تخمين، فقال وهو يرتدي ثيابه:

- "سأستلم مذكرة الاستدعاء وسأعود على الفور".

تابعته بينما يتجه للباب، وراقبته يعود بورقةٍ بيضاء كبيرة بعدما انصرف الجنود، فاستفسرت وهي تعقد حاجبيها باستياء:

- "متى ستغادر؟"

جلس على حافة الفراش وأجاب برهبة لم تزره قبل تلك الفترة:

- "مساء الليلة، أنا آسف يا عزيزتي، ولكنك تعلمين".

اقتربت منه ببطء وقبلته لتهدئه، وحين تراجعت همست مخففة:

- "ما زال هناك فسحة من الوقت حتى المساء، دعنا نتناول الفطور الآن وتناسى كل شيء".

هز رأسه مؤيدًا وبدأ ينهض معها، فلو كان الباقي من عمره لحظة، فمن الأفضل أن يغتنمها برفقتها، بدلًا من البكاء فيها على قسمته.

***

وضعت أسطوانة كلاسيكية فوق الجرامافون وشرعت بتشغيلها والدوران في أرجاء الغرفة كما الفراشات، وكانت بَسمتها العذبة تكاد تُرى من على مسافة ميل بسبب تمدد شفتيها المَفرط، إنها بمزاج جيد للغاية رغم صعوبة ظروفها الاجتماعية، وما يزيد بهجتها هو أنها ستتمكن من العودة للجامعة طيلة الفصل ما دامت الحرب انتهت وباتت الأوضاع مستقرة.

سَمعت طرقًا على الباب فتوقفت عن الرقص وتساءلت وهي تضع يدها على صدرها المتوتر:

- "من الطارق؟"

أجاب صوت مدبرة المنزل المألوف لها:

- "رُستم باشا يطلبكِ يا أميرة هانم".

فتحت أميرة باب غرفتها على مصراعه وقالت:

- "سأهبط خلال دقيقة".

همت المدبرة بالانصراف ولكن أميرة أضافت لتوقفها:

- "أهناك أحد معه؟"

أومأت برأسها وهي تجيب:

- "حشمت باشا، وعاصم بك يجلسان معه في الحديقة يا سيدتي".

أغلقت أميرة باب غرفتها وانسحبت نحو الشرفة، ولبثت تراقبهم للحظات ثم استعدت للهبوط مضطرة، وظلت طيلة توجهها لهم تزفر بضيق، وتتمتم باستياء لنفسها، وحين وقفت أمام ثلاثتهم تساءلت بجمود متعمد وهي تعقد يديها لصدرها:

- "أتريد شيئًا يا أبي؟"

نظر رُستم تجاهها فيما يبرم شاربه، وأجاب سريعًا وهو يمد يده ناحية عاصم:

- "عاصم يريد التحدث معكِ لبعض الوقت، لذا طلبتكِ".

شعرت أنها توضع أمام الأمر الواقع، فهي لن تستطيع الرفض الآن، ولذلك قالت باستياء:

- "فيما يا ترى؟ أنا لا أعتقد أننا نملك نفس الاهتمامات".

نظر حشمت لولده منتظرًا رده، فغادر عاصم كرسيه وأجاب بسيره لها:

- "ستعلمين إن سرتي معي قليلًا، الأفضل أن نتحدث على انفراد، بعد إذنك يا عمي".

- "تفضل يا بني، سأتحدث مع والدكَ حتى تعودا".

اقترب عاصم منها وكان في عينيه نظرةٌ محذرة، جعلت أميرة تشعر بالقلق، وارتسمت على شفتيه بسمةٌ باردة وواثقة، فظنت الكثير من الأمور ووجدت نفسها تسير معه مستسلمة، وحين باتا على مسافةٍ بعيدة عن الطاولة، صرح عاصم وهو يشعل سيجاره الفاخر:

- "حين أخبرتني أن الشخص الآخر بحياتكِ أنبل مني ظننت أنه مليونير شركسي، أو صاحب مصانع مالطي، ولكنني اكتشفت إنه مجرد سائق قطار مصري يتقاضى

ملاليم، ملاليم لا تشتري سيجار واحد كهذا، في الواقع لقد خاب ظني حين علمت أن ذوقكِ متدني لتلك الدرجة".

كاد قلبها يتوقف مع انتهاء جملته، وتلون وجهها بألوان الطيف تباعًا، وكانت صدمتها الكبرى حين شاهدته يخرج من طيات حُلته مَظروف يحوي صورها مع سالم بلية رأس السنة.

ابتلعت ريقها وهي تنظر للصور الخالية من الألوان، وأغمضت عينيها وهي تهمس:

- "هل أخبرت والدي؟"

فتحَ عاصم عينيه على مصراعيهما وحدق بها وهو يعقب بتمثيل ملحوظ:

- "صور حميمة كتلك قد تقتله إن شاهدها، أتظنين أني سأعرض عمي للخطر؟"

نظرت له بضيق ونوهت باختناق واضح:

- "كف عن تلك الألاعيب وأخبرني ما تريد".

- "أريدكِ، وستسلمين لي نفسكِ بإرادتكِ وإلا فأنت تعلمين العواقب، سأسافر لفترة وأريد أن أجدك موافقة على زواجنا بعودتي".

هم بتركها، وقال بسيره:

- "احتفظي بالصور فلدي الفيلم، وتذكري أنني أراقبكما".

تجمدت كتمثال بعدما علقت بصرها على حشائش الحديقة بالأسفل، ودارت بعقلها الكثير من الأفكار والتصورات التي قد ينفذها عاصم إن رفضت عرضه الوضيع، فهو يستطيع تحطيم والدها وسالم بلحظة، وقلبها سيتهشم كالزجاج إن حدث لأيٍ منهما شيء.

***

تغير الطقس بطرفة عين، وبات مخيفًا للغاية تلك الليلة، وبدت الطرقات الممتدة والواسعة، خاوية من السيارات والمارة، إلا من الذين يركضون للمنازل بعدما وضعوا الورق السميك فوق رؤوسهم كمظلات.

السماء تمطر بغزارة وكأنه يوم الطوفان العظيم، فيما البرق يضوي بأرجائها دون تريث، وكلما ضوى، تجلى المُزن المتراكم لوهلة فيبدي خلالها صورة تثير الافتتان والذعر في آن.

وسط صفير الرياح وقعقعة الأبواب الحديدية تمكن حسين من سماع صوت كارلا الذي يستصرخه بلا توقف، فركض لمقدمة المطعم ونظر بالأرجاء حتى شاهدها تقف أمام مدخل المنزل وعلى وجهها الروع.

هرول نحوها غير مكترث بالوحل والبرك التي تكونت بسبب الشتاء، وتساءل بطريقه:

- "ماذا هناك يا كارلا؟"

أجابت وهي تلتفت لتصعد الدرج:

- "عمي مريض للغاية يا حسين، وتوماس لم يصل بعد ولا أعلم ماذا أصنع".

هرول خلفها وهو يقول مطمئنًا:

- "سأهتم بالأمر فلا تقلقي، أين هو؟"

وقفت أمام باب الشقة وكتمت بكاءها ثم أشارت لغرفة عمها، فبلغها حسين بخطى واسعة بعدما نزع حذائه بمقدمة الشقة، وحين نظر لماركو الممدد على الفراش وجده يتعرق بغزارة رغم الصقيع وكان وجهه مُصفرًا كالكركم، وبصعوبة يسحب أنفاسه.

اقترب منه بينما يبادر مطمئنًا:

- "سأتصل بالطبيب على الفور".

رفع ماركو يده ليوقفه، وتمتم ببطء فيما بريق عينيه يَخفت كمصباح نفد زيته:

- "اقترب يا حسين، فلا يوجد وقت لهذا".

تقدم حسين في رضوخ، وانحني على ركبتيه ليجلس جوار فراشه، وكانت كارلا قد بلغت الحجرة ووقفت ببابها ترقبهما في تحفز.

ـ "لقد وصاني والدكَ قبل موته وطلب مني مراعاتكَ قدر الإمكان، ولكني اليوم أوصيك بأن ترعى كارلا فوق الممكن، المسكينة فقدت الكثير وأتمنى أن أكون آخر من تفقد".

تقدمت كارلا بينما تبكي وهمست بوضعها رأسها على صدره:

ـ "لا تقل هذا يا عمي، إنه زكام لا أكثر، ستكون بخير بحلول الصباح".

ابتسم ماركو وهو يضع يده على رأسها، وعقب بتراخٍ:

ـ "سأكون كذلك يا كارلا، وحين أرى والديكِ سأخبرهما أنكِ تشتاقين لهما".

التفت نحو حسين وأضاف بعينين مرتعشتين:

ـ "هل ستنفذ وصيتي؟"

هز حسين رأسه بالإيجاب وكان وجهه مكسوًا بالألم، وكان هذا آخر شيء رآه ماركو، وبعد وهلةٍ لاحظت كارلا أنها لم تعد تسمع صوت خفقات قلبه، فرفعت وجهها لتتفقده، وسريعًا صرخت بقوة حين لاحظت عينيه المحدقتين بالفراغ.

أغلق حسين جفنيه، وغطى جسده بالملاءة وتوجه نحو كارلا بإسراع، وهمس بطرفٍ هامع:

ـ "تماسكي يا كارلا، لقد رحل مبتهجًا، وبكاؤكِ لن يعيده".

هوت على المقعد وهي تعقب بحسرة:

ـ "كيف لا أبكي وعائلتي نقصت مجددًا، كل من أحبهم يموتون يا حسين، أنا نذير شؤم".

أمسك يدها وضغط عليها بقوة وهو يذكرها:

ـ "لا تقولي هذا، إنها مشيئة الله، وأنا ما زلت حيًا وكذلك توماس".

بالكاد أضاف جملته الأخيرة قبل أن يظهر توماس بمدخل الباب، ولم يكد الأخير ينظر لهم وللجسد المسجى على الفراش حتى تفهم ما يجري.

بعد لحظات من التجمد والصمت، بدأ يتقدم لجثمان عمه ببطء، وشرود المصدوم، فنهضت كارلا لتواسيه رغم بكائها غير المتوقف، وكان توماس يتمتم:

ـ "آوه، عمي العزيز، لقد رحلت دون وداعي".

ربتت كارلا على ظهره، فالتفت نحوها بتماسك ونبه:

ـ "سأتجه للكنيسة لأحضر الأب، يجب أن يدفن حسب الطقوس".

تقدم حسين منهما وهمس عارضًا:

ـ "سأرافقك إلى هناك".

هز توماس رأسه بالنفي وقال برجاء:

ـ "ابق مع كارلا حتى عودتي، لن أتأخر".

كفكف دموعه واجتاز الأبواب بعجالة فنظرت كارلا لعمها، واقتربت لتمسك يده قبل أن يأخذه الأب وخادمي الكنيسة ليُعنوه، وكان حسين منشغلًا بأمرٍ آخر.

أمر الوصية التي لا تتعارض أبدًا مع غايته.

****

زخات الأمطار كانت هادئة في القاهرة ولكن لا يُثق بها، فشهر مارس عُرف دومًا بتقلبه، وكان سالم جالسًا تلك الليلة فوق حافة رصيف القطار غير مبالٍ بملبسه الذي تبلل، ولا بالقطار القادم من بعيد، والذي لا ينفك يطلق الصافرة باقترابه السريع لينبهه، إنه شارد في أمرة وقلقٌ بخصوص أمور أميرة التي لم تظهر منذ فترة.

صرخ أحد الأشخاص وهو يلكزه:

ـ "اسحب قدميك يا أفندي فالقطار قادم".

انتبه سالم وتراجع بسرعة قبل أن يقطع القطار ساقيه بدخوله الرصيف، ونهض بعد لحظة قبل أن يجتمع المسافرين لركوب القطار، وغادر المحطة بخطى مترنحة وقلبٍ مفتت، وذهن مشغول.

كانت حالته سيئة للغاية، فهو لا يملك أن يزور أميرة ولا يعرف عنها شيء، اتصاله بمنزلها مخاطرةٍ كبيرة قد تنتهي برد والدها نفسه، وذهابه لهناك لن يمكنه من رؤيتها بسبب اتساع الحديقة، وبعد شرفتها عن الشارع الخارجي.

هام على وجهه بطرقات القاهرة شبة الفارغة، والتي بدت كئيبة بعينيه بسبب الحالة الرمادية التي تغلف كل شيء، بدءًا من السماء ووصولًا لمشاعره نفسها،

وحين شاهد أضواء البنسيون المعتاد، دخله دون أن يجلب عشاء على غير عادته، ودفع حساب الغرفة لليلة واحدة.

صعد الدرج ببطءٍ الغيلم، وحين دلف إليها هوى على الفراش دون أن ينزع ثيابه، وظل يتقرع يمنةً ويُسرى فيما يفكر بحل، ولكن لا حل ما دامت أميرة ترفض الاحتجاج.

إنها تريد قصة حب سهلة، ولكن الأقدار وهبتها قصة ملحمية، لن تربحها إلا بالشجاعة، والمثابرة، وبعد الكثير من العناء.

****

بحلول مايو كان الحلفاء يسيرون بطرقات تونس كما الفاتحين، وكان روميل قد فر لأوروبا على متن آخر طائرة، تاركًا خلف ظهره فيلق إفريقيا الذي قاتل تحت إمرته طويلًا، وبسبب تبعثر الصفوف وغياب الرغبة في المقاومة غير المجدية، استسلم الفيلق، وأعلن الانتصار الرسمي للحلفاء على المحور في إفريقيا بحلول منتصف الشهر، وباليوم التالي كانوا يُرحلون في صفوفٍ طويلة من معسكر بون إلى السُفن التي ستنقلهم لكندا وأميركا، حيث سيعملون بحقول التبغ وغيره حتى تنتهي الحرب.

أما روما، فقد بدأ سُكانها يخرجون في تجمعات واحتجاجات بعدما طفح كيلهم من سياسة الدوتشي موسوليني، الذي يبدو أنه سيجلب الخراب حتى بلدهم، بعدما جند الكثيرين إجباريًا ودفعهم ليموتوا بالخارج، وبدوا عازمين على إسقاط حكومته ليتفادوا الحلفاء الماكثين على الطرف الآخر للبحر التيراني.

****

في ثُكنةٍ عسكرية استولى عليها الحُلفاء، كان روبرت يتفقد المكان بجولةٍ منفردة وقد بدا عليه الإرهاق، لم تكن مهمته التي كُلف بها صعبة، فتأمين النطاق الجوي لجيشٍ يزحف كالنمل ويطارد جيشًا فارًا هي أسهل ما يكون، ولكن الكوابيس لم تتوقفْ ولو لليلة منذ ترك فيرونا، ومعظم لياليه كانت تمر في السهد الناجم عن تفكيره فيهما.

توجه للمبنى القريب ليبحث بأرجائه عن هاتف، ولكن جيش المحور أتلف كل سبل الاتصال قبل رحيله، كما أفسد المعدات، وأحرق المؤن.

"تبًا لأسلوب لا تستفيد ولا تُفيد هذا".

زفر في غيظ، وخرج من المبنى مندفعًا، وبخروجه، اصطدم بأحد الجنرالات الذي تمتم وهو يتقهقر عدة خطوات على آثر التصادم:

- "يا إلهي، لقد صدمتني وكأنكَ دبابة تايجر ألمانية".

نظر لملابسه العسكرية ليعرف رتبته ثم أضاف:

- "لم العجالة يا رقيب أول..."

انتظر منه أن يضع اسمه فغمغم روبرت دون أن يقدم التحية:

- "روبرت يا سيدي، روبرت فيلد".

صمت الجنرال لوهلةٍ مفكرًا ثم تساءل ببريق يلمع بعينيه:

- "لقد سمعت هذا الاسم وأنا بالهند، أخدمت هناك من قبل؟"

هز روبرت رأسه بالإيجاب فوضع الجنرال يده على كتفه وهمس:

- "لقد سمعت عنك الكثير يا بني، وآخر ما سمعته هو أنكَ هربت، من العجيب أن أراكَ هنا".

صحح روبرت:

- "أنا لم أهرب، لقد تقهقرت حتى أندفع للأمام بقوة".

ابتسم الجنرال لرده الدبلوماسي، وقال بجدية فيما يخرج ظرفًا من جيب حُلته:

- "هذه هي الروح المطلوبة، لقد أكدت لي ما سمعته عنك، أنت ساخر وذو عقلية صلبة لا ترضخ لشيء مطلقًا، لذلك لا يمكنني أن أعتمد على أحد ليرسل هذا الخطاب إلى القاهرة سواكَ يا بني، الملاعين أفسدوا سبل الاتصال كلها".

تساءل روبرت وهو يضيق عينيه في شك:

- "ولكن اللاسلكي خاصتنا يعمل جيدًا".

ضحك الجنرال بينما يفسر:

- "زوجتي لا تملك واحد يا رقيب روبرت، أنت ستسلم خطابًا شخصيًا وليس عسكريًا، وستجد العنوان على الظرف، افعلها لأجلي وسأضع خطاب توصية بملفكَ العسكري، ووقتها سيتم التغاضي عن هروبك، أعني تقهقرك!"

لم يبال روبرت بخطاب التوصية، ولكن انفرجت أسارير وجهه، فلقد وجد حجة ليعود إلى القاهرة حيث فيرونا، وهمس فيما يلتقط الظرف بحركة خاطفة:

- "سأسلمه الليلة يا سيدي وسأعود مساء الغد، لا تقلق".

ضحك الجنرال وهو يهز رأسه وقال بلؤم:

- "تسليمه لا يحتاج كل هذا الوقت، ولكن لا بأس، يمكنك الذهاب الآن".

لم يعقب روبرت وركض نحو سرب الطائرات الواقف بفضاء الثُكنة، واختار طائرة من طراز لانكستر ليصل سريعًا دون أن يحتاج للتزود بالوقود إلا لدى عودته، وفيما هو يركض رآه سيمون الواقف مع بعض الجنود فبدأ يركض لجواره وتساءل باهتمام:

- "ألديك علاقة جيدة بالجنرال ألفريد؟"

نظر روبرت صوبه بينما يركض وأجاب:

- "كلا، فأنا لم أعرف اسمه سوى الآن، لماذا تسأل؟"

- "إنه رجل ذو صلات كثيرة، ويعرف أشخاص مهمين، يمكنه أن يجعل وجودكَ هنا أسهل بكثير إن كنت محبب له، لذا لا تضيع صداقته فقد تحتاجها".

هز روبرت رأسه متفهمًا قبل أن يتوقف أمام الطائرة، وتساءل بينما يلتقط أنفاسه:

- "أتريد شيئًا من القاهرة؟"

هز رأسه على الجانبين وهو يرد:

- "آوه، لقد بدأت المميزات تتوالى بالفعل، على أية حال، لا أريد، اهتم بنفسك".

وثب فوق جناح الطائرة بخفة، وأدى التحية العسكرية لسيمون قبل أن ينطلق لأعلى سماء تونس، وحين بات وسط السُحب نظر نحو الأفق مبتسمًا وكأنه يرى فيرونا بغرفة فندقها من على بعد ثلاثة آلاف كيلو متر، بقي فقط أن يصل إليها.

***

حسبت في بادي الأمر أن الفرار هو الحل الوحيد، ولكن بعد مرور أيام قلائل من غيابها غير المفسر، والذي كان هدفه الفراق ولا شيء آخر، شعرت ًأن روحها تُسحب من بدنها ببطء، وأنها لن تحيا لآخر اليوم إن لم تملي عينيها برؤيته، وتهدئ قلبها بمعانقته.

لقد أدمنت وجوده بأصعب المواقف، ولذلك فكرت كثيرًا أن تلجأ إليه لتخبره بمدى وحدتها وحزنها بعد مفارقته، عله يصبرها عليهما!

إنها تجلس على مائدة الطعام البالغة سبعة أمتار، ولا تجد فوقها شيئًا يثيرها لتتذوق طعمه، وكأن كل الملذات بالكون فقدت بريقها بغياب سالم، يكاد قلبها يتفتت من الشوق إليه، والقلق عليه، فهي لا تدري ماذا يصنع الآن، ولا تعلم عنه أي شيء منذ فترة.

انتبهت على صوت والدها المستدرك:

ـ "لماذا لا تأكلين يا ابنتي؟"

غادرت السُفرة وهي تجيب بنفور:

ـ "لست جائعة، سآكل فيما بعد".

نظر لقامتها الهزيلة، ووجهها الشاحب وصرح بنهوضه إليها:

ـ "لقد نقص وزنكِ وشحب لونكِ ولا أدري سبب كل هذا".

نظرت له بغضب وانفعال وهي تصحح:

ـ "بل تعلم ولكنكَ لا تكترث، لقد توفيت من كانت تكترث لأمري ولمطالبي".

كانت تلك المرة الأولى التي يراها تنعي والدتها وتتمنى وجودها بالجوار، فشعر بالخذلان وتمتم في ألم بينما يضرب الأرض بعكازه:

ـ "ماذا فعلت لتقولي هذا الكلام يا أميرة؟!"

أجابته وهي ترتمي على المقعد القريب:

ـ "لقد سلبتني حقوقي الشرعية، فمن حقي أن أوافق على زوجي وفي إرغامي عليه إثم، ألم تفكر بحياتي الحميمة معه لمرة".

وصمتت لوهلةٍ ثم قالت بحياء:

ـ "سأشعر أنه يغتصبني كل ليلة يا أبي لأنني أرفضه كليًا، ولا أحبه".

ابتلع رستم ريقه وصمت لهنيهة ثم عقب وهو يجلس أمامها:

ـ "لم أعهدكِ تعترضين على طلب لي من قبل، ما الذي حدث لكِ يا ابنتي؟"

أجابته باقتضاب:

ـ "نَضجت وفهمت".

نهض رستم وقال بحدة وهو يغادر البهو:

ـ "امتنعي عن الطعام كما شئتِ ولكنكِ ستتزوجين عاصم، أنا أعرف الأفضل لكِ".

دمعت عيناها وشعرت بالألم المفجع، ليس بسبب عاصم وإنما بسبب والدها الذي لم يكترث لكلماتها المتألمة ولا لحالتها السيئة، وتيقنت أنه لا يريد حمايتها كما يرغب بتأمين ثروته، وعليه نهضت في اندفاعٍ غاضب بسبب تركه إياها، وركضت نحو الخارج دون أن تهتم بارتداء حذائها.

هرولت فوق الممشى الإسمنتي لتدرك البوابة المفتوحة، وحين ألقت نفسها داخل أول سيارة تمر، قالت بصوتٍ محشرج وهي تراقب والدها يركض بالحديقة ليبلغها:

ـ "محطة مصر لو سمحت".

انطلق السائق بسرعة قبل أن يخرج رستم ليوقفهما، فأجهشت أميرة بالبكاء وهي تراقبه عبر الزجاج الخلفي للسيارة يلعنها ويتوعدها، وحين انعطف السائق نظرت للأمام بعزيمة، لن تلتفت إليه ما دام لا يلتفت لها، ولا جدوى من التضحية لأجله، ما دام لا يقدم لها أبسط الحقوق.

مكثت طيلة الدرب تتفقد الشوارع بعينين مغمورتين بالدمع، وحين توقف السائق غادرت بعجالة بعدما خلفت بعض النقود.

هرولت لداخل المحطة، وحين شاهدت سالم يقف على الرصيف ساهمًا هتفت باسمه ليلتفت.

نظر نحوها فوجد الوحل قد صنعَ لها حذاءً ترتديه، وكانت العبرات تملأ وجهها المحمر رغم البرودة فركض تجاهها بالمقابل، وحين التقيا رمت نفسها بين ذراعيه وراحت تشكو:

ـ "لقد فسرت له كل شيء سيحدث لي ورغم ذلك لم يبال يا سالم، إنه لا يحبني كما أحبه ولذا هربت قبل أن يعود عاصم ويتزوجني، إنه يبتزني بصورٍ التقطتها لنا ليلة رأس السنة".

لم يفهم سالم شيئًا يذكر بسبب تلهوج حديثها، وبكائها، فراح يربت على ظهرها وهو يهمس:

ـ "لا بأس، سنتعامل مع الموقف مهما كان صعب، فقط توقفي عن البكاء، أنا أشاهدكِ بعد أيام وأريد رؤية بسمتكِ، لا دموعك".

بدأت تهدأ تدريجيًا فيما هو يمرر يده على ظهرها وكانت تعلم أن هناك من يراقب على الأرجح، ولكنها لم تعد تهتم بشيء، وأقسمت بقرارة نفسها ألا تتراجع حتى تظفر به أو تموت في سبيل ذلك، ولذلك همست وهي تغوص بوجهها بين طيات ثيابه:

ـ "أنا لن أتزوج سواك يا سالم، دعنا نستغل غياب عاصم".

تراجع سالم وكذب أذنيه فقال بدهشة:

ـ "ماذا تقولين؟"

فسرت وهي تجفف عينيها:

ـ "والدي لن يقبل بكَ أبدًا ولكنني أقبل، وأنا لن أقبل بعاصم أبدًا ولكنه يقبل، ورغم هذا أنا أحبك وبنفس الوقت مخطوبة لعاصم الذي يحبه والدي، إنها حلقة مفرغة لن تنكسر إلا بزواجنا، هل تتزوجني؟!"

صمت وقد صدمته جديتها، فأضافت بوساوس واضحة:

ـ "الأفضل أن تعلمني الآن بنيتكِ يا سالم لأحدد موقفي، هل ترغب حقًا بأن تتزوجني أم أنكَ مع الوقت غيرت رأيكِ وقررت العدول عن الفكرة؟"

أمسك سالم كتفيها وهو يقوله:

ـ "إن رغبتِ فسأتزوجكِ الآن! ولكن ماذا عن والدكِ؟ أما عدتِ تخافين عليه الصدمة؟"

صمتت لوهلةٍ ثم قالت بعينين مغلقتين:

- "بلى أخاف، ولكني رغم هذا لا أستطيع قتل نفسي ببطء لأرضي أفكاره الخاطئة، أنا أختاركَ بكامل وعيي وإرادتي لتكون زوجي، فليقبل بكَ أو لا يقبل، هذا لن يزيدنا شيء".

أمسك سالم يدها وسحبها للخارج فيما يقول:

- "ليكن إذن".

خرج للطريق وفرحته غير مكتملة بسبب غياب أسرتيهما، ولكن ما من سبيلٍ ليظفر بها سوى هذا، وإلا فستنساب من حياته بمجرد وصول عاصم.

ربما يتقبل رستم الأمر حينما يوضع أمام الأمر الواقع، أما حسين فلا شك أنه سيتفهم الأمر حين يشرحه له حين يصحبها للإسكندرية.

***

تهالكَ على الكُرسي الوثير وشرع ينظر لغرفة الاستقبال الواقعة داخل بيت ماركو الراحل، ثم لزم مطالعة توماس الذي بدا عليه الترقب والاندهاش بسبب هذا اللقاء غير المفسر حتى الآن، إنه متردد في إخباره فلم يمر الكثير منذ رحل ماركو، إضافة للموانع المعروفة والتي قد تجعله يرفض الزيجة قطعيًا ودون تفكير، ولكنه بموقف المواجهة ولا يوجد بقاموس مفرداته كلمتين تسميان تراجع أو فرار.

تنحنح ثم بادر فيما يبتسم لظل كارلا الساقط بعيدًا:

- "من الجيد أنكَ تفرغت للقائي، وسمحت باستضافتي".

رد توماس بينما يحرك ساقه الخدرة:

- "إنه منزلك يا حسين وأنا جارك فلا تقل هذا، أخبرني بالأمر العاجل فلقد أقلقتني كفاية".

ابتلع ريقه ثم قال بسرعة وبهدوءٍ متناهٍ:

- "أنا أحب كارلا وأريد أن أتزوجها".

شَحب لون توماس، واتسعت عيناها في ذهول، وحين هدأت صدمته التقط عكازه ليسير حتى النافذة، وعقب من هناك:

ـ "أتعي ما تطلبه يا حسين؟ أنت تطلب إنسانة مختلفة عنكَ كليًا لتتزوجها، كما أنه ليس الوقت الملائم لمثل هذا الطلب! عمي مات لتوه بحق المسيح".

نهض حسين خلفه وهو يجيب مفسرًا:

ـ "الحزن لا يُمحى إلا بالسعادة، وأنا وكارلا لا نواجه أي مشكلة في اختلاف الثقافة والأفكار، إننا نتبادلها".

التفت توماس نحوه وقطب جبينه بينما يصرح:

ـ "تتحدث كأنكما متفقان على الزواج".

أحنى حسين رأسه وهو يؤكد:

ـ "نحن كذلك يا توماس، فكر في الأمر واستغرق الوقت الذي تريده، سأستأذنكَ الآن".

مكث توماس أمام النافذة ولم يوصله للباب، وبمرور الثواني غلب عليه الشرود بسبب هذا الأمر العجيب، وحين انتبه قرر أن يدخل لكارلا حتى يستفهم، فقطع المسافة حتى صومعتها بإسراع، ولما انتصب أمام المدخل نصف المفتوح بادر فيما يطرقه:

ـ "نحن بحاجة للتحدث يا أختاه".

كانت كارلا بالشرفة تكمل مطالعة رحيل حسين حتى المطعم، بعدما استرقت السمع لمحادثتهما الأخيرة، فتقهقرت للداخل وهي ترد بأدب:

ـ "لنتحدث إذن يا أخي".

ـ "هل ما قاله حسين حقيقي؟"

غضت عينيها وهي تجيبه:

ـ "إنه كذلك، وأنا أحبه يا توماس، أنت لا تعرف كم هو طيب القلب ورائع".

جلس على حافة الفراش وعلق عينيه على السجاد المفترش أسفله، ونبهها:

ـ "ولكنه مسلم يا كارلا، وكل الجاليات المسيحية بالإسكندرية قد تقاطعنا بسبب هذا الزواج".

هزت كتفيها للأعلى وهي تقول بجلوسها لجواره:

- "لا يهم ما دمت على وصال معي يا توماس، أنا لا أهتم سوى بك وبحسين، أنتما عائلتي".

آخذها تحت جناحه بحنو، وتمتم:

- "لطالما دعمتكِ في كل شيء يسعدكِ، وإن كان هذا الزواج سينسيكِ الحزن قليلًا فأنا موافق".

أحاطته كارلا في بهجة، وأحاطه الشرود كذلك، إنه يدري أن شقيقته الصغيرة نضجت لتكون أنثى خطيرة الجمال، وكأنها من نسل ربات الميثولوجيا الإغريقية، وهو لن يستطيع احتواءها بعد الآن، فوحده لن يعوضها أبدًا عن كل ما فقدته.

إنها بحاجة لشخص تكون معه علاقة حميمية أكثر، لا يوجد بثناياها مجال للانطواء، حتى تشكل بعد حين أسرةٍ جديدة بعد تلك التي فقدتها، كما أنه بالكاد يعتني بنفسه بسبب إصابته.

ولكن أسيفهم الجيران هذا؟

***

وضع روبرت فنجان الشاي من يده وعاد يجول بعينيه غير المكترثتين في بهو الفيلا الفسيح، وكانت ساعة الحائط هي أول ما جذب انتباهه، فلقد حدق بها مدهوشًا حين وجدها التاسعة مساءً.

رأى أن الوقت المتاح لديه سيضيع فيما هو ينتظر جواب الرد الذي تدونه مسز ألفريد بغرفة المكتب، فكر أن يطلب فيرونا حتى تتأهب ولكنه عدل عن رأيه سريعًا فهو ما زال ينوي مفاجأتها، ولو كان هناك دقيقة فقط قبل عودته.

سمع وقع أقدام السيدة ألفريد، فنظر نحوها بتحفز، وحين وجدها تقبض على الخطاب بيدها انتصب واقفًا من باب الأدب، تكاد تكون هذه السيدة في عقدها الخامس، فخصلاتها الشقراء الملفوفة خلف رأسها تحوي شعيرات رماديه كثيرة، وكذلك تجاعيد يديها ووجهها باديان ولو قليلًا، ولكن كل هذا لا يجعلها في مظهر المسنة، فوجهها مبتهج بحيوية، وعيناها تلمعان، بل إنها تسرع في سيرها لتبلغ روبرت بسرعة.

مدت له الخطاب بوصولها وقالت بلطف فيما تبتسم:

- "كلانا يرهقك يا ملازم روبرت، ولكننا نعتمد عليك لتكون الوسيط بيننا".

ابتسم روبرت بينما يتناول الخطاب منها وصحح:

- "أنا رقيب أول يا سيدتي وفي خدمتكِ دومًا".

ضحكت مسز ألفريد وبسطت كفيها أمامها وهي تعقب بأسف:

- "لا تعتبرها إهانة ولكنني لا أميز الرتب كثيرًا".

- "يبدو أن كل النساء كذلك".

توجهت السيدة ألفريد لتجلس، وهمست بهدوء وهي تعيد فتح الخطاب الواصل إليها رغم أنها قرأته من دقائق:

- "يبدو من حديثكَ أنكَ تواجه نفس الشيء مع إحداهن، ولا أعرف إن كان لي الحق في قول هذا أو لا ولكنني سأقوله من باب النصيحة، إن كانت تحبكَ رغم كونكَ رجل عسكري فلا تتركها أبدًا ولو أجبرتكَ الأحوال".

وصمتت هنيهة لتنظر نحوه، وحين وجدته هادئًا أردفت:

- "المرأة حين تحب رجلًا لا يكاد يكون حولها فهي بلا شكَ تحبه حد الهذيان، تحب حتى طيفه".

ابتسم روبرت لتلك النصيحة وهمس مبتسمًا:

- "بلا شك يا سيدتي، ولذلك سأقوم بمفاجأتها إن سمحتِ لي بالرحيل".

ضحكت مسز ألفريد وهي تنوه بنهوضها:

- "وأنا لم أكن لأمنعكَ عن هذا، بل سأوصلك للباب".

مشى روبرت معها حتى هناك بينما يبتسم لطيبتها، ولم يكد يعبر المخرج حتى توقف عن السير والتفت ليسأل باهتمام:

- "سيدتي، هل تمنيتِ قط لو أن الجنرال ألفريد يترك عمله ويغادر بكِ لمكان هادئ حتى نهاية عمركما؟"

صعقت مسز ألفريد من سؤاله ولاذت بالصمت للحظات، ثم ارتسم عليها الحزن بردها:

- "أنا أتمنى هذا كل لحظة منذ ثلاثين عامًا".

وصمتت هنيهة لتنتظر للخطاب ثم عادت تقول بنفس الحيوية والسعادة المعتادتين:

- "ولكنني تعلمت أيضًا أن أكتفي بما لدي من واقع، رحلة سالمة يا بني".

ابتسم روبرت لكلمة بني التي بدت له بداية رباط قوي، وقال قبل أن يلتفت:

- "طابت ليلتكِ سيدتي، وشكرًا على الشاي".

ركض لسيارة الجيش الواقفة بمدخل الفيلا، وبدأ يديرها بعجالة ليخرج، وفيما هو يسير بشوارع حي الجزيرة، فكر بالعديد من الأشياء، مثل خطة هروبه، والمكان الذي سيهرب له، والعمل الذي سيمتهنه بهذا المكان بعدما يفر من الجيش، والأهم من كل هذا، تهريب فيرونا معه بسلاسة وحرص، ولأجل هذا الشرط، كان لا بد من انتظار اللحظة المناسبة للتنفيذ.

بلغ فندقها بعدما تاَع الطريق في شوق وتحمس، وحين غادر السيارة، اشترى سلة ورود حمراء من إحدى الفتيات الواقفات على الناصية، وبدأ يدخل في إسراع وغبطة.

ركض فوق السلالم، وعبر الرواق، ولما انتصب أمام غرفتها بدأ يلتقط أنفاسه ويهندم ثيابه، ثم طرق الباب وانتظرها تفتح، ولكن جاء صوتها يهتف بغضب ونفور:

- "لقد أخبرتكم بحق اللعنة أن تأتوا للتنظيف غدًا!"

علم أنها ظنته خدمة الغرف فعاد يطرق بإلحاح وهو يضحك، وحين سمع وقع أقدامها يقترب تراجع للوراء خطوة وأخفى سلة الورود.

فتحت فيرونا الباب مرتديةً منامتها، وكانت تهم بالصراخ ولكنها صمتت حين رأته، وبقيت تحملق به بعدما فغرت فاها غير مصدقة.

تطلب منها الأمر لحظات حتى تفهمه وحين فعلت بدأت تحتضنه بلهفة، وسرعان ما قرت عيناها برؤيته التي تاقت لها ليالي كثيرة.

أحاطها روبرت بيدٍ واحدة وهمس بأذنها:

- "لقد أردت أن أجعلها مفاجأة لذلك لم أتصل".

تراجع للخلف ببطء بعدما قبل وجنتها بحنو، ومد لها سلة الورود بينما يضيف:

ـ "تلكَ لأجلكِ، كيف أنت؟"

التقطت السلة بيدٍ ترتعش لفرط توترها وتلعثمت بينما تجيب:

ـ "أنا بخير، بخير تمامًا".

وصمتت وهلةٍ لتمرخ دموعها المغتبطة، ولتفكر بشيء تقوله أمام مفاجأته التي أفقدتها النطق، ولكنها لم تجد أي شيء فاقتنصت شفتيه بغتة.

حملها روبرت لداخل الغرفة، وحين أدركا الفراش أنزلها بحرص ولبث يراقبها في جذل وقد تناثرت خصلها حول رأسها.

تساءلت بصدر يعلو ويهبط:

ـ "كيف تمكنت من القدوم؟ آخر ما سمعته أنكم رحلتم فيلق إفريقيا اليوم؟"

ارتمى لجوارها وهو يجيب ضاحكًا:

ـ "لقد تطوعت لتسليم خطاب عائلي في بيت الجنرال، حتى أستغل بعض الوقت وأراكِ، سأرحل بالغد قرب الظهيرة حتى أتمكن من وصول تونس مساءً".

ودام الصمت وهلة، فاعتدل ليريح رأسه فوق ساقها وأضاف ببعض المواساة:

ـ "تمنيت لو بقيت أطول، ولكنكِ تعلمين كيف تجري الأمور، لنتحمل قليلًا فوقت هروبنا اقترب".

لمعت عينا فيرونا ونظرت نحوه بتمددها، وسرعان ما تساءلت ببعض القلق:

ـ "أتعني أنكم قد تدخلون إيطاليا؟"

شعرت بهزة رأسه فوق ساقها، وسمعته يفسر:

ـ "جزيرة صقلية هي أقرب أرض إيطالية لتونس، ولا أشك أن هناك إنزال للجنود سيجري هناك".

تنهدت فيرونا قبل أن تعقب:

ـ "الأمر يزداد دموية يا روبرت، فالحرب ستنتقل لقارة أخرى أغلبها محتل من المحور، والمحور سيتصدى بقوة وستكون الخسائر فادحة".

اعتدل روبرت لينظر لها، وقال ببعض الثقة:

ـ "إن أقمت علاقة جيدة مع الجنرال فقد أظل بمصر أغلب الأوقات، أما المحور فقد بات موقفه سيئ للغاية، مقاومتهم لن تتصدى لجحافل الحلفاء، ولا للمعدات التي توردها أميركا منذ دخولها الحرب".

كانت فيرونا قد قررت بتلك الأثناء أن تنهي النقاش بخصوص الحرب وخلافه قبل أن تمضي الليلة فاعتدلت وهي تعقد حاجبيها وقالت:

ـ "دعكَ من هراء الحرب الآن كي لا نفسد الليلة وانهض لتغتسل ريثما أطلب لنا عشاءً، لقد قدمت لرؤيتي من تونس ولا بد أن أرحب بكَ كما يجب".

نهض مستجيبًا بينما يتشمم رائحة حلته العسكرية، وحين وصل لباب المرحاض توقف بغتة وقال بينما يلتفت إليها:

ـ "فيرونا".

نظرت له وسماعة الهاتف بيدها:

ـ "نعم يا عزيزي".

ـ "أنا أحبك كثيرًا، لقد نسيت أن أقولها حين فتحتي الباب ولقد تذكرت الآن وأنا أعبر من هنا".

ابتسمت فيرونا وهي تعقب بخجل:

ـ "وأنا أحبك أكثر، انتعش بسرعة فأنا منتظرة".

دلف للمرحاض بعجالة وأغلق الباب، فبدأت تطلب خدمة الغرف وهي تضيف بتمتمة مبتسمة:

ـ "لقد أحببت مجنونًا".

***

عُقد القران دون أن يحبط خطتهما أحد، ولكنها استمرت تتلفت بسيرها معه كما المطاردين، ولم تهدأ وساوسها إلا بصعودهما القطار، الآن يغيب المراقبون والجواسيس، ولا يبقى سوى قعقعة القضبان التي تعزف لها بُعرسها، ووجهه الخجول المغطى ببعض الشرود.

إنهما لا يصدقان ما فعلاه، ولكن الخاتمين الرخيصين ببنصريهما يشكلان دليلًا دامغًا، يجعلهما يبتسمان ولو قليلًا كلما شاهداهما.

أمسك يدها بقوة فيما جسده يتأرجح مع القطار، ومال علها ليهمس:

- "لقد فعلناها، كيف تشعرين؟"

نظرت نحوه وسحبت نفسًا طويلًا قبل أن تجيبه:

- "لم نُقم زفاف كما البشر العاديين، ولكنني لا أملك الشكوى، ففرحتي تقتصر عليكَ وحدك".

شعر أنها لا تفتقد والدتها وحسب، بل عائلتها بأسرها، ولذا لا بد أن حُزنها عظيمًا ويسلبها الكثير من سعادتها، دار بعينيه ليتصفح الوجوه بالعربة، وكانوا جميعًا من الطبقة المتوسطة والفقيرة، وجوههم هادئة، وقلوبهم راضية رغم ظروفهم، يميزون بين الواجب والإلزام، وهؤلاء أفضل المدعوين دون منازع، ذلك لأنهم يفرحون لغيرهم من صميم القلب، وليس لأجل المصالح والصفقات كما الأغلبية من الطبقة الأرستقراطية.

وقف بغتة ويده ما تزال ممسكةً بيدها وصدح:

- "يا جماعة، لقد تزوجنا للتو، من سيقول مبروك؟!"

لم يتردد هؤلاء البسطاء لثانية واحدة في تقديم المباركة، وسريعًا ارتفعت أصوات النسوة بالزغاريد وبدأن ينهضن لأميرة فيما يُغنين ويُصفقن، وبعفويةٍ صرفه رحن يقبلن خديها واحدةً تلو الأخرى، وشعرت الأخيرة بالذهول التام، فعوضًا عن والدتها وجدت رهطًا يحتفل لأجلها دون سابق معرفة، والأعجب أنهم كانوا يحتفلون بجدية مفرطة واهتمام بالغ، لدرجة أن إحدى البدويات المسافرات صممت أن تنقش الحناء على يديها، ولم يتركنها إلا حينما وصل القطار، وهبطوا منه جميعًا لتتفرق سُبلهم.

تأبطت ذراعه حتى الطريق، وبانتظارهم سيارة الأجرة تساءلت بجدية:

- "كيف تستطيع فعل هذا؟"

عقد حاجبيه غير متفهم، وأوقف سيارة وهو يتساءل بالمقابل:

- "فعل ماذا؟"

فَتح لها الباب لتدخل وحين جلس لجوارها وأملى على السائق الوجهة، أجابت وهي تنام على كتفه بخمول:

- "تحويل أكثر اللحظات حزنًا للعكس تمامًا".

أرخى رأسه على رأسها وهو يقول:

- "حبي لكِ يدفعني لفعل هذا، فأنا لا أحتمل رؤيتك حزينة، أفعالي قد لا تكون منطقية أحيانًا، ولكن المنطق والحب لا يجتمعان غالبًا".

صرحت بسعادة وهي تفرك وجنتها فوق قميصه:

- "لم أكن لأحظى بزفافٍ أفضل، لقد كانت السعادة بادية في عيونهم وكأنهم عائلتي فعلًا".

- "تلك الفئة من الناس تحتفل بشدة لأي خبر مفرح لأنهم قليلًا ما يفرحون، وبسبب حفاظهم على العادات والتقاليد الطيبة التي بدأت تضمحل ببلادنا بسبب الفكر الغربي الذي غزانا".

ساد الصمت بينهما للحظات، وغيرت أميرة الموضوع قائلة:

- "أنا لم أر حسين شقيقكَ ولا أعرف إن كان سيتقبل وجودنا أم لا!"

ربت على يدها مطمئنًا وهمس بحنو:

- "لا تقلقي بشأن رد فعله، كما أنني أملك نصف المنزل، لقد أبقيناه بعد موت والدينا ولم نبعه لنقتسم الميراث وكذلك المطعم".

وصمت هنيهة ثم أضاف:

- "يمكنني ترك العمل بالسكك الحديد ومشاركة أخي، فلطالما ترجاني لأقوم بهذا، ولكنني كنت أفر بعيدًا وأزور بلادًا وأرى وجوهًا حتى أتناسى وحدتي، ولقد تلاشت تلك الوحدة الآن، وبالتالي قد يتلاشى العمل".

ابتسمت بحنو لترد على هذا التصريح، ولم تعقب بشيء، وحين وصلا للميناء تأهب سالم وعلق عينيه على المطعم من بعيد، وحين أدركته العربة نقد السائق حسابه، وهمس لها:

- "سأدخل وحدي أولًا لأفسر الوضع لحسين".

أحنت رأسها بالفهم، وترجلت من السيارة، وبقيت تنتظر في ترقب ووهن، وكذلك فعلت كارلا التي جذبها صوت السيارة لتخرج، إنه منتصف الليل تقريبًا وبالكاد هنا مارة بالطريق، أما الرياح فتزداد برودة كل حين، ولسوء حظ أميرة فرت من قصرها بملابس خفيفة ودون معطف.

عقدت يديها أمام صدرها وبدأت ترتجف من البرد والخوف، لقد تأخر سالم كثيرًا وهذا يقلقها.

ولكنه معذور فبتلك الدقائق، كان يسرد على شقيقه كل الأحداث منذ لقائهما الأول وحتى زواجهما، ولأن حسين لا يملك حق الاعتراض على الزواج، أو تغيير ما وقع، بدأ يخرج مستجيبًا رغم أنه مستاء للغاية.

طالع أميرة بعينين متفحصتين أثناء تقدمه إليها وبادرها بلين وهو يسترق النظر لكارلا:

- "مرحبًا بكِ في الإسكندرية".

رفعت وجهها لتنظر نحوه وتمتمت بحرج:

- "شكرًا، شكرًا لكَ، لقد تمت الأمور بسرعة ولم نستطع إخبارك".

مد حسين يده لجيبه فيما يعقب:

- "لا بأس فسالم وضح لي الأمور، وعلى أية حال أنتما متعبين وبحاجة للراحة".

أخرج يده من جيبه ومد مقاليد المنزل لسالم مضيفًا:

- "شقة والدينا ما زالت تنتظرك كما هي".

التقط منه المفاتيح وهو يهز رأسه بالفهم، وقال لأميرة:

- "دعيني أريكِ شقتنا".

مشيت معه مستجيبة، وراقب حسين رحيلهما في سخط، ما فعلاه لن يتوقف عند هذا الحد، ولسوف تكون له عواقب يخشى أنها قد تكون وخيمة، ولكن كيف ينتقض فعلة شقيقه فيما هو يقدم على واحدة مشابهة.

إنه يعرف أن علاقته بكارلا ستقابل بالنفور والمقاطعة من قبل الجاليات المسيحية أيًا كانت جنسيتها، وهذا أقل تقدير، فمن الممكن أن يتعرض لهما بعض المتعصبين

والدغماء، ولكنه سيقاتل حتى النهاية لتنجح تلك العلاقة، تمامًا كما يفعل شقيقة مع تلك الفتاة الأرستقراطية.

بين الحب والجنون خيط رفيع.

نظر للحانوت القريب وتقدم بخطى ضيقة، وبوصوله العتبة استدارت كارلا لتدخل وتساءلت فيما تهم بإشعال الكانون:

- "وجهكَ ليس مسرورًا، أتلك الفتاة التي رأيتها السبب؟"

جلس على المقعد بتوانٍ وغمغم مجيبًا:

- "لقد تزوجها سالم منذ ساعات، لقد ذكر إنها بنت باشا وتحبه، ولكن أهلها سيزوجونها بالإجبار".

هزت رأسها متفهمة وعقبت بلطف:

- "لقد راقبت ملامحها، إنها تلوم نفسها ولكن يبدو أنهما فعلا ما يجب فعله، أتشرب بعض الشاي برفقتي".

- "نعم من فضلك".

وضعت الكوب قبالته ونهضت لتقف خلفه، وقالت بينما تُدلك رقبته وكتفيه:

- "أعلم أنكَ قلق من رد فعل عائلتها، ولكن لا بأس، فالأمور ستمضي على خير، أظنها لطيفة وسنكون أصدقاء قريبًا".

هز رأسه ليسايرها في آمالها الوردية، وبقي ينظر للا شيء في شرود.

ما أُخذ بقوة يُرد بقوةٍ أكبر، وهذا قانون معروف وخصوصًا لدى الأغنياء مثل عائلتها، لقد جرح سالم زهوهم بأنفسهم وتلك جريمة لا تغتفر.

***

طرقت أشعة الشمس الدافئة أجفان عينيها الناعستين، ففتحهما بمقدارٍ بسيط لتتحاشى الضوء قدر الإمكان، ولبثت تنظر لغرفة نومها في خجلٍ مصحوب بالخمول، وحين سقطت عيناها على سالم المضجع لجوارها والمبتسم رغم نومه، احمرت كالبندورة وشرعت بالنهوض لترتدي ثيابها ولكنها وجدت نفسها مصابة بالخدر حد النخاع.

اضجعت مجددًا وحملقت بوجهه النائم كالأطفال، أتكون بأحلامه الآن كما هي بواقعه، أم أن ملامحه تجمدت على مظهر الابتسامة للأبد، لم تكن متيقنة ولكن كلا الأمرين يسرانها.

فتح عينيه بعد حين ولما رآها أمام وجهه قال بنبرة لا تفهم:

- "من الجيد أن أراكِ قبل نومي ولدى استيقاظي، صباح الخير".

شعرت أنه يطالع جسدها العاري دون إرادة فاقتربت منه لتحتضنه فيما تهمس:

- "صباح النور".

ابتسم لخجلها الذي لم يرحل رغم زواجهما، وتمتم باقتضاب:

- "أحبك كثيرًا".

لم تعقب واكتفت بالتبسم بقوة لدرجة أن شامتها السمراء كادت تبلغ أذنها، وحين شعر سالم أنهما سيناما مجددًا إن بقيا هكذا لدقيقة أخرى، قال ببعض الخمول:

- "لم ننظف الشقة بالأمس ويجب أن نفعلها اليوم".

تثاءبت فيما ترد:

- "لا زال الوقت مبكرًا واليوم طويل".

اختفى شعوره وحل مكانه اليقين، سيناما مجددًا بلا شك، ولكن ما المانع، فهما من الآن سيكونان سويًا طيلة النهار والليل.

لقد ظفرا ببعضهما البعض أخيرًا، وبعد سنوات من الترقب واللوعة.

***

الطرقات كانت مزدحمة، وبدت حركة المرور بطيئة كالسلحفاة بسبب الوحل الناجم عن الأمطار التي تهطل باستمرار، ولكن كل هذا لم يزعج فيرونا أبدًا، فهي تقتنص كل دقيقة متاحة لتبقى قرب روبرت قبل عودته لتونس.

لقد أصرت على مرافقته حتى القاعدة والعودة بسيارة أجرة، وكان هو يتألم بسبب اضطراره للرحيل بسرعة، فلم يملك أن يُثنيها عن قرارها حتى يستلذ بكل لحظة تمر عليه بقربها، قبل أن يعود للشناعة والصافرات وأصوات الطلقات والقذائف.

وصلا القاعدة بعد الظهيرة وهناك هبطت فيرونا بتثاقل وهي ترجوه:

ـ "حاول أن تعود لي سريعًا إن أتيحت لك الفرصة".

نظر لها بشوق متفجر رغم أنه لم يتركها بعد، وقال فيما يبسط يديه ليعانقها:

ـ "ليس الحب أن نلتقي إن أتيحت لنا فرصة اللقاء، ولكن الحب هو أن نصنع الفرصة ونُحدث اللقاء، لذا تيقني أني سأعود أسرع مما تظنين".

غمرته بقوة وبقيت تستشعر الدفء حتى تركها للزوابع والعواصف، الجوية منها والعقلية.

لزمت مراقبته في استسلام بينما يسير لحظيرة الطائرات، وحتى غاب بطائرته عن ناظريها الحادين، وحينئذ فتحت مظلتها ومشيت بخطى ثابتة رغم أنها تكاد تهوى أرضًا بسبب شعور الوحدة الذي تفجر بها مع غيابه، إنها تتشبث بطوق من الأمل، ألقاه إليها بالأمس، ولا تنفك تفكر به لتواسي نفسها.

سيهربان قريبًا.

***

قلقًا وحانقًا، ومشتاقًا للوم، ولكنه رغم هذا لم يستطع ترك شقيقه وزوجته بلا طعام، فهو يعلم أن الشقتين بلا مؤن ولذلك دفن سيجارته بالمنفضة، ونهض لينتقي أفضل الأصناف من مطبخ المطعم، حتى يوصلها للزوجين بنفسه.

خرج للشارع بعد دقائق وبيديه أكياسٌ شتى وهم بإيقاف سيارة لتنقله للإبراهيمية، ولكن كارلا ركضت إليه لتوقفه باهتمام وتساءلت رغم علمها:

ـ "أستذهب لهما؟"

هز رأسه بينما يُضيف:

ـ "وربما أبقى لبعض الوقت، من الواجب أن أبارك لهما كما أني بحاجة لمزيد من المعلومات".

همست ببعض الرجاء والدلال:

ـ "أيمكنني القدوم معكَ؟"

ضيق عينيه متعجبًا فبدأت تفسر:

- "لقد لاحظت أنها لم تجلب حقيبة معها، ولذلك حضرت لها بعض الثياب، إنهم ليسوا مستعملين، أقسم لكَ".

ابتسم لطيبتها المنهمرة على الجميع، وهمس برضا يشع من عينيه:

- "رافقيني إذن ولكن أسرعي".

هرولت لداخل الحانوت كي تجلب الأكياس ثم أغلقته، وحثت الخطى نحو حسين، فبدأ الأخير يتلفت بحثًا عن سيارة أجرة أو حتى حنطور ولكنه لم يجد أيهما رغم أنهم كانوا يمرون بلا توقف وهو في غنى عنهم.

تنهد بغضب حين شعر أن كل شيء يسير ضده، وطفق يسير بعبوس مرتسم على ملامحه، فقالت كارلا ببعض الملاطفة:

- "تبدو جميلًا وأنت مستاء، ولكن ابتسامتكَ تجعلك أجمل، ابتسم فنحن سنذهب لزوجين جديدين".

- "سأبتسم قبل دخولي شقتهما، تاكسي".

توقفت السيارة فدخلتها كارلا بينما تضيق عينيها بغيظ، وخيم الصمت حتى وصلا الإبراهيمية، وهناك هبطا أمام المنزل وقالت منبهة:

- "إنهم لم يخطئا يا حسين، تذكر هذا، لقد تزوجا ليكونا سويًا، ولو كنا مكانهما لفعلنا المثل، أسرتها لا تملك الحق في إجبارها على شيء".

رق قلبه قليلًا فانبرى بالهدوء وفتح الباب الخارجي للبيت، وطرقت كارلا باب الشقة الأرضية بابتسامة ظافرة، ولم تمض لحظات حتى فتح سالم مبتهجًا.

أصابه التعجب سريعًا بسبب وجود كارلا ففسر حسين بسرعة:

- "مساء الخير يا عريس، لقد قدمت مع كارلا لنجلب لكما بعض اللوازم".

تحرك سالم من أمام المدخل وقال بترحاب:

- "تفضلا بالجلوس ريثما أخبر أميرة بوصولكما".

تقدما لغرف الاستقبال وهما ينظران لبعضهما البعض، وتوجه سالم صوب غرفة النوم، ولم تمض دقائق حتى عاد صحبة أميرة التي قابلتهما بحفاوةٍ وسعادة رغم أنها لا تعرف كارلا، وقالت الأخيرة بينما تصافحها:

- "لم أستطع أن أرحب بكِ ليلة الأمس، أنا كارلا".

كانت لكنتها العربية ركيكة، ولكنها ساحرة كما نبرة الأطفال بطور التعلم، فعقبت أميرة مبتسمة:

- "أنا أميرة، تشرفنا".

جلس الأربعة، وعم الصمت لوهلةٍ حتى قطعته كارلا بقولها:

- "لقد جلبت لكِ بعض الأشياء وأتمنى أن تكون مناسبة".

مدت لها الأكياس فقلبتها أميرة بتفحص، وبدا عليها التردد في القبول، فأضافت بلطف جم:

- "نحن عائلة، والعائلة تدعم بعضها البعض".

وضعت الأكياس لجوراها مبتسمة، وهمست ببعض المودة فيما تنهض:

- "متشكره للطفك، سأجلب لكما بعض العصير وأعود".

أوقفها حسين بقوله:

- "لنتناول الغداء أولًا، فلقد جلبت طعامًا جاهزًا لأجلنا جميعًا".

صمتت أميرة لوهلة ثم عدلت بينما تلتقط الأكياس منه:

- "سأعد المائدة إذن".

نهضت كارلا بحماس وعقبت بحماس:

- "سأساعدكِ في هذا".

غادرت الفتاتان سويًا فنظر حسين نحو شقيقه لبعض الوقت حتى تساءل:

- "هل تعتقد أن والدها سيبحث عنكما؟"

اعتدل وبدأ يتنحنح قبل أن يجيب:

- "إنه لا يعرفني، ولكن الرجل الذي كاد يتزوجها يعلم هويتي، أنا أفكر أن أستقيل من عملي".

- "هذا خبر جيد، ومن الأفضل ألا تذهبا للقاهرة، لنعمل سويًا يا سالم كما أراد والدنا دومًا".

هز سالم رأسه موافقًا وتمتم:

- "سنعمل سويًا يا أخي، كما أنني وفرت بعض النقود في البريد، وأنوي سحبها لنُكبر المطعم ولأحسن الشقة وخلافه".

نظر حسين نحو كارلا التي تبسط الطعام في مرح صحبة أميرة وقال:

- "أنا أحب كارلا يا سالم، وسنتزوج قريبًا، سنقوم بتحسين المنزل كله وسيعود هذا البيت للحياة، ستكون به عائلة أكبر".

حملق به سالم مدهوشًا، وبقي ينظر لهما بالتتابع حتى قال بسعادة عارمة:

- "لا أعرف كارلا جيدًا، ولكنها تبدو لطيفة للغاية، مبروك يا حسين".

نوهت المرأتان أن المائدة جاهزة فبدآ يتحركان نحوها في ارتياح نسبي، واحد تزوج ابنة باشا عثماني، والثاني يريد أن يتزوج مسيحية يونانية، غريب ما يفعلاه الآن، والأغرب أنهما عاشا وتحملا الفترة الماضية دون أن يقدما على ذلك لينالا السكينة.

***

على مقعدٍ عثماني عتيق ربما يعود للقرن الماضي، اتخذ رُستم مجلسه وأسند رأسه لعكازه المصنوع من خشب الأبنوس والعاج، ودام يحملق بالأرض، إنه مصاب بالإحباط وشيئًا ما بداخله، قد يكون الضمير، يخبره أنه السبب في هروب ابنته، علها ضاقت ذراعًا من جموده وتصرفاته الديكتاتورية، ولكنه لا يستطيع تغيير نفسه، فكل معطياته العقلية تفضل عاصم.

إنه لا يعرف سالم، وعاصم لم يخبره بأي شيء حينما علم بأمر الهروب سوى أنه سيبحث عن زوجته المستقبلية ولن يعود دونها، ولذلك رفع رُستم رأسه بشوق حينما سمع صوته يحدث الخدم بالخارج، ولكنه وجده وحيدًا لما دخل عليه المكتب فتساءل بخذلان فيما ينهض:

- "ألم تجدها؟"

- "رجالي يفتشون القاهرة بأكملها، ولقد أرسلت آخرين للبحث عنها في الجامعة، سأجدها، فلا تقلق، لن أرتاح حتى أجدها".

قال هذا ووضع سيجاره الفاخر بين شفتيه الخدرتين بسبب الخمر، وتوجه ليجلس على صوفا سوداء تحتل جانب المكتب، وتمتم رستم وهو ينظر عبر النافذة كأنه يحدث نفسه:

- "ترى أين أنت يا أميرة بهذا الجو العاصف!"

كان عاصم شبه منتشي فلم يعقب، وكان بعقله براكين تتفجر وتدفعه ليقتلها وسالم حينما يجدهما عساه يواسي كرامته التي سحقت.

لقد علم ببحثه أن سالم متغيب عن العمل منذ الأمس، ولكنه لم يصل لعنوانه الثابت، الجميع يقولون إنه اعتاد المبيت بالفنادق، وآخرون يؤكدون أنه كان ينام بالقطارات المُخزنة، وعلى أرصفة المحطات، إنه يشعر أنهما تبخرا، وتقلقه فكرة أن يكونا تزوجا، إنه يفقد عقله.

نهض بغتة وبدأ يتجه للخارج، فأوقفه رستم قائلًا:

- "عاصم، أين ستذهب الآن؟ انتظر حتى أرسل لأخوتها كي يأتوا من إستانبول ويساعدوك في البحث".

جحظت عينا عاصم وهتف من مكانه:

- "سأجدها يا عمي، ولا داعِ لإخبار أخوتها بهذا الأمر ما داموا لا يعلمون، سنحل الأمر بيننا".

ابتسم رستم وهو يقول:

- "أنت إنسان عاقل يا عاصم".

خرج عاصم وهو يبدي استهزاءً لجملة رستم الذي يحسبه يريد التستر على الأمر كي لا يغضب أخوتها، ولكن الحقيقة أنه لا يريد أن يبدو بمظهر المخنث أمامهم، ماذا سيظنون فيه إن علموا أنها هربت كي لا تتزوجه.

ركض نحو سيارته كثور هائج، وأدراها وتحرك بسرعة، وظل يبحث عنها وسط المارة وبالفنادق حتى خَيم الليل، وحين أصابه التعب واليأس توقف أمام حانوت خمور يهم بفتح أبوابه، وصدح وهو يدخله:

- "زجاجة روم يا خواجة".

***

في الأساس كان المنزل مَبني على طراز المعمار الشرقي، ولكنه بعد التعديل طُلي بألوان مختلفة ومبهجة كما المنازل اليونانية، وأضيفت النقوش العثمانية، والزخارف والفسيفساء على مقدمته ونوافذه لتجعله أكثر غرابةً وجمالًا، وفي ليلة هادئة، وصل موكب الزواج الخاص بحسين وكارلا، وكان توماس يسير فيه لجوار شقيقته فيما تمشى أميرة لجانب سالم.

موافقة توماس على الزواج كانت كفيلة بجعله يُصرف عن العمل، بعدما استاء صاحب المصنع من تصرفاته وشقيقته غير المألوفة والتي تضر بالجالية اليونانية والمسيحية على حدٍ سواء، ولكنه لم يكن مكترث بأي شيء، فهو من جانب يرى أن المسيح جاء ليقيم المحبة مع أي إنسان، ومن جانب آخر يرى أن متجر العائلة بحاجةٍ لمن يديره بعد زواج كارلا، أما الجالية اليونانية بأسرها فلم، ولن تتمكن أبدًا من إيقاف حزن كارلا.

لقد فعل الصواب بموافقته، والبسمة التي يراها على قسمات شقيقته الصغيرة تؤكد هذا.

دخل الخمسة للمنزل وسط جو عائلي مفعم بالضحك والبهجة، وإن كان الجمع قليل حولهم ولا يتعدى طغمة من البشر، فهم لا يحتاجون أحدًا آخر لتتم بهجتهم.

ارتقوا الدرج نحو الطابق الثاني وهناك قال توماس بسعادة متفجرة:

- "أظن أن دورنا ينتهي هنا، طابت ليلتكما".

عانق حسين وكارلا تباعًا، وسرعان ما توجه سالم لشقيقه فيما خطت أميرة صوب كارلا، وعقب جمل خافتة وتبديل أماكن، وتعليقات قصيرة المدى، هبط الثلاثة نحو الأسفل، وبقي الزوجين.

أغلق حسين الباب، وحملق بكارلا مليًا، كانت بفستانها الأبيض الطويل، وخصلاتها الملفوفة خلف رأسها، تكاد تشبه آرتميس ربة الصيد في شموخها، وكانت قسماتها المحمرة من الخجل، وعيناها الواسعتان يعطياها لمحة من أفروديت، فيما أظهرها تاج الورد المحيط برأسها، بصورة هيرا.

في تلك الليلة كان حسين يرى بها ربات الإغريق كافة، وأكثر من ذلك، لقد كانت فرحته لا تضاهى منذ تزوجا، وكان طيلة الدرب يتهافت للانفراد بها بعدما كان يسرق الدقائق ليحدثها.

تقدم منها بخطوات هادئة، وهمس بنعومة:

- "لقد فعلناها يا كارلا، الآن سنظل معًا للأبد".

التقطت يده بحياء، وتمتمت بارتخائها على ذراعه:

- "لا زلت لا أصدق هذا، أشعر أنني بحلم جميل للغاية".

قبل وجنتها بحنو ثم أعلن:

- "إنها حقيقة يا عزيزتي، أنا أحبك جدًا".

تحسست وجنتها وشعرت بنبضها يتزايد وكأنها سبحت من اليونان حتى هنا، ارتمت فوق صدره لتهرب من عينيه المحدقتين بحسنها وقالت بصوت خفيض:

- "وأنا أيضًا أحبك".

حملها بغتة لفرط بهجته، وظل يدور بها في سعادة ليريها الشقة تباعًا، ولما أنزلها بغرفة نومهما، قال بلطف لا يضاهى:

- "هل تروق لك شقتك الجديدة؟"

أومأت برأسها فيما شفتيها تتمددان:

- "فقط لأنها تحتويك".

انحنى عليها وقبلها بنعومة قبل أن يعلن:

- "سأدعك تبدلين ثيابك، وسأقصد المرحاض لأنتعش".

هزت رأسها موافقة، ولما أغلق الباب عقب رحيله، مكثت تتحسس شفتيها، إنها لم تشعر بالسعادة كما اليوم، وترى أن كل الأحزان التي واجهتها ليست سوى نقطة حبر سقطت فوق محيط ممتد.

نهضت بخجل واضح وتوجهت لدولاب الملابس، وشرعت تنزع فستانها فيما تتخيل حياتها معه، التي باتت تشكل الآن هدفها الأسمى، وغايتها الأمثل.

ستنازع لتبقى تلك السعادة تحيطهما.

***

في أغسطس تمكن الحلفاء من القيام بعملية إنزال ناجحة على شواطئ جزيرة صقلية، وعليه ازدادت الأمور تدهورًا في روما، وبحلول الحادي عشر من سبتمبر كان الدوتشي موسوليني قد سقط من قبل الشعب الإيطالي وتم أسره، وحينئذ تجلت مخاوف هتلر من أن يسيطر الحلفاء على إيطاليا، فقام بسحب بعض الجنود من الجبهة الشرقية في روسيا، ليعزز بهم الجيش الإيطالي الذي يواجه تقدم الحلفاء، كما أرسل فرقةٍ جوية لإنقاذ موسوليني، وأرسله بعد ذلك مع فرق الفيرماخت ليحكم من جديد بنظامه الفاشي.

لم يَسْلم الإيطاليون المقاومون من الخسائر الفادحة، مُزقت عائلات، ونسفت منازل، وقتل الآلاف، ولكن كل هذا لم يوقف هتلر، فالآن هو لا يقاتل للسيطرة، ولكن للثبات، إنه بالكاد يقاوم الجيش الأحمرِ الروسي على جبهة واحدة، والسيطرة على إيطاليا من قبل الحلفاء ستعني زحفًا لفتح جبهة أخرى.

***

كان روبرت مستاءً لأنه ترك القارة السمراء، الأمور تزداد بشاعة وتؤرق خاطره، فلا يبدو مهتمًا بالجنود الذين يحتفلون ولا بالآخرين الذين يضعون لاصقات مربعة فوق شفاههم ويقلدون هتلر.

لقد انعزل عن الجميع، واكتفى بالتمدد فوق جناح إحدى الطائرات، عيناه تطالعان السماء الصافية، ويداه تداعبان قنينة جعة باتت فارغة، إنه يصبو لـفيرونا ولا يملك لرؤيتها سبيلًا.

وثب أرضًا وتوجه لحظيرة الطائرات عساه يجد بعض الجعة الإضافية، ولكنه لم يجد هناك سوى الجنرال ألفريد، الذي كان محاطًا ببعض القادة.

نظروا له تباعًا حين اقتحم مجلسهم، فنوه بتفحصه المكان:

- "لم أقصد مقاطعتكم، أنا أبحث عن الجعة".

تقدم ألفريد إليه تاركًا القادة بالخلف يكملون جدالهم العسكري، وهمس فيما يفتح خِزانة حديدية يوضع بها العدد اللازمة للتصليحات:

- "الجعة بالصندوق المجاور لمسامير البراغي يا بني، خذ ما تريد ولا تخبر أحد".

ابتسم روبرت بذبول وهو يخرج قنينة واحدة، وغمغم:

- "شكرًا يا سيدي".

هم بالانصراف فأوقفه ألفريد بقوله:

- "تبدو حزين رغم أننا انتصرنا اليوم، ألا تهدأ وتبتهج".

استدار روبرت ونظر نحوه للحظات قبل أن ينوه بصراحة:

- "لكي أهدأ وأبتهج يجب أن يموت روبرت فيلد يا سيدي".

عقد الجنرال حاجبيه وظنه انتشى، ولكنه كان يتلو عليه أول مرحلة من خطته، وهي قتل شخصية روبرت فيلد، كيلا يبحث عنه أحد، بدلًا من الفرار والتعرض للملاحقة.

همهم ألفريد وهو يفرك شعره الأبيض المغبر ويتحرك بعيدًا:

- "من الأفضل أن تتوقف عن الشرب فأنت تهذي".

- "ستفهم فيما بعد يا سيدي، وأتمنى أن تساعدني وقتها".

توقف ألفريد عن السير للحظة حين سمع جملته ولكنه عاد يسير دون إبداء رد فعل يذكر، فخرج روبرت من الحظيرة وعاد أدراجه ليتمدد، وفي عينيه لمعة الدهاء.

يجب أن يزور موته بحدث كبير كي لا يلاحظ الأمر، وهو يشعر أن حدثًا كهذا بات قريبًا، إنزال صقلية مجرد إحماء، فموسم الإنزالات الضخمة على الأبواب، والحركة التي لا تتوقف في صفوف القادة تؤكد هذا.

١٩٤٤

"ألقيتُ عليك تعويذةٌ وسَأهربْ، ولسوف تموت ظمآنًا ولن تَشربْ، وددتُ أن أكون شَطركَ مهما طال الأمد، ولكنكَ ستجدني أبعدهم ولو أني أنا الأقرب".

من مذكرات أميرة رستم

أدركت الفندق بعد انتهاء مناوبتها، ولكنها خشيت أن يقتلها الضجر إن صعدت للغرفة، فهبطت من سيارة الجيش التي توصلها صحبة الفتيات الأخريات، ونظرت للمارة لبرهة قبل أن تمشي مبتعدة.

إلى أين الوجهة، لا تدري ولا تبالي ولكنها ترغب أن تكون وسط الزحام والصخب لتتوقف عن التفكير.

لقد انقضت عدة أشهر منذ رحل روبرت، ومن وقتها لم يعد، وبالكاد يتصل أو يرسل خطاب، إنها تعذره رغم غضبها العارم فرقعة المساحة بينهما ازدادت اتساعًا، وهو لا يملك وسيلة نقل تقارب في سرعتها الضوء ليأتي سريعًا.

لقد جاء خطابه الأخير مؤكدًا على أنه غادر صقلية مع الجيش، وبات بإيطاليا نفسها بعد الإنزال الذي جرى هناك، ومن المستحيل أن يترك إيطاليا بتلك الآونة ويأتي لها ثم يعود دون ملاحظة.

كم تريد رؤيته وتفقد جسده شبرًا بشبر، فالمذياع لا يكف عن تلاوة أعداد القتلى والمصابين في الجبهة هناك، إنها قلقة، وطبيعتها الأنثوية تزيد حدة القلق.

توقفت عن السير حينما لاحظت أنها باتت ببقعة منعزلة، والتفتت لتعود أدراجها للفندق بعدما استبد بها الدوار والإعياء، ولم تكد تعبر بابه الدوار، حتى هتف بها موظف الاستقبال:

- "آنسة فيرونا، هناك خطاب وصل إليك اليوم".

هرولت نحوه غير مصدقة، وكانت تأمل بكل جوارحها أن يكون من روبرت، تناولته من يد الموظف بحركة خاطفة، ثم قلبته في يديها لتتفقده، وانفرجت أسارير وجهها حين قرأت حروف اسمه الأولى.

هرعت نحو الغرفة دون حرف، ومكث نبضها يتسارع مع ركضها، ولم تتوقف قدماها عن العدو إلا حينما أغلقت باب غرفتها ووقفت خلفه.

وسط أنفاس متهدجة، فجت الظرف بيدين ترتعشان، وأخذت تقرأ بطرفٍ هامع لا يكاد يبصر الكلمات، إنه حي وهذا يكفيها حتى تهدأ وتقرأ بإمعان.

***

ازدحم البحر التيراني بسفن النقل والمعدات التي شملها هذا الأسطول، وبعد موجةٍ عنيفة من القصف المدفعي والجوي، هبط الحلفاء على شواطئ إيطاليا المحتلة، وكانت الوجهة هي الشمال حيث يسيطر موسوليني وجيش الفيرماخت، ولكن الزحف توقف بسبب التحصينات الموضوعة على خط غوستاف.

تمركز الجنود بالقرب، وجرت مداهمة جوية في منتصف مارس، ولكن الألمان صمدوا وأجبروا الحلفاء على التراجع، فشعر الجنود أن مقولة كل الطرق تؤدي إلى روما لا تعمل في الحرب العالمية الثانية.

***

ذات صباحٍ بارد سَمع روبرت صوتًا يناديه من خارج الخيمة، فنهض بخمول من فوق السرِير الأرضي، وأطل برأسه ليرى من المنادي، وحين وجده سيمون، تساءل بفتور واستياء:

ـ "ماذا هناك؟ لقد أفزعتني".

أجاب سيمون وهو يركل الأرض بحذائه القاسي:

ـ "الجنرال ألفريد يطلبنا".

زفر روبرت بضيق، ومشي معه في وجوم حتى كرفان الجنرال ألفريد، وحين طرقه ودخلا بادرهما الجنرال فيما ينظر للأوراق المنثورة أمامه على الطاولة:

ـ "استعدا للتوجه نحو لندن بحلول المساء".

لمعت عينا روبرت بينما يتساءل باقتضاب:

ـ "وحدنا؟"

تمنى هذا لكي يصطحب فيرونا معه ثم يتبخران، ولكن ألفريد صدمه بقوله:

ـ "بل مع الآخرين، سيتم التحميل هناك وسيجري الإنزال على شواطئ نورماندي".

شعر سيمون أن قلبه سيقف من الغبطة، أحقًا سيعود لبلاده حتى يحررها، أسيرى عائلته بعد تلك السنوات، هتف بعينين تدمعان فرحًا:

- "حقًا يا سيدي، هل سندخل فرنسا حقًا؟"

- "بلى يا بني، نحن نحشد الأسطول الآن وننتقي أفضل الرجال لتلك المهمة، هذا الإنزال سيذكر بالتاريخ الحديث".

أضاف روبرت وهو يسير للباب:

- "إلى جانب وحشيتنا وافتقارنا للآدمية يا سيدي".

تابعه ألفريد متعجبًا بينما يمضي للخارج ودون أن يعطيه إذن الانصراف، وأدى سيمون التحية العسكرية وتبعه بخطى واسعة، إنه يتلهف شوقًا لإنزال نورماندي.

أما روبرت فهو يعمل الآن على وضع خطة تمكنه من جمع المال اللازم للهرب.

***

على سواحل مدينة بورمث البريطانية حَشد جيش الحُلفاء تحت قيادة الجنرال أيزنهاور؛ أكبر أسطول عرفه التاريخ، وجرت هُنالك تدريبات إنزال قاسية، ومُكررة على مدار الساعة قُتل فيها قرابة الألف جندي غير المصابين.

في ليلة الخامس من يونيو كان الجنود يجلسون بالبوارج والسفن يحتفلون بانتصار زملائهم، الذين دخلوا روما اليوم وسط هتاف شعبي، وينتظرون ساعة الصفر التي سيعلنها أيزنهاور عسى يحققون نصرًا مشابهًا، ولكن أيزنهاور كان مترددًا ومتوترًا، فالطقس لم يكن أكثر سوءًا كما تلك الليلة، والإنزال شبه مستحيل، لدرجة أن روميل غريمه توجه لألمانيا لكي يحتفل بعيد ميلاد زوجته دون أي قلقٍ إزاء اجتياح الجدار الأطلسي، وهو جدارٌ من التحصينات يمتد من النرويج وحتى إسبانيا ويمر بشاطئ نورماندي، وكان قد كُلف بتحصينه منذ هرب من تونس.

***

على مَتن حاملة الطائرات البالغة من الطول ما يقارب المائتي متر، وقف روبرت ينظر للقناة الإنجليزية حيثما دفن الألف جندي، وللمدينة المترامية خلفها.

آثار الخراب ما تزال واضحة على معالم لندن وشوارعها، ولكن لحسن حظه وجد شقته لم تقصف لدى وصوله البلاد، فقام ببيعها بثمنٍ بخس بعض الشيء كما سحب النقود المتاحة بحسابه البنكي.

إنه لن يجد إنزالًا أفضل من هذا، ولا أكبر لينفذ ما يريد، ولقد حرص على اصطحاب المال معه، الآن رزم النقود تحيط خصره كحزام ناسف، بعدما غلفها بالبلاستيك.

أشعل سيجارته بتوتر، وكان سيمون يستند بظهره لعجلات إحدى قاذفات القنابل، فيما الشرود باديًا على عينيه الخضراوين، اللتين تنظران ناحية أوروبا.

تقدم منه بخطى ضيقة وهمس بجلوسه:

- "إنها اللحظة التي انتظرتها لسنوات، فلم تبدو حزينًا".

نظر سيمون نحوه بعينين غائرتين وتمتم بصوتٍ محشرج:

- "أشعر بالقلق كثيرًا، وكأنني أقفز من فوق جبل، إن حدث لي شيء اليوم فسأكون مرتاحًا لأنه حدث بفرنسا، ولكنني رغم هذا أفكر بما سأقوله للرب حينما نلتقي، ولا أجد ما أفسر به موقفي".

بسط كفيه أمامه وطالعهما بشرود لوهلةٍ ثم أضاف:

- "لقد فعلت جرائم أكثر من أن تفسر، ولكني لم أجد سبيلًا آخر لأعود إلى بلادي".

لم يعقب روبرت لفرط عمق الحالة، ولأنه غائص بأخرى حتى القاع، واكتفى بنفخ دخان السجائر في غيظ نجم بسبب الحرب التي تبدل النفوس، حتى تجاوزت العقارب منتصف الليل وجاءت ساعة الصفر كما قال الأميرال البحري المسؤول عن حاملة الطائرات.

في ظرف ثوانٍ قليلة شرع الأسطول يتحرك شيئًا فشيئًا مخترقًا القناة الإنجليزية نحو فرنسا.

أنصت روبرت وسيمون لصوت الأمواج المعتلجة فيما جسديهما يتحلحلان كل حين مع تأرجح البارجة وكانا يشمان رائحة الموت في الجوار، ويستشعران تحليقه حولهما.

الإنزالات العظيمة ترافقها دومًا خسائرُ أعظم.

قرب الرابعة والنصف فجرًا حلقت طائرات النقل الضخمة خلف الجدار الأطلسي بسلاسة وهدوء وبدأ المظليون الكنديون ينسلون واحدًا تلو الآخر نحو الأراضي الفرنسية، مهمتهم هي تأمين مناطق الإنزال الخمسة، وبالوقت ذاته استهل الأسطول البحري بقصف المدفعية الكثيف، وبدأ سلاح الجو البريطاني يستعد لمغادرة مدرج حاملة الطائرات، فيما كانت مراكب الإنزال الحديدية تُحشى بالجنود كعلب السردين.

لقد أُخذ الألمان على حين غرة.

في طائرةٍ من طراز هالي فاكس كان روبرت يطالع بالتتابع ضوء الفجر الأبيض الذي يدحر ظلام الليل والرجل الواقف على المدرج، وحينما أعطى الأخير الإشارة البرتقالية، بدأ يتحرك فوق المدرج بخفة قبل أن يُحلق بالسماء.

لا زال قلقًا إزاء خطورة الوضع، ولكن ما سيترتب على نجاحه يبث به بعض الشجاعة والعزيمة، كما أن مهمته سهلة كقضم قطعة كعك وعنصر المفاجأة بصفه، سيدمر الدفاعات على شاطئ نورماندي وسيعود لحاملة الطائرات قبل أن ينفد الوقود حتى.

قال بالراديو محدثًا سيمون:

- "من كاش إلى تانغو، ما أكثر شيء ترغب فيه الآن؟"

حمل اللاسلكي صوت أنفاس سيمون المتصاعدة لمدة قبل أن يأتي صوته مجيبًا:

- "أن أستمع لأغنيات تشارلز ترينت مع عائلتي في المرج، وأن أراقص ليندا حتى نلهث، هناك الكثير من الأمور، وأنت؟"

أجاب مقتضبًا بصوتٍ جامد يخيم عليه الغضب والتحفز:

- "الفوز".

ضغط الزر بلا تردد فبدأت القنابل تسقط من طائرته نحو الشاطئ دون هوادة، ناسفةً كل ما تلقاه بهبوطها، وحين تراجع ناحية المياه بدأ يراقب الوضع بعينين خبيرتين، يجب أن يحلق عاليًا ليتفادى المدافع التي بدأت تنطلق من الجدار الأطلسي، لقد انتبه الألمان وقرروا الرد.

اندفع نحو السُحب ليستغلها كغطاء، وحين اقترب من الهدف انقض بالطائرة كما الصقر.

قصف أقرب المدافع إليه، وقال بالراديو:

- "من كاش إلى السرب، تجنبوا قصف المنازل المدنية خلف الشاطئ، وركزوا الإسقاط على الدفاعات أمام وخلف الجدار".

سحب نفسًا طويلًا من قناع الأوكسجين، واعتمد سياسة الضرب والفر، حتى بدأت مراكب الإنزال المكدسة بالجنود تقترب من الشواطئ.

قُصف بعضها حين باتت بمجال المدافع، وتلونت المياه بالدماء في لحظات قلائل.

اندفع السرب صوب الجدار من جديد ليقوم بموجة ضربٍ أخرى، ولكن الألمان يقاومون بضراوة، والمظليون الكنديون هبطوا بالمظلات في أماكن متفرقة، وبعضهم أصيب أثناء نزوله أو قتل.

لم تؤمن مناطق الإنزال بالكامل، ومركبات الإنزال ما زالت تقترب من الشاطئ، ومن الموت كذلك.

بعد دقائق هدأ كُل شيء فجأة وحظي شاطئ نورماندي بالهدوء ففتحت أبواب مركبات الإنزال وبدأ الأفراد يندفعون نحو المياه قاصدين الرمال، وحين بلغت المياه أنصاف سوقهم، بدأ الألمان يقنصونهم كما لو أنهم أهداف تدريبية تقف بالعراء.

قتل الكثيرون، ومن حالفه الحظ ووصل للساحل دون أن يقتل، شرع يقاتل حتى الموت.

***

بعد دأب منقطع النظير، تمكنت كارلا من تنظيف المنزل وإعداد الفطور، وحين رَصت الصحاف فوق الطاولة الموجودة بالشرفة الملآنة بأحواض الورود، مضت نحو غرفة نومها بخطى واسعة لتوقظ حسين النائم بعمق.

جلست على حافة الفراش حين عبرت لداخل الحجرة وهمست بصوتٍ لين كي لا تفزعه:

- "حسين، استيقظ يا حسين".

تساءل بصوتٍ ناعس فيما يجذب الغطاء:

- "من؟!"

عقدت حاجبيها مندهشة وهمست فيما تجذب الغطاء عنه:

- "لا يوجد غيري معكَ بالشقة، هيا استفق، إنها التاسعة".

فتحَ عينيه قليلًا وغمغم بينما يتثاءب:

- "منذ زواجنا وأنا أنام طويلًا".

تركت الفراش وتوجهت صوب النوافذ لتفتحها، وتساءلت بحزنٍ مصطنع:

- "هل زواجنا مرهق لتلك الدرجة؟"

نهض نحوها بخمول، وصحح قبل أن يقبل وجنتها:

- "بل سكينته تعوضني عن الأيام التي سهرتها".

التفتت لتراه، وعقبت بينما تشبك يديها حول عنقه:

- "آوه، لقد ظننتُ شيئًا آخر، الآن دعنا نتناول الفطور فلدي مهام كثيرة".

حملها بغتة فأطلقت شهقة غير مكتملة، وبقيت تُطالع وجهه بافتتان فيما يدها تطبق على فمها، وبوصولهما الطاولة استفسر حسين:

- "ماذا ستصنعين اليوم؟"

انتظرت حتى أنزلها، وبجلوسها على المقعد أجابت مبتسمة:

- "سأتوجه مع أميرة لشراء بعض الخضر والفاكهة، وحين أعود سنبدأ في الطهو وهذا يأخذ وقت".

ضحك حسين وهو ينوه:

- "أشعر أنني أعيش في فندق شيبرد، فأنا أتناول طعام يوناني وتركي ومصري!"

لكزته ضاحكة ثم وضعت الطَعام في طبقه وتراجعت لمقعدها، فأضاف بحنو:

- "لقد أصبحت حياتي أفضل بكِ يا كارلا، لقد ملأتي كل فراغٍ كان موجود".

لمعت عينيها وهي تحملق به في تتيم، وتناولا الفطور في غبطة وسكينة، وحين انتهيا نهضت بحماس لتجهز له الثياب، وحين عادت وجدت الشرفة فارغة منه ومن الأطباق.

عدلت السير لردهة المطبخ دون تفكير فهي تعلم أنه بلا شك يغسل الأطباق الآن، وحين رأته هرعت لتوقفه بينما تُصرح:

ـ "سأغسلهم فيما بعد، دعهم الآن، وتوقف عن هذا!"

رفض حسين وقال منوهًا:

ـ "أنا لا أفعلها من باب اللباقة يا عزيزتي، أنا افعلها من باب المشاركة والتعاون، الزوجة ليست خادمة، ويجب على الزوج المشاركة بأعمال المنزل، رسولنا كان يَخيط ثوبه ويكنس داره بنفسه ليعلمنا هذا".

ابتسمت كارلا وقالت ممازحة:

ـ "أمم، أتغويني لأعتنق الإسلام يا عزيزي؟!"

أغلق الصنبور وأخذها تحت جناحه وبدآ يتحركان للغرفة فيما يعقب:

ـ "أنا أشاركِ معتقداتي وتعاليم ديني، ويمكنكِ فعل المثل وقتما شئتِ".

ارتدى ثيابه وتأهبت كارلا بتلك اللحظات فيما تفكر بكلامه، الحقيقة أنها لم تقرأ الكتاب المقدس كثيرًا لكبر حجمه، ولا تعرف عن المسيحية أمور يمكنها مشاركتها، فهي اعتادت حضور القداس ولا شيء آخر.

انتهيا بعد حين وتحركا لباب الشقة الخارجي وشرعا يهبطان في هدوء وتناغم، وحين باتا أمام شقة سالم، صدح حسين:

ـ "هل أنت مستعد يا سالم؟"

كان صوت سالم يقترب مع خطواته أثناء رده:

ـ "نعم، أنا قادم يا حسين".

فجا الباب مبتسمًا وألقى عليهما التحية، وحين عبر بجسده للخارج، شغلت كارلا مدخل الباب وتساءلت هي الأخرى:

ـ "ماذا عنكِ يا أميرة؟"

توجهت أميرة نحوها بينما تَلف الحجاب حول خصلاتها، وقالت مبتسمة:

ـ "أنا أنتظركِ من وقت أيتها الناعسة".

خرج الأربعة من المنزل بخطى رشيقة، وافترقت الطرق بعد دقائق، فتوجه سالم وحسين إلى المطعم، وسارت الفتاتان لسوق الإبراهيمية.

***

اشتعلت بطائرة روبرت لمبة حمراء تنوه أن الوقود ينفد، فاستدار عائدًا لحاملة الطائرات وقد أيقن أن خزان الوقود أصيب ولم يكد يهبط حتى أسرع إليه مجموعة من أخصائيي الصيانة، ولقد دأب هؤلاء على تصليح العطل وتركوه واقفًا ينظر بالأرجاء.

الطقس غائم، والهواء بارد، والنيران الناجمة عن التفجيرات تغطي الشاطئ، والمياه الزرقاء باتت ملونة بالدماء، وعلى مد بصره توجد جثث طافية وراسية.

تنهد بفزع وهو يطالع تلك البشاعة المترامية أمامه، وقبل أن يشعل لفيفة تبغ يحرقها لفرط سخطه، أعلمه الأفراد أن طائرته مستعدة للتحليق.

التفت لهم دون اندهاش فهؤلاء يصنعون عشرات الطائرات باليوم الواحد، فكيف لا يصلحون طائرة بوقتٍ قياسي.

رمى لفيفة التبغ للمياه، وركض نحو طائرته ليقوم بجولة أخرى.

***

في السوق المزدحم، بدت كارلا هادئة للغاية، ومتماسكة فوق الحدود، فالنسوةُ الأجنبيات يدرن وجوههن عنها في نفور، ولكنها لا توليهن أي اهتمام.

منذ جاءت مصر وهي تعلم أن علاقاتهن تجاه بعضهن البعض مزيفة، وغرضها الأهم هو الظهور أمام المصريين بمظهر الجماعة ليثيروا الرهبة لا غير.

أخذت تنتقي الخُضر بلا اكتراث، فيما كانت أميرة تراقبها بإمعان، وتطالعهم باستياء، إنهم يذكرونها بعائلتها.

غمغمت بعد حين فيما تلقي حبات البندورة التي تنتقيها داخل الكيس البلاستيكي:

ـ "يا له من عالم متعصب، أنا انتهيت فدعينا نعود".

التفتت كارلا صوبها وهمست بينما تَشمُ الفاكهة:

ـ "لا تزعجي نفسكِ بأمر الناس، فهم لا يرضون أبدًا، هذا البرتقال طازج، سأجلب رطلين آخرين".

عقدت أميرة حاجبيها وتنهدت باستياء قبل أن تعقب:

ـ "أنا ذات طبيعة مضطربة يا كارلا، ولا أصبر مثلكِ على تصرفات الغير، دعينا نغادر رجاءً".

اكتفت بالبرتقال المتاح بسلتها، وبدأت تسير معها مستجيبة، وحين خرجتا من السوق همست برقة وهي تلكزها بمرفقها:

ـ "أخبريني بما يزعجكِ، فأنا لا أتردد في هذا".

صمتت أميرة طويلًا وحاولت أن تحتفظ بمشكلاتها لنفسها ولكنها كانت بأمس الحاجة لتفصح بما يثقل كاهليها، فغمغمت ببطء:

ـ "حياتي مع سالم الآن هي التي تمنيتها مرارًا، ولكنني لا أستمتع بها، تذكر عائلتي يذهب فرحتي دومًا ولا يجلب سوى الوساوس، هل ما زالوا يبحثون عني، وهل والدي بخير، وماذا عن أخوتي، أعلموا أساسًا بأمر هروبي؟ أنا أفقد عقلي يا كارلا وأشعر أنني هاربة، حتى الجامعة لم أدخلها رغم أنني بالإسكندرية".

أوقفت كارلا حنطورًا يمر بالقرب، حتى لا تحملان الأكياس الثقيلة، وحين جلستا بداخله، بدأت تفكر بما يجب قوله بوقتٍ كهذا، ولكنها شعرت أن كلمات المواساة لن تكفي.

أمسكت يدها بقوة لتعيدها من الشرود، وهمست بعينين تلمعان:

ـ "أرسلي لهم جوابًا وأعلميهم أنكِ متزوجة وسعيدة، وأنكِ ستصبحين أكثر سعادة إن تقبلوا الأمر، ولا تضعي عنوانك على الخطاب".

دارت بعينيها في الأرجاء لتفكر بهذا الأمر، ولكنها سرعان ما شهقت وأدارت وجهها فيما تتمتم بوجهٍ مُصفر كالليمون:

ـ "عاصم، لقد مررنا من جواره للتو".

تساءلت كارلا بعينين متسعتين:

- "هل شاهدكِ؟"

- "لا أعلم، لا أعلم".

انفجرت باكية وفشلت كارلا في إنقاذ الموقف فقالت للسائق بعربيةٍ ركيكة:

- "توجه للميناء قرب شارع سستر".

لزمت الصمت الطويل، ولم تكن تؤدي شيئًا سوى تمريرات أفقية على ظهر أميرة المنحني، ولم تنظر حتى بالخلف لترى ما إذا كان يتبعهم عاصم أم لا.

****

استسلم الألمان بالخمس مناطق بعد معارك طاحنة، وبدأت عمليات الإنزال في الشروع، ولكن لكي يتم إنزال المعدات الثقيلة والمؤن المقدرة بالأطنان، لا بد من ميناء ثابت، وكل الموانئ يسيطر عليها الألمان.

لذلك آتى الحلفاء بمرسى وأرصفة مسبقة التجهيز وكانت عمليات نصبها على شاطئ نورماندي تجري على قدم وساق، فيما كانت بعض خطوط الجنود تمشط مساحة الشاطئ لتنزع العقبات، ولَتحدد مواضع حقول الألغام.

سيمون لم يفعل شيء لدى هبوطه الأراضي الفرنسية سوى التدحرج فوقها والبكاء بشوق، لدرجة أن الألمان المستسلمين والذين يشغلون مساحة قريبة تأثروا بما يفعل، أما روبرت فكان ينظر بالأرجاء في فزعٍ لا يوصف.

إنه نفس المشهد الذي رآه بكوابيسه مئات المرات، جنود، رمال، جثث، أشلاء، عقبات مضادة للدبابات، حقل ألغام، ينقص فقط سقوطه بين كل هذا.

كان يتعرق رغم البرودة وهو يطالع كل هذا، وبدت أنفاسه متوترة كمرضى الربو.

هتف أحد الجنود من خلفه بكلمات النصر، فأفزعه الصوت ولم يتردد وهلة في الالتفات ولكمه، كان رد فعل لا إرادي بسبب الرهبة، ولكنه أسقط الجندي أرضًا وجعل البعض يتجمعون حوله.

حدثت هوشة بغمضة عين فنهض سيمون ليتجه هناك تاركًا معانقة الرمال، ورأى بعينيه الجندي الممدد أرضًا وروبرت الذي يقول إنه لم يقصد ما فعله، وشاهد كذلك أحد الجنود الألمان، الذي انتهز فرصة التجمهر والانشغال واختطف بندقية أحد الجنود القريبين.

ركض سيمون بأقصى سرعته وكان يصيح بهم ليسمعوه ولكن صوته خرج محشرج بسبب انفعاله، فانطلقت الرصاصات تباعًا من البندقية الآلية نحو الرهط الواقف.

قفز بجسده على روبرت ليجعله ينبطح، ودوى صوت طلقٍ ناري مضاد تجاه الجندي الألماني.

****

توقف الحنطور بين الحانوت والمطعم، فقفزت كارلا برشاقة وهرولت للمطعم تاركةً أميرة خلفها، وحين شاهدت حسين وسالم هتفت بهما:

- "عاصم في الإسكندرية".

تبدل لونهما، وتقدما صوبها في وجل، وقال حسين:

- "هل شاهدكما".

أشارت نحو الحنطور الواقف وغمغمت:

- "أميرة شاهدته، إنها منهارة للغاية".

ركض سالم دون تعليق نحو الخارج، وحين بات أمامها أزعجه منظرها الباكي والخائف، فنبه بصرامة:

- "إن جاء إلى هنا فسأكسر ساقيه، أنت زوجتي الآن ومن يقترب منكِ لن يُرحم".

رفعت وجهها لتنظر نحوه وهمهمت بصوتٍ لا يفهم:

- "لا أعلم إن كان رآني أو إن كان حقيقة، ربما أكون أتوهم".

صعد لجوارها وهمس مطمئنًا:

- "أنا إلى جواركِ فلا تبالي بأيٍ شيء، لقد تزوجنا ولم يعد بإمكان أحدهم أن يفرقنا، نحن لن نهرب للأبد وعاجلًا أم أجلًا سيعلمون، لا تخافي".

هدأت قليلًا فبدأت تنزل معه وشرعت بدخول المطعم، وحين تهاوت على مقعد قريب لزمت التحديق بالشارع في تحفز، تكاد تشعر أن أفراد أسرتها سيقتحمون المكان بأي لحظة كما العصابات، وكان حسين وكارلا يتابعان في صمت، حتى قال سالم:

- "دعينا نعود للمنزل فأنت متعبة".

عقب حسين بنهوضه المفاجئ:

- "سآتي لأوصلكما، امكثي مع توماس ريثما أعود يا كارلا، لقد سألني عنكِ".

نهضت أميرة بتراخٍ وخرجت معهما مستجيبة، وبقيت كارلا تشيع رحيلهم بعينين قلقتين حتى غابوا عن ناظريها.

بدأت تسير نحو المتجر المقابل بخطوات متعثرة، ولما دخلته بادرت توماس الجالس قرب الراديو:

- "هل علمت بما حدث؟"

أجاب مبتهجًا وهو لا يفهم مبتغاها:

- "نعم، لقد دخل الحلفاء إيطاليا وقريبًا سيدخلون بلادنا".

تهاوت على المقعد وهي تسهب:

- "لا أقصد هذا، لقد مضيت مع أميرة للتسوق، وبعودتنا شاهدت أميرة هذا المدعو عاصم، لقد أخبرت حسين وسالم وهما يوصلانها الآن، أنا قلقة يا توماس".

جذب توماس عكازه ونهض بهمة وهو يقول:

- "سنتصدى للأمر مهما كلف الثمن، إنها من العائلة".

***

شعر بشيء ساخن ينساب على جلده المتجمد، ولم يكن إلا دمه المندفع عبر ثقبي الرصاصة.

نظر بعينين غائرتين في الأرجاء وكان مصدومًا لا يدري ماذا حدث، فالأمور جرت بسرعة خاطفة، ولكن مع اقتراب المسعفين إليه والجنود الكُثر، بدأ يتفقد جسده، إنه مُصاب بطلق ناري اخترق معدته ونفذ للجانب الآخر ليصيب صديقه في الكتف.

كأنا ممددين داخل بركة الدماء لجوار بعضهما البعض وسط بقية الجنود الأموات، وكان روبرت ممسكًا بذراعه ويئن، ولما أقبل عليه الأطباء ترك لهم نفسه دون مقاومة، ونظر نحو سيمون الذي ينزف بغزارة نظرة امتنانٍ ولوم.

زحف نحوه بمقدار سنتيمترات قليلة، وغمغم باضطراب:

- "تماسك، وإلا سأقتلك".

ضحك سيمون، وفي ضحكته اندفعت بعض نقاط الدم عبر فمه مخالطة ريقه، فصمت مدة حتى نظر إليه بجدية غير عابئ بالممرضين الذين يضمدون خصره، ورجاه بعينين تدمعان، وصوتٍ متهدج مع وتيرة الأنفاس التي يسحبها بصعوبة:

- "لا أريد أن أدفن بالبحر يا روبرت، أسدي إليّ صنيعًا أخير، وأوصلني لمنزلنا، ربما أتمكن من رؤيتهم قبل أن أغادر".

وصمت للحظة ثم أضاف:

- "كنت أشعر بقدوم هذا، ولكنني ما زلت لا أجد ما أفسر به موقفي، إنقاذ روح لا يغفر قتل الآلاف".

- "الرب لا يحتاج منك تفسير يا سيمون، فهو رأى كل شيء، سيترأف بنا يا صديقي وسيدعمنا في الوصول لباريس".

التحليق به في الوقت الراهن حتى باريس يعني التعرض لمدافع الألمان المتواجدة بعمق فرنسا، والتي لم يبلغها الزحف بعد، ولكنه لم يستطع رفض وصية صديقٍ يحتضر، ويحتضر لأنه أنقذ حياته.

إنه مدين له بتلك الحياة فلا ضير في تبذريها ليحقق طلبه.

نهض واقفًا رغم استبقاء الممرضين له ريثما يكملوا تقطيب الجرح بعدما نزعوا الرصاصة، وبدأ يحمل سيمون بكل قوته المتبقية بعد تلك الأحداث الطويلة، وشرع يتحرك نحو حاملة الطائرات الراسية قاطعًا مساحة الشاطئ والمياه، وفيما هو يحمله على كتفه السليم، شاهد جثةٍ مشوهة تطفو بالقرب، فنزع قلادة الجيش المعدنية عن عنقه، ووضعها بإحدى الجيوب بعدما جذب الخاصة بالجثة والقاها للمياه.

لقد مات روبرت فيلد.

صعد فوق جسر معدني ولبث يمشط سطح حاملة الطائرات فيما يسير لداخلها، وكان الكل مشغولًا فاستغل الفرصة ووضع سيمون بمقعدٍ خلفي لإحدى الطائرات، وألبسه قناع التنفس في محاولةٍ لإبقائه مستفيقًا، وشرع يضغط الأزرار بتعجل.

انتبه الأشخاص حين دارت المحركات فحاولوا الاستفسار عن غرض تحليقه، ولكنه لم يكن ليتردد في تقطيعهم بمرواح الطائرة فأخذ يزيد سرعته فوق المدرج تاركًا لهم تقرير مصيرهم، إنه ليس وقت التفسير.

قفزوا مبتعدين ولزموا مطالعته وهو يحلق بالسماء، وكان هو يطالع الخرائط ليحدد كم تبعد باريس.

إنها على مسافةٍ تقارب المائتي كيلو متر فقط، وفي دقائق سيبلغها، استغل الغيوم وصعد على ارتفاعٍ شاهق لا تدركه المدافع، وكان سيمون يقضي لحظاته الثمينة في مطالعة السُحبِ الغائمة، والسماء شبه الوردية بسبب انعكاس الأشعة، كان أجمل مشهد يمكن أن يراه أحدهم بموته، ولكنه كان يطمح للأفضل، فأنزل عينيه ولزم مطالعة المدينة من خلف الزجاج بعينين تناضلان للارتفاع، وحين تجلى برج إيفل غمغم قائلًا في الراديو:

- "باتجاه الساعة العاشرة، وبمحاذاة نهر السين".

تفهم روبرت الموقع بسهولة فعدل سيره لهناك وهو ينوه برصده المدافع المنتشرة قرب النهر:

- "تماسك يا سيمون، سنفعلها".

اندفعت رصاصات المحور نحوهما مخترقة جناح الطائرة ومحركاته، فأطلق روبرت النيران بغيظ وأسقط آخر المتفجرات بتلك الطائرة عليهم، وركز بعينيه أمامه.

سيستغل المرج الكبير في الهبوط الاضطراري الذي سيؤديه الآن بسبب تلف المحركات.

ضغط كلاهما على أسنانه أثناء هبوطهما السريع حتى ارتطمت الطائرة بالأرض وزحفت عدة أمتار، دفع روبرت باب الخروج الزجاجي الواقع فوق رأسيهما، ونزع قناع التنفس خاصته، وطفق يراقب العائلة التي تتقدم في فضول وخشية فيما يكتم جُرح ذراعه الدامي.

كانت ليندا مع الوالدين وكانت أول من هرول صوب الطائرة، وحينما شاهدت سيمون جالسًا والدماء تغطيه، رفعت يدها على فمها لتكتم صرختها وتمتمت:

- "آوه، لا يا إلهي، لا أرجوكِ".

رفع سيمون يده بآخر ذرات القوة الباقية بجسده، وهمس بصوتٍ خفيض:

ـ "كم أنا ممتن للرب لأنه مكنني من رؤيتك، لقد تغيرت ملامحكِ قليلًا".

أمسكت يده الدامية وعانقته بحرارة ولهفة غير مبالية بثيابها التي ستغرق دمًا وغمغمت بانهيار:

ـ "وأنت كذلك، ولكنك ما زلت جميلًا".

تألم بسبب ضغطها على جرحه دون شعور ولكنه لم يشك ولو قليلًا، ومكثت عيناه تطالعان والديه اللذين يهرولان مقتربين، بشوقٍ جارف، ووهجٍ ينطفئ.

أحاطاه وأخذا يتحدثان بالفرنسية لوقتٍ قصير وكانت الصدمة واقعة عليهم، فقال سيمون وهو يسعل بقوة:

ـ "لا تقلقوا الآن، لقد باتت فرنسا حرةً، أنتم أحرار".

مدت ليندا يدها لتحاول كتم الدماء التي تندفع منه فأوقفها ولبث ينظر نحوها بحبٍ وألمٍ لا يوصفان فيما يرجوها:

ـ "فقط دعيني أراكِ مبتسمة، كُل هذا لا يجدي الآن".

علقت عينيها على وجهه وتحاشت رؤية كل شيء، وسمعته يضيف ممازحًا:

ـ "أما زلتِ تسقطين من فوق الفرس؟"

ضحكت وسط دموعها غير المتوقفة، وأخذت تتحسس وجهه بيديها وهي تومئ برأسها، فرفع سيمون يده مقدار بسيط ليؤدي التحية العسكرية وهمس لروبرت بينما يُغلق عينيه:

ـ "أفضل شيء حصلت عليه بوقت خدمتي في الحرب، هو شرف مرافقتكَ أيها الصديق".

رفع روبرت يده المرتجفة ليرد له التحية وحين تهاوت يد سيمون ارتفعت أصوات البكاء طرديًا وتنهد روبرت بقوة ثم قفز نحو الأرض ومشى لعدة خطوات والأسى يلثمه.

اسودت رؤيته وشعر بأنفاسه تتضاءل بسبب نزيفه المستمر وألم الفجيعة، فهوى على ركبتيه وفقد الوعي.

لقد رحل سيمون غوستاف.

****

في أحد مواخير حي الملاهي الحمراء الواقع قرب شارع سستر، جلس عاصم يشرب العرق الممزوج بالكيروسين وقد خلع طربوشه ووضعه على البار جواره.

إنه غاضب ومتألم ولقد صدق حدسه حين قرر متابعة الحنطور، ورؤيته لأميرة رفقة سالم تؤكد ذلك، لقد هربا سويًا وتزوجا كما ظن، ولكن لا بأس فلقد تتبعهما حتى المنزل وبات يعلم كافة الأماكن التي يلجؤون إليها.

تجرع من زجاجة شبه دائرية الشكل في نهم، وبدت عيناه محمرتين كلهيب النار، أميرة تظن أن زواجها من غيره سيجعلها تهرب منه ومن الزواج، ولكن لا.

كل شيء سيحدث كما يريد ولكن بحالة وضع خطة شاملة، إنه يحصل على ما يريد مهما كلفه الأمر، وبحالتها لن يستسلم حتى تفارق روحه جسده.

التقط طربوشه وتوجه نحو الهاتف القريب وبدأ يدير القرص طالبًا أحد الأرقام، وبعد لحظات جاءه صوتٌ ذو لكنة إنجليزية يتساءل:

ـ "من هناك؟"

أجاب وهو يخرج سجائره من جيب حلته الفاخرة:

ـ "عاصم بك حشمت يتحدث".

جاء الصوت يقول مهللًا:

ـ "لي الشرف أنكَ حدثتني يا عاصم بك".

صمت عاصم للحظات حتى قرر الدخول بصلب الموضوع فقال بإيجاز:

ـ "لقد خدمتكَ بالسابق، والآن وقت رد الخدمة، سمعت أنكَ أصبحت مدير سجن ذي مكانة في مصر".

أكد الصوت ببعض الفخر:

ـ "أنا كذلك بالفعل، أخبرني بما تريد".

ـ "لا يمكنني إخبارك بالهاتف، دعنا نلتقي في العوامة قرب العاشرة، هل تذكر مكانها؟"

ضحك الرجل وهو يجيب:

- "وكيف أنساها؟ سألقاكَ هناك بلا شك".

أغلق الخط وعاد للبار وهو ينفث الدخان بثقة، لقد بدآ الحرب ضده، ولكنه عازمٌ على إنهائها بالربح لا غير.

****

حول طاولةٍ مستديرة ذات مفرشٍ أبيض، جلس الخمسة أفراد يتناقشون، ويتناوشون.

الساعة تقارب العاشرة والبرد شبه زمهرير ولا يكف عن تحريك الستائر المعلقة بمدخل الشرفة القريب، ولكن توماس لا يهتم بالرحيل الليلة.

إنه يراقب الباب من الحين للآخر أثناء تحدثه معهم خشية أن يقتحمه أحدهم فجأة، لقد تناسى الحرب ولكنه لم ينس الواجب ولو لثانية.

اقترح حسين وهو ينقر الطاولة:

- "لم لا ننهي الأمر يا سالم ونخبر رستم باشا".

هتفت أميرة بانفعال عاطفي قبل أن يُجيب سالم:

- "كلا، قد لا يحتمل الخبر، عله يظنني أقيم مع صديقةٍ ما حتى الآن".

نظر لها سالم للحظات ثم قال بعصبية:

- "سيعلم مهما أخرنا الأمر، إلا إن كنتِ تنوين البقاء بعيدة عنه للأبد، هل يروق لك هروبنا وقلقنا هذا؟ لماذا لا تدعينا نواجه؟"

لم تكن هادئة بالمرة، فغمغمت بينما تغادر الطاولة:

- "لن أستطيع امتصاص غضبك الآن، ولا أقوى على تفسير موقفي كذلك، لذا سأنهض للنوم، بعد إذنكم".

راقبتها كارلا بعينين متألمتين حتى غابت خلف جدران غرفتها ثم تساءلت بلوم فيما تحدج سالم بعينين واسعتين:

- "أكان يجب أن تقول هذا الآن؟ إنها تتألم يا سالم، لقد قايضت كل شيء بكَ دون أن تعقل الأمور".

تمتم سالم وهو ينهض:

ـ "أتعنين أنها تسرعت في الزواج مني؟ أأخبرتكِ بهذا؟"

نهض حسين وقال بصرامة:

ـ "ســـــالم، اهدأ قليلًا لنفكر بطريقة صحيحة".

كان مط الاسم بمثابة تنبيه غرضه أن يلاحظ عصبيته، وبدت الجملة كنصيحة أخوية، فصمت سالم لبعض الوقت وأخذ يتنفس بقوة، وأضاف توماس بينما يقترب منه:

ـ "اذهب لها الآن فهي بحاجةٍ إليك، سنترككما لترتاحا، وبحلول الغد سنجد حلًا يرضي الجميع".

نهضت كارلا مؤيدة وأمسكت كتف حسين وهي تضيف:

ـ "هذا صحيح، لنؤجل كل شيء حتى تتماسك أميرة، هي الأهم الآن وليس أي شيء آخر، ما رأيك يا حسين؟"

ربت حسين على يدها وعقب بينما يحدج شقيقه بنصح:

ـ "في ظل المشاكل لا بد أن نتحد، فالمشاكل هدفها التفرقة لا غير، استعذ بالله واذهب يا سالم، طابت ليلتك".

توجه للباب صحبة كارلا وتبعهما توماس ببطء غير مقصود، وحين باتوا بردهة البيت قبالة الدرج، قال توماس وهو يسير للباب:

ـ "سأرحل كذلك فأنا متعب، طابت ليلتكما".

ـ "انتظر، سأوصلك".

قال حسين هذا، فرفع توماس يده دون أن يلتفت وصارحه بلطف قبل أن يغادر:

ـ "لا داعِ، فأنا أرغب بالسير والتفكير منفردًا".

التفت حسين ليصعد الدرج بينما يتثاءب، وتبعته كارلا بخطى واسعة، فأغلق سالم باب شقته ودلف للداخل، وكان صوتُ نشيج أميرة يصل لأول الردهة.

سارع بالذهاب نحوها، وحين فجا الباب وجدها منكمشة بجانب الغرفة، وقد جلست القرفصاء وأحاطت ركبتيها بيديها.

اقترب منها وتمتم بأسف:

ـ "لقد كنت فظًا، وأنا أعتذر".

مد يده ليربت عليها فدفعتها بعصبية وهي تحذره:

ـ "اتركني وحدي فأنا غاضبة وأتألم".

لم يبال بدفعها له وهمس وهو يقترب مجددًا بحذر أكبر:

ـ "أنا جوارِكِ دومًا وفي ظل كل أطوارِكِ، اغضبي وتألمي، وافعلي كل ما يحلو لكِ، ولكن برفقتي، نحن نتشارك كل شيء حتى الأحزان".

حاولت دفعه من جديد ولكنه أمسك يدها بخفة واحتضنها، وأضاف بينما تحاول التملص منه:

ـ "الحب هو أن نظل مهما دفعتنا الحياة للرحيل، أعرف أن أعصابك تالفة ولكنني كذلك أيضًا، لذا سامحيني على ما قلته منذ لحظات".

توقفت عن الحركة وانسابت على ذراعيه وطفقت تبكي، وتئن، وباحت له بكل ما يؤرق خاطرها، ويقض مضجعها، حتى نامت أثناء تحدثها.

لقد وجدت احتواءً ولكنها لم تجد حلولًا.

***

رُصت جثث جنود الحلفاء المتعددة الجنسيات بمحاذاة الشاطئ حينما خيم الليل، وكان بعض القادة يمرون من جوارها على ضوء كشافات المراقبة والإنارة فيما يتصفحون بعض الأوراق التي تحوي أسماء القتلى ليبحثوا بها عن رجالهم المفضلين، وكان الجنرال ألفريد من ضمنهم.

في يديه كانت ترقد ورقة تحمل اسم روبرت، وكان يبحث عنه وسط الجثث، فلقد انتشرت الأقاويل أن هناك رقيبًا فر بإحدى الطائرات.

كانت القلادة المعلقة على عنق الجندي هي وسيلة تمييزه الأسرع مهما كانت حالته، ولكن الجنرال ألفريد شعر بالشك، فالجثة المشوهة التي تحمل قلادة روبرت فيلد، تحمل صليبًا أيضًا، وروبرت لم يكن متدينًا، كما أن هناك وشم على الذراع يبدو قديمًا، وروبرت لم يوشم جسده كذلك.

قال أحد القادة الذين يرافقونه وهو ينظر لصف الجثث الممتد:

ـ "إنهم أموات ولكنهم مسرورون حتمًا لانتصارنا".

تطرق ألفريد برأسه نحو الأسفل وهامت بعقله ذكريات ليلة إنزال صقلية، لقد أخبره روبرت أنه لن يبتهج إلا وقتما يموت روبرت فيلد، وقال إنه سيفهم فيما بعد مغزى حديثه، كما سأله المساعدة حينها ويبدو أن تلك اللحظة هي التي يعاصرها الآن.

لقد تيقن أنه فر بعدما زيف موته، ولكنه حائر بين إعطاءه الخلاص، أو صب الجحيم عليه.

تساءل أحد القادة وهو يقترب ليطالع الجثة:

ـ "أهو الرجل الذي تبحث عنه يا جنرال ألفريد".

ابتلع ألفريد ريقه وهز رأسه بالإيجاب وهو يضيف:

ـ "نعم، إنه هو".

وصمت لوهلة ثم نهض واقفًا وقال للرجال تحت إمرته:

ـ "لقد توفي الرقيب أول روبرت فيلد بإنزال نورماندي بعدما كرس حياته في خدمة الرب والتحالف والملكة، اكتبوا هذا بتقريركم، وضعوا اسمه وسط لوائح القتلى".

***

تفقد المكان لدى استيقاظه، وحينما رأى الأثاث الأوروبي الشكل يحيط به، بدأ عقله يسترجع الأحداث السابقة فعلم أنه قد يكون ببيت عائلة غوستاف.

نهض نحو النافذة ليتيقن، وسرعان ما هدأت شكوكه لما رأى الباحة التي تحمل آثار هبوطه الأخير، ولكنه لم يجد شيئًا من الطائرة، تبدو كأنها اختفت.

رفع يده ليمسك جمجمته التي تغلي فلمح ذراعه المُطبب والمحاط بالشاش الأبيض، وعندئذ قرر مغادرة الغرفة ليستدرك ما فاته منذ إغمائه.

ارتطم الباب بالجدار بسبب فتحه العنيف، وخرج روبرت غير مبالٍ ليسير بالرواق بحثًا عن أي أحد ولكن الطابق العلوي فارغ كليًا.

سمع أصوات غير مفهومة تصدر من الأسفل، فاستهل بهبوط الدرج حتى شاهد الآب والقساوسة الذين يتلون الصلوات بالآرامية قرب تابوت سيمون.

تطلع نحو التابوت ففقد القدرة على الحركة حينما شاهد صديقه يرتدي الحلة السوداء وينام مبتسمًا، إنها خسارة فادحة بالنسبة له.

تماسك قدر المستطاع ومشى إليه بين العائلة والرهبان لا ينظر لأحدهم، ولا يستشعر وجودهم حتى، ولما أدركه همس دامعًا:

- "تبتسم كأنكَ وجدت ما تفسر به موقفكَ للرب، أم أنه لم يسألك؟ إن كنت مكانه لغفرت لكَ يا صديقي دون سؤال، لقد عانيت أكثر مما ينبغي أيها الحليف".

أعلن الأب وهو يقترب من التابوت:

- "لنحمله حتى مقابر الكنيسة، سيدفن بأرض مقدسة".

التفت له روبرت بسخط وقال بجدية:

- "سيمون كان يتوق لمنزله وحقله حتى مات، سيدفن هنا، تلك الأرض مقدسة أيضًا، فلقد نزف عليها ولأجلها حتى توفي".

شعر الأب بالصدمة ولكن غوستاف عقب باكيًا:

- "دع ابني يحظى بما يريد أيها الأب، سيرقد هنا بسلام".

استسلم الأب لقرارهما وتوجه مع القساوسة للخارج حتى يحفرون قبره، وجلس روبرت لجوار التابوت وقال بينما يمرخ دموعه المنحدرة على وجنتيه:

- "شكرًا لتطبيبكم جرحي، ولكن ماذا فعلتم بالطائرة؟"

- "سحبت قطعها بمحراث الحقل حتى الحظيرة كي لا تراها دوريات الألمان التي شاهدت هبوطكما، أنت بأمان هنا يا بني".

- "شكرًا لكَ ولكنني سأرحل بعد دفن سيمون، لدي ما يجب فعله".

- "أستعود للجيش؟"

هز رأسه بضيق ونفور:

- "كلا، لقد انتهت تلك الحياة بالنسبة لي".

ـ "وكيف ستغادر فرنسا، الجيشان قد يعترضان هروبك".

صمت روبرت فهو لم يضع خطة للمغادرة، وقال بعد حين:

ـ "سأتصرف، ولكنني سأحتاج ثياب مدنية".

نوهت السيدة غوستاف بحزن وهي تسير للأعلى:

ـ "ستلائمك ملابس سيمون".

عم الصمت لوهلةٍ ثم همس غوستاف راجيًا:

ـ "انتظر بضعة أيام وسأهربكَ من فرنسا، أنا أدرى ببلادي منكَ يا بني، ولقد أوصلت ولدي لبلده، لذا سأعيدكَ لبلادك مهما كلفني الأمر".

هز رأسه بالنفي وهو يقول:

ـ "لن أعود لبريطانيا، بل لمصر، لا تشغل نفسك بالأمر، فأنا بحاجة لهوية جديدة كي لا أثير الشبهة، وزورق يهربني عبر المتوسط".

صمت غوستاف بسبب وصول القساوسة لحمل التابوت، وحين خرجوا جميعًا لباحة المنزل، قال بلهجة مطمئنة:

ـ "أنا أعرف أحدهم، سيصنع لكَ الهوية خلال يومين ولن يكتشفها أحد، كما أن لدي معارف كثر يملكون زوارق، دعني أهتم بالأمر".

راقب روبرت التابوت وهو يُنَزل بالهوة، وقرر بعد حين:

ـ "سأحتاج هويتان، وهاتف غير مراقب لأجري مكالمة مهمة".

هز غوستاف رأسه ببطء، ولبث يرشم الصليب على جسده، ويصلي بعينين مكتئبتين وحزينتين لفراق سيمون، ولم يُعزيه سوى أنه يحظى برؤية قبره، كان الأمر سيكون أصعب إن علم بموته ولم يجد له جثمان أو قبر.

التفت نحو روبرت المحدق بالتابوت وطالعه بامتنان فلقد أعاد له ولده ليحظى بتوديعه ودفنه، وهذا جميلٌ لن يوفيه مهما ساعده.

****

أعلنت حالة الحداد منذ علمت بالخبر –المزيف- ولزمت غرفتها، وكان الألم ينبعث من سويداء قلبها المتفتت دون توقف، نصبها بلغ عنان السماء، وعقلها يكاد يطيش منذ قرأت اسمه بلائحة الموتى هذا الصباح.

كل الأشياء اسودت بعينيها فجأة، وكل عضو بها كان يتوق للحركة، أصابه الخمول، بريقُ عينيها منطفئ، ووجهها يغلب عليه الاصفرار، وجسدها لا ينفك ينتفض مع بكائها كل وهلةٍ.

بدت فيرونا كأنها هي التي ماتت.

دوى رنين الهاتف فلم تنهض لتجيب، لن يكون هو بلا شك، فلقد رحل وتركها وحيدة، ولا شيء معها الآن سوى الذكريات، إنها تعيد حياتها معه منذ رأته بذاكِ البار الإنجليزي، ولا تنفك تعيدها كلما انتهت.

عاد الهاتف يدوي من جديد، فنهضت نحوه لتفرغ جام غضبها على موظف الاستقبال الذي لا يمل، وهتفت بصوتٍ محشرجٍ وباكٍ:

- "ماذا هناك؟"

- "آسف على الإزعاج يا سيدتي، ولكن السيد ماليني يطلبكِ".

عقدت حاجبيها باستياء وقالت قبل أن تهم بغلق الخط:

- "لا أعرف أي ماليني، دعني وشأني، وتوقف عن إزعاجي".

حركت السماعة بعيدًا عن أذنها لتضعها على الهاتف وتنهي المكالمة، ولكن الصوت أضاف:

- "يقول إن لديه أخبار ستهمك، تتعلق بأحد الطيارين".

تجمدت فيرونا كتمثالٍ خزفي متصدع، يخيل لمن يراها أنها ستتهشم رغم آدميتها، ولكن فجأة، لمعت عينيها بوهجٍ غريب، كان ناجمًا عن الأمل الذي حل مكان الألم في قلبها.

غمغمت غير مصدقة:

- "صلني به رجاءً".

امتثل الموظف دون حرف، ومرت لحظات ثقيلة تاقت خلالها لسماع صوت المتصل، حتى جاء صوت روبرت يقول بنبرةٍ يلثمها الحيط:

ـ "ماليني يتحدث يا عزيزتي، كيف أنت؟"

أخذت تسحب الأنفاس بقوة، وتمتمت بصوتٍ مضطرب حين ألفت صوته:

ـ "أنا لا أفهم شيئًا، ماذا يحدث؟"

فسر بهدوء وهو يلتزم نفس النبرة:

ـ "الكثير من الأمور حدثت كما تعلمين، أنا أحدثك من باريس، وقريبًا سآتي لمصر حتى آخذك ونمضي".

غمغمت وهي تمسح دموعها:

ـ "لقد قرأت اسمك اليوم بين كشوفات القتلى".

صمت لوهلةٍ وقد فهم أنه مات رسميًا، ثم قال مبتسمًا:

ـ "دعيهم يظنون هذا، فأنا لا أريدهم أن يزعجونا بعد الآن".

ـ "ولكن هل أنت بخير فعلًا؟ هل جرحت أو شيء من هذا القبيل؟"

ـ "أنا بخير حال، وأنتِ كذلك كوني بخير حتى نلتقي".

ـ "لقد أصبحت بخير فعلًا، أنا كنت على وشك الموت من الحزن".

تنهد بقوة ثم قال:

ـ "لم أتمكن من الاتصال ليلة البارحة، أنا آسف للغاية عما سببته لكِ، ولكنها الطريقة الوحيدة لنرتاح من كل هذا العبث والفرار".

ـ "متى ستأتي إلى هنا؟"

ـ "بمجرد أن أرتب بعض الأمور".

ـ "سأكون بانتظارك".

ـ "لطالما فعلتِ، ولكنني أعدك أن كل شيء سيتغير".

ـ "يا إلهي، أنا أحبك كثيرًا، وأتوق لرؤيتك، حاول ألا تتأخر".

ـ "لن أفعل، سأغلق الخط الآن وسأحاول أن أبقى على اتصال حتى أعود، أنا أحبك".

أغلق الخط، فوضعت فيرونا السماعة وقد تبدلت حالتها مائة وثمانين درجة، إنها لم تكن أكثر سعادة مثل الآن، لقد مات روبرت ولكن ماليني حيٌ يُرزق.

****

صافرات الإنذار في ألمانيا لم تكن تتوقف تقريبًا، فحينما تمضي موجة القصف الأميركي، تتبعها موجةٍ أخرى من قصف سلاح الجو البريطاني، ولم يكن هناك شيء ثابت سوى الشعب الألماني الذي قُتل وشرد حتى طفح كيله وفكر في الانقلاب على هتلر، وكان الأخير يُطلق الصواريخ من شرق فرنسا نحو بريطانيا بلا توقف، ولكن قصف هذا، وقصف هؤلاء لم يوقف الحرب، بل أدخلها منعطفًا آخر.

منعطفًا دمويًا أكثر، فلقد بدأ الجميع يسعى نحو التفوق في السلاح.

بمنتصف أغسطس جرى إنزالٌ آخر في فرنسا ولكن من الجانب الإفريقي، على ساحل سانت تروبيه ولقد ضم الجيش الفرنسي الذي أعيد تشكيله، جنسيات مختلفة، أغلبهم من المغرب والجزائر وتونس، والقليل من جنوب إفريقيا، إضافة لجنود فرنسا الحرة، وكان زحفهم يسير بلا تريث، فتمت السيطرة على الساحل حتى مارسيليا قبل نهاية الشهر.

****

رأى غوستاف أنه الوقت الأنسب لتهريب روبرت، فلقد حررت باريس من قبضة الألمان كما حُرر الساحل ولم يعد هناك عقبة سوى الحلفاء المنتشرين بالطرقات، وخداع هؤلاء أمرٌ سهل في ظل وصول الهويات المزيفة.

وافق روبرت على هذا بلا جدال، فهو يستميت ليعود أدراجه لمصر، حتى وإن تجلت الصعوبات، والأهوال.

في ليلة التنفيذ تسلل الرجلان بهدوء نحو السيارة المتوقفة أمام مدخل المنزل، وبينما كان غوستاف منشغلًا بإدارة المحرك بقي روبرت محدقًا بقبر سيمون ليودعه الوداع الأخير، وبدت ملامحه مختلفة كثيرًا عما سبق رغم أن المتغيرات به لا تتعدى خصلاته التي طالت قليلًا منذ تركه الخدمة.

تحركا بشوارع باريس المحفوفة بالإطارات المحترقة، والأشجار التي قطعت لصنع حواجز، لجانب أكياس الرمال ولم يكونا متعجبين بتاتًا، فالشهران الماضيان كانا مليئين بالأحداث العنيفة.

لقد أعلن الفرنسيون العصيان المسلح ضد الألمان حينما جرى الإنزال الثاني، وكان القتال يدور بالشوارع، واشتد حين حاول الألمان تخريب فرنسا قبل مغادرتهم.

غمغم روبرت متسائلًا وهو ينظر بالأرجاء عبر النافذة:

ـ "أما زلت تشعر بالحزن بسبب فقدكَ سيمون؟"

التفت له غوستاف الأوروبي الملامح وأجاب بعينين ضيقتين:

ـ "طبعًا، وأفعال ليندا تزيد ألمي كذلك، ما زالت حتى الآن تضع إكليل ورود على قبره عند الشروق وتجلس تحدثه حتى الظهيرة، وأراها أحيانًا تبكي وأحيانًا تضحك أثناء التحدث، آوه، يا إلهي، ترفق بتلك المسكينة".

لم يكن الأمر جديدًا على روبرت، ولذا عقب بهدوء:

ـ "إنها تحييه يا سيد غوستاف فلا توقفها، سيموت سيمون فعلًا حينما ننساه، عدا ذلك فهو معنا".

دمعت عينا غوستاف وهو يمر عبر نقطة التفتيش القديمة، وغمغم بعد حين وهو يشير بإصبعه لجانب الطريق:

ـ "كنت أسير معه بهذا الشارع دومًا لأوصله للمدرسة، كان هادئًا بطبيعته، ولم يكن من الفتية المحبين للشجار، ولكن الظروف جعلته يحارب، والحرب لا تصنع الرجال، بل تقضي عليهم".

نظر له روبرت بإشفاق ولم يجد ما يقوله ليواسيه، فهو نفسه بحاجةٍ للمواساة، فلقد مرت أسابيع وهو يتقلب على نيران الشوق والقلق، وكلاهما متقد بسبب فيرونا، إنه لا يريد من الحياةِ شيئًا سوى رؤيتها من جديد.

عم الصمت طويلًا حتى توقف غوستاف فجأة، وقال:

ـ "دورية تابعة لجيش الحلفاء بنهاية الشارع".

نظر روبرت لهناك وهز رأسه مؤكدًا بينما يسأله:

- "هلا قدت السيارة لنصل إليهم؟"

حملق به غوستاف متعجبًا ففسر وهو يجلس بارتياح:

- "يجب أن نتحقق من براعة المزور، تحرك كي لا يشكوا بكلينا".

ضغط غوستاف على دواسة الوقود وتحرك بسرعة وباقترابه وقف أحد الجنود بمنتصف الطريق وأشار له بعلامة التوقف.

استجاب وهو يبدي توترًا وتقدم الجندي بمصباحٍ صغير، لزم تصويبه نحو وجهيهما وهو يأمرهما بجمود:

- "بطاقات الهوية".

أخرج كلٌ منهما بطاقة الهوية الخاصةُ به، وتعمد روبرت إظهار بطاقة فيرونا، فأضاف الجندي:

- "أرني ما تلك".

مد روبرت كلا البطاقتين نحوه بينما يبتسم بهدوء، ولزم الصمت حتى عاد الجندي يقول:

- "أنت يوناني إذن، ولكن لماذا تحمل بطاقة زوجتكَ بجيبكَ".

ابتسم روبرت وقرر أنه سيتحدث باليونانية، حتى يختبر إجادته لها.

- "في أسطورة الخلق الإغريقية، ولد الحب من رحم الموت والظلام، فلا تتعجب أيها الرفيق من أمري إن كنت أحمل بطاقة زوجتي وسط تلك الظروف، سأحملها دومًا حتى أعود لليونان، سمعت أنكم تعملون على هذا".

لم يشك الجندي به للحظة بل تأثر بموقفه وعقب ببعض اللطف فيما يعيد البطاقات:

- "الاجتماعات السياسية لا تتوقف أيها المحترم، وقريبًا ستعود لزوجتكَ، يمكنكما المرور".

تحرك غوستاف وهو يمسح عرقه، وجلس روبرت بمقعده مرتاحًا وهادئًا، البطاقات مزورة باحترافية، والآن يستطيع إعطاء فيرونا هويتها الجديدة دون خوف.

سيفعل حينما يبلغها.

****

في عتمة الليل، توقفت شاحنة الشرطة أمام منزل ورثة الحاج عبد الحق، فاندفع العسكر نحو الباب الخارجي كي يهشموه، وحينما أبصروا سالم يركض عبر البهو ليرى مصدر الجلبة، أمسكوه من طيات ثيابه، وسحبوه في فظاظة نحو السيارة دون أن يلقوا بالًا لاحتجاجه وتساؤله عن جريمته.

ركضت أميرة للطابق العلويِ لتنذر حسين وكان الأخير قد سمع صوت تهشم الباب فشرع بالهبوط في عجالة تاركًا كارلا تحاول اللحاق به.

تجمعوا بمنتصف الدرج، وبادرت أميرة بفزع وتلعثم:

- "لقد جاء العسكر وأخذوا سالم".

ركض حسين لمقدمة البيت ليفهم ما يجري، ولكنه لم يجد سوى الجيران المتجمعين والذين يتساءلون بدورهم، ركض بالطريق ليتتبع الشاحنة ولكن عبثًا، لقد تبخرت تمامًا.

وقف بالدربِ لدقيقتين لا يدري ماذا يصنع ثم عاد أدراجه للمنزل، وبوصوله سأل أميرة التي تبكي على ساق كارلا بلا تمهل:

- "كيف كان شكلهم؟ أيبدون من البوليس فعلًا؟"

رفعت وجهها وأجابت بحزنٍ متفجر:

- "هم كذلك، وأنا السبب في كل هذا، أنا السبب".

ربتت كارلا فوق ظهرها وهي تعقب بتفاؤل معتاد:

- "لا بد أن هناك سوء تفاهم، من الأفضل أن نتجه للمخفر لنعلم كل شيء".

هز حسين رأسه مؤيدًا وقال بينما يستدير:

- "سأتجه لهناك يا كارلا، اصعدي مع أميرة للأعلى وأغلقي الباب جيدًا ولا تفتحي لأحد".

أومأت متفهمة وساعدت أميرة على النهوض، وبدأت تسندها حتى الأعلى فيما كانت الأخيرة تنتحب، وقد حملت نفسها كامل المسؤولية، لن تسامح نفسها إن حدث له شيء ولو هين.

صعدتا للشقة العلوية، ودلفتا للداخل ببطء، وتحدثت كارلا بصوتٍ لين لتهدئها بينما تسحب مزاليج الباب:

ـ "حسين سيتصرف فكفي عن البكاء".

غمغمت أميرة وهي تتهاوى فوق الكُرسي:

ـ "أنت لم تشاهدي ما حدث، لقد أخذوا سالم دون أن يسألوه عن اسمه، لقد قدموا لأجله وهم يعرفونه جيدًا، عاصم دبر لهذا، أنا متأكدة".

جحظت عينا كارلا فلقد نسيت أمر عاصم تمامًا مع مرور الأسابيع، ثم تقدمت لتجلس قربها وخيم الصمت ساعةٍ ويزيد، ولم يقطعه سوى طرقات حسين وتعريفه بنفسه.

توجهت كارلا لتفتح وانتصبت أميرة واقفة على أمل رؤية سالم ولكنها وجدت حسين يدخل وحيدًا.

تساءلت وهي تسح الدموع دون رادع:

ـ "لماذا لم يأت معكَ، ما هي تهمته؟"

ـ "لم أجده بالمخفر القريب، سأبدل ثيابي وسأمر على المخافر تباعًا حتى أعثر عليه".

دلف للغرفة وتبعته كارلا، فبدأت أميرة تغادر دون إصدار ضجة، إنها تعلم جيدًا ما هي تهمته.

تهمته أنه أحبها بصدق.

****

على مَتن زورق آخر غير شرعي، جلس روبرت يُدخن في صمت مطبق بينما عيناه تمشطان المسطح المائي كل وهلة، حركة تبديل الزوارق التي أعد لها غوستاف ليست سيئة من وجهة نظرة، ليس لأنها أكثر أمانًا وأقل تكلفة، بل لأن هذا الزورق أسرع وأكثر راحة من الآخر، إنه على مشارف الإسكندرية.

ألقى عقب سيجارته نحو الماء ولزم تحسس الهويتين الجديدتين باستياء، ثمَّ شيء يزعجه، وهو أن اليونان ما زالت محتلة، وهذا سيؤخر عملية فراره.

يُمكنه المغادرة لمكان آخر ولكن هذا ينافي خطته التي درسها لشهور، إنه بحاجة للارتجال.

رفع عينيه بعد دقائق ليمشط المكان من جديد فوجد الزورق راسيًا، وكان السائق يَهم بإعلامه أنهما وصلا، نهض روبرت بتعجل وقفز عبر الزورق دون حرف، وشرع يسافر داخليًا للقاهرة، وبعد مواصلات مُختلفة ومُرهقة تتلخص في سيارتين أجرة وقطار، أدرك فُندق فيرونا فاستمر يحدق به وكأنه يسأله ما إن كانت خلف جدرانه.

هندم ملابسه المغبرة، ومسح وجهه الكالح وبدأ يسوي خصلاته الشقراء قبل أن يقرر الدخول، ولكنه شاهد فيرونا تهبط الدرج بوجوم.

تجمد مكانه ولبث يحملق بها في صبابة جارفة، لقد نسي وعثاء السفر كليًا، وتفجر الأدرينالين بعروقه جعله يبدو في أوج نشاطه.

لمحته بهبوطها فتوقفت للحظة وبدا عليها الاندهاش والغضب والحنين في آن، يدها القابضة على جانب الدَرج الخشبي كما مخالب اللبوؤة تحذره من انفعالها، ولكن فمها المفتوح لرؤيته، وعينيها الملتاعتين يحثانه على التقدم.

خطى نحوها فبدأت تقابله بإسراع، وحينما التقيا ظنها ستعانقه وتقبله، ولكنها بقيت تَضربه بحقيبة الكتف خاصتها بينما تهتف بانفعال:

- "لقد قتلني القلق بسببك، أنا أكرهك، اغرب عن وجهي".

كان بتلك اللحظات راضيًا عن أي شيء تفعله فلم يبال بالحقيبة التي ترتطم بجسده كل حين، وظل يحملق بوجهها النافر بعينين تلمعان، وبسمة هادئة تميل للبلاهة.

توقفت حين ألمتها يدها، وسحبت نفسًا طويلًا ثم ارتمت فوق صدره وشرعت تبكي بسبب فرحتها العارمة، وتمتم روبرت بينما يحيطها بيديه:

- "لا يمكنك تخيل العقبات التي واجهتني منذ مغادرتي وحتى عودتي، لقائنا كان مستحيل ولكننا حققناه، لقد اشتقت لك، اشتقت لك كثيرًا".

غرست أناملها في جسده دون شعور وراحت تغمغم بصوتٍ مرتجف:

- "وأنا أيضًا، أسابيع كثيرة انصرمت وأنا أرتقب ظهورك، أحيانًا كنت أهرع إلى الباب ظنًّا مني أنكَ تطرقه، ولكنني لم أكن أجد أي شخص، أخشى أنني أتوهم رؤيتكَ الآن أيضًا!"

تراجع ببطء وهمس قبل أن يُقبلها بحرارة:

- "لستِ كذلك".

شعرت أن شفتيها ترتعشان فرفعت سبابتها لتلامسهما، وسرعان ما تجلت على ملامحها بسمة مغتبطة، إنه أمامها فعلًا.

***

مرت أيام من الجلد والصعق غير المُبررين، وظل الوقت يمر على سالم وهو لا يعلم ما إن كان بالصباح أو بالمساء فالزنزانة معتمة بكل الأوقات ولا ينساب ولو خيط ضوء واحد من تحت بابها الحديدي، لا شيء يصدر سوى صوت تأوهه وآنينه، وهما لا يصدران بسبب تعبه وسجنه، إنه يَنعي حالة أميرة التي بلغتها منذ جروه أمامها، فهو يعلم ردود أفعالها وإن لم يكن رآها منذ يومها، وهي بلا شك أصبحت على شفير الانهيار.

لقد انطفأت شعلة التفاؤل بداخله مع مرور الوقت، وبدأ ظلام اليأس يغلفه لجانب ظلمة السجن، ففقد الأمل في الخروج أو في قدوم من يراه، الأمر بلا شك مُدبر باحترافية، ووجوده بزنزانة كتلك ينوه أنه في عداد المفقودين.

حاول التمدد فوق أرضية الزنزانة ولكن آثار الجَلد تؤلمه للغاية، ولا يوجد جانب بجسده لم يُبرح ضربًا، تراجع ليجلس فيما يضغط على أسنانه بتوجع، وتفجر بداخله شعور قوي بالضعف والقَهر فبقيت شفتاه تهمهمان بالدعاء فيما يبكي بحُرقة.

لا أحد غير الله يستطيع رؤيته وسط الظلام، وتفهم ألمه المتفجر، وحده الله سيبالي بندائه وينظر في أمره.

***

بعد صومها الذي استمر منذ حَبس سالم والذي نجم عن فقدانها الشهية تجاه كُل شيء، أدرك جسدها ذروة الضعف بعدما استنفد الاحتياطي من الدهون والطاقة وتركها نحيلة القوام، شاحبة البشرة، غائرة العينين، فاضطر الطبيب أن يعلق لها المحاليل لجوار فراشها الجديد، الواقع بشقة حسين وكارلا كي لا ينتهي أمرها بالموت جوعًا كجنود بلا إمدادات.

جلست كارلا على مقربة منها، واستغرقت في النظر لهيئتها المزرية بعدما جفت شفتاها وبدا عليهما التشقق، وكانت كل ذرة إيمان بداخلها تسأل الرب أن يرفع تلك النوائب عنهم.

سمعت صوت حسين يناديها، فنهضت بتثاقل وكأن هناك جبل من الهموم فوق كتفيها، وحينما وصلت للباب نوهت بصوتٍ خفيض:

- "قادمة يا حسين".

نظرت نحوه فوجدت توماس برفقته عند باب الشقة، فأضافت بتقدمها منهما:

- "أهلًا يا توماس، تفضل".

دخل توماس مستجيبًا وتساءل أثناء توجهه لغرفة الزوار:

- "كيف حال أميرة الآن؟"

تنهدت كارلا بقوة وأجابت بينما تجلس على الكرسي الوثير:

- "أفضل، وأظنها ستستفيق حينما تنتهي المحاليل".

تقدم حسين ليجلس معهما وغمغم باستسلام مصحوب بالقلق:

- "وماذا سيحدث حينما تستفيق؟ سترفض الطعام بلا شك حتى يغمى عليها مجددًا، إنها تريد سالم وليس الطعام، ونحن لم نعثر على أثر واحد له بعد مضي أيام من البحث والتقصي، ورغم مرورنا على كُل أقسام إسكندرية والقاهرة، ترى أين أنت يا سالم!"

تنهدت كارلا وقالت بينما تنهض:

- "سأعد لكما بعض العصير".

تحركت خطوتين بعيدًا عن مقعدها ولكنها توقفت بغتة ورفعت يدها نحو فمها لتغطيه وقد شعرت برغبة في التقيؤ، هرولت نحو المرحاض وتبعها حسين بسرعة البرق وتساءل بينما يطالعها بخوف من أمام الباب:

- "بم تشعري يا كارلا؟ هل أطلب الطبيب؟"

اعتدلت بينما تمسح فمها وقالت أثناء سيرها له:

- "لا داعِ يا حسين فهو لن يضيف لي شيئًا جديدًا، أظنني حامل".

أدركهما توماس فوقف ينظر لهما تباعًا حتى استفسر:

- "ماذا هناك؟ هل أنت بخير يا كارلا؟"

نسي حسين كل المصائب المحيطة وأجاب مبتسمًا بدلًا منها:

- "ستصبح خالًا يا توماس".

التقط يدها بحنو، وشرع يساندها في السير، ووقف توماس كما هو للحظات وقد صدمه الخبر، وبعد حين بدأ يعود خلفهما لغرفة الزوار متهلل الوجه، ولكنَ الباب الخارجي للشقة جذب انتباهه فهو مفتوح على مصراعيه.

تسمر مكانه لوهلةٍ قبل أن يستدرك بصوتٍ مرتفع:

- "الباب الخارجي كان مغلق، أليس كذلك؟"

التفت حسين وأجاب بعد تفقده الوضع:

- "أنا أغلقته بنفسي فمن فتحه".

انسابت كارلا من يديه كحورية ماء، وهرعت نحو غرفة أميرة في رهبة وتوتر، وحين أدركت بابها ووجدت الفراش خاويًا، هتفت بذعر أثناء تراجعها:

- "أميرة فتحته، الحقا بها".

ركض حسين نحو الأسفل كالمصاب بالمَس حتى يبحث عنها بشقتها، ولكنه وجدها مغلقة وهادئة، وحين أدركه توماس خرجا نحو الطريق سويًا ليبحثا ولكنهما لم يجداها.

أميرة تبخرت هي الأخرى.

***

عيناها الخضراوان كانتا تُطالعان السماء بكل اهتمام، ولكن عيني روبرت لم تباليا سوى بالتحديق في كل إنش منها، وكان الارتياح يتفجر عبر ملامحه الجزلة لأنه انتصر في معركته المصيرية وجاءها لينعم بالسكينة من جديد.

نظر لفنجاني الشاي الراقدين فوق الطاولة الواقعة بينهما وهمس بالتقاطه أحدهما:

- "ماذا بك يا عزيزتي، أرى أنك تحملقين بالسماء ولا تبالين بالشاي".

التفتت فيرونا نحوه ثم نظرت نحو فنجانها الذي بَرد وأجابت بقلق متفجر:

- "أفكر في الحالة التي بلغتها بلادي في ظل الحكم النازي وأفكر بأمر العالم وما سيحدث له مستقبلًا، وفوق كل هذا أفكر بأمرنا، هل انتهت المصاعب عند هذا الحد أم لا!"

أطلق تنهد طويل تصاحبه الحماسة، ثم وضع فنجانه ونهض نحو ثيابه التي تغطي الفراش، وهناك التقط معطفه ولزم يقلب جيوبه حتى استخرج بطاقتي الهوية.

تراجع إليها فيما يضعهما بجيبه، وحينما جلس قال بهدوء:

- "لكي ننهيها يجب أن نتحدث في بعض الأمور، فلقد فكرت طيلة الأيام المنصرمة بأمر الهرب ولكنني وضعت خطة جديدة في النهاية".

اعتدلت فيرونا ونظرت له باهتمام بينما تعلن:

- "لنتحدث إذن عن الخطة الجديدة، ولكن أعطني نبذة عن القديمة أولًا فأنا لا أعرفها".

أغمض روبرت عينيه وبدأ يسرد:

- "لقد فكرت بكل شيء منذ رحيلي الأخير ووجهتي السابقة كانت اليونان لأنني ظننتها ستُتحرر بعد دخولنا إيطاليا، فالجيش المتواجد بها أغلبيته فاشيين، ولكن أمر تحريرها تأخر ووجودنا بمصر يشكل خطرًا كبيرًا على كلينا، فلو رآني أحد القادة أو الضباط سيكشف كل شيء وستتعرضين للمتاعب كذلك بصفتك على علاقة برقيب هارب ومزور".

فتح عينيه بينما يضيف:

ـ "نحن بحاجة لوجهة جديدة غير جزيرة كريت لتكون قريبة من اليونان وبعيدة عن مصر، ولا يوجد سوى مكان واحد ولكنه مستعمرة بريطانية".

عقدت فيرونا حاجبيها وبدأت تتساءل بفضول:

ـ "وماذا يدعى هذا المكان؟"

داعب حافة الفنجان وهو يجيب:

ـ "جزيرة قبرص".

لمعت عيني فيرونا بالحماس والبهجة فلطالما سمعت عن تلك الجزيرة الخلابة، ولكنها ستشكل خطرًا على روبرت إن قصدها ما دامت مستعمرة بريطانية.

همست ببعض القلق:

ـ "ولكن الأمر به خطورة عليك".

هز رأسه وهو يضيف:

ـ "وبقائي في الفندق وانتظاري خبر تحرير اليونان مخاطرة أكبر، ومضيعة للوقت أيضًا، أعتقد إنه ما دامت المخاطرة تتخلل كل قرار وفعل نقوم به فلنفكر بقبرص، فعلى الأقل ستقربنا من غايتنا".

سكت لوهلة ثم عاد لسرد الخطة فقال بجدية:

ـ "سنعيش هناك كأننا يونانيان الجنسية ننتظر تحرير بلادنا لنتحرك نحوها، ولذلك يجب أن تجيدي اليونانية بلكنتها، ومن الضروري أن تعرفي عنها بعض الأشياء، وهناك أمر آخر".

شعرت بالقلق إزاء الخطة، وبالتردد تجاه تعلم لغة جديدة بفترة قصيرة فتنهدت في رهبة بينما تتقدم نحو النافذة وبدأت تمط الكلمات قائلة:

ـ "ومـــا هو؟"

اقترب منها وتمتم ببعض الخجل وهو يظهر الهويتين:

ـ "لقد زورت بطاقة هوية لنفسي، واستخدمت صورتك التي أبقيت عليها بمحفظتي في صناعة هوية لك باسم ماتيلدا ماليني، المفترض أنها زوجتي".

وصمت لوهلة كي يبتلع ريقه وكان يتعرق بينما يتساءل:

ـ "هل تتزوجيني يا فيرونا؟ هل ستجعلين الرباط بيننا غير مزور؟"

شعرت أن قدميها لا تستطيعان حملها فتهاوت على المقعد وراحت تتمتم بعينين تدمعان فرحًا:

ـ "لقد نسبت نفسي لكَ منذ غيرت هويتي الألمانية وغادرت بريطانيا، ولا أمانع إن كنت غيرتها أنت تلك المرة ونسبتني لك، واحدة بواحدة كالعادة".

عانقها بحرارة وراح يغطي وجهها بالقبلات، وحين تراجع همهم فيما يمرخ دموعها:

ـ "سنتأهب للسفر بعد زواجنا إذن، وبتلك الأثناء سنعمل على لغتك اليونانية".

أومأت برأسها مؤكدة وكانت وجنتاها متوردتين خجلًا، فها هي أحلامها تتحقق بعد انتظار سنوات، ولكن شيئًا ما جذب انتباهها فتساءلت وهي تنظر لروبرت متعجبة:

ـ "هل أسميتني ماتيلدا، تيمنًا باسم طائرة؟!"

قهقه وهو ينهض كي لا تلكمه وأجاب:

ـ "كان أول أسم طرق ذهني ونحن نُزور الهويات، ولا تغضبي رجاءً فلقد أسميت نفسي تيمنًا بمطار ماليني اليوناني!"

ضحكت بسبب جنونه، وشعرت أن الجيش ما زال يشغل تفكيره وهو أمر لا بد من إنهاءه سريعًا، فنهضت لتغمره في حنو وهمست بسعادة:

ـ "أحبك، أحبكَ أكثر من أي شيء ولا تهم الأسماء، المهم أن نكون معًا".

أحاطها بيده وأرخى رأسه على كتفها ولزم مطالعة السماء الصافية بينما يهمس مؤكدًا:

ـ "سنكون معًا يا عزيزتي، ولن يفرقنا شيء بعد الآن".

****

توقفت أمام مَحطة القطار، وبقيت تنظم أنفاسها اللاهثة فيما تُسهب الدموع، عيناها المنهكتين تبدوان في حالة شرود تام.

لديها ذكريات شتى بتلك المحطة ومن تخصه الذكريات ليس متواجدًا، لقد ألقت به للنار حينما هربت إليه قبل شهور وظنته لن يحترق، ولكنه فعل، وتبعته هي، ذلك لأنها رغم زواجها منه لم تشعر بالسعادة، والصفاء الذهني لوقت يناهز ولو يوم.

الأحزان تُطاردها بمجرد خروجه ولا تسكن سوى لدى عودته سالمًا، أما الوساوس فهي تبقى مستمرة وإن كانت بين ذراعيه.

مشيت بخطى متعثرة، وكانت قامتها منحنية وغارقة في التفكير فلزمت الاصطدام بمن يقابلها، وحينما انطلقت صافرة القطار المُغادر تنبهت مفزوعة وبدأت تسير للرصيف وهي تتلفت في حيطة، إنها تهرب من عائلتها الجديدة ليس لأي سبب سوى إنقاذهم مما يلاقونه، ولا يجب أن يوقفها أحدهم قبل أن تدرك غايتها وخلاصهم.

صعدت على متن القطار بتراخ وارتمت فوق أقرب مقعد، وأرخت جفنيها الثقيلين وهي تُطلق تنهد طويل، إنها لا ترى سالم إن نظرت حولها، ولكنها تستحضر صورته بمخيلتها حينما تغمض عينيها.

غابت عن الوعي بسبب ضعفها، وحينما استيقظت رأت القاهرة تلوح بالأفق، فنهضت بتحفزٍ لا يلائم حالتها، وهبطت بمجرد توقف القطار، ولكن انتابتها وخزة في قلبها عادةً ما تحدث بتلك الفترة فتوقفت قليلًا وأخذت تتوجع قبل أن تخرج من المحطة وتلوح لأول تاكسي تراه.

ضغط السائق مكابحه فدلفت بإسراع وبقيت ممسكة بصدرها المُنقبض، هذا الانقباض يحدث كثيرًا وبأوقات متفاوتة لأنها تشعر بما يعانيه زوجها، ولكن لا بأس فهي على وشك إنهاء معاناته ولو ستبدأ خاصتها، أخبرت السائق بوجهتها في إعياء واضح وعلقت عينيها على الطريق المزدحم بالمظاهرات الاحتجاجية.

مرت دقائق طويلة وبطيئة حتى ضغط السائق مكابحه فهبطت بخمول بعدما تركت بعض المال وتسمرت أمام الفيلا الفارهة وراحت تطالعها بعينين مكتئبتين بينما جسدها يترنح كبندول الساعة وحينما شعرت أنها ستغيب عن الوعي من جديد بدأت تجر ساقيها نحو البوابة الضخمة لتنتهي ما جاءت لأجله.

نهض الحارس لدى رؤيتها تقترب وفتح المدخل بإسراع، فعبرت أميرة نحو المجهول دون أدنى مبالاة وكانت مسحة من الشرود تغطي محياها بأسره، إنها لا تهتم بشيء سوى إنقاذ سالم.

اجتازت الحديقة ووقفت أمام الدرجات القلائل المؤدية لمدخل البهو وصدحت بصوت محشرج:

ـ "عاصم، عـــاصم".

ران صمتٌ ثقيل، كانت بخلاله تسحب الأنفاس بصعوبة وتحاول البقاء يقظة، وحينما شاهدت عاصم يخرج مزهوًا ويدخن بشراهة، فقدت القدرة على التحدث بسبب انكسارها المعنوي وشعرت أن لسانها أصيب بالشلل، فقال هو بينما ينزع السيجار عن فمه:

ـ "كنت أعلم أنك ستأتين مهما تأخر الوقت، ولقد فكرت مرارًا بما يجب قوله حينما أشاهدكِ أمامي، ولكنني لا أريد قول شيء الآن، أرغب فقط بمطالعة هيئتكِ المزرية".

لم تستطع الهتاف بوجهه كما اعتادت، فغمغمت وهي تقترب منه ببطء:

ـ "سالم ليس مذنبًا في شيء فلا تقحمه في مشاكلنا".

هتف وهو يفرك السيجار بين إصبعيه:

ـ "بل هو مذنب، لقد حاول سلبك مني، وبسبب هذا سأسلبه كل شيء، لن يرى ضوء الشمس أبدًا، وحينما أنتهي منه سأتفرغ لبقية عائلته، سأصب الجحيم على رؤوسهم جميعًا، هل تسمعين؟ سأصب الجحيم عليهم واحدًا تلو الآخر".

شعرت أن رؤيتها تزداد سوادًا كل حين فارتمت تحت ساقيه وأمسكتهما بهوان متفشي وطفقت تنشج بمرارة بينما ترجوه:

ـ "افعل بي ما تريد، ولكن لا تؤذهم أرجوكِ، إنهم لا يستحقون هذا ولكنني أستحق".

سحب قدميه للخلف بفظاظة فسقطت أرضًا على وجهها وسمعته يقهقه بينما يعقب:

ـ "أنا لا أصدق أنك أميرة هانم ابنة رستم باشا، لقد أصبحت أشبه بالمتسولين".

صمت بغتة وراح ينظر لها بنفور قبل أن ينحني عليها، واستطرد فيما يجذبها من شعرها:

- "هل علمتِ الفرق بيني وبينه؟ أمثال هذا الكلب لا يستطيعون كتابة مصائرهم، الأقوياء مثلي يكتبونها عنهم، ويمكنني أن أصنع له مصيرًا مؤلمًا، هكذا".

قال كلمته الأخيرة وهو يفرقع إصبعيه فأجهشت أميرة بالبكاء وتمتمت وفروة رأسها تكاد تُقتلع:

- "لا أرجوك، لقد عدت بإرادتي ويمكنكَ تسليمي لأبي، ولكن أطلق سراح سالم، أطلق سراحه أرجوك، أرجوك!"

نظر نحوها بازدراء وقال بجمود قبل أن يتركها:

- "لا بد أنك حمقاء، أتظنين أن والدك يعلم بأمره؟ إن كان عرف بزواجكما لمات فورًا، ولكنني لم أخبره، إنه يعتقد أنك تختبئين لدى إحدى صديقاتكِ".

وصمت هنيهة ثم قرر:

- "إن كنتِ ترغبين في إنقاذ هذا الوغد فلا بد أن يُطلقكِ، وبعدها تعودين للقصر وكأن شيئًا لم يحدث، وسيبقى الأمر بيننا سرًا".

رفعت وجهها لتنظر نحوه وقد كذبت أذنيها ولما رأته ينتظر ردها ببرود أعصاب وثقة، ابتلعت ريقها لترطب حلقها الجاف ثم غمغمت لتراوغه:

- "دعه يخرج وسأفعل ما تريد".

ضحك باستهزاء قبل أن يهمس:

- "لن يخرج قبل الطلاق، وكلما عجلتِ الأمر كلما كان أفضل، فأنا لا أظنه سيحتمل أسبوعًا إضافيًا، وإن رفضتِ فصدقيني لن أمنعكِ من المغادرة، البوابة ما تزال مفتوحة".

للمرة الأولى بحياتها شعرت أنها محاصرة وعاجزة، فآخر شيء ترغب فيه هو هجر سالم، ولكن جاء وقت التضحية برغباتها وأحلامها وأي عزيز قد يسبب له العناء.

إنها تعترف بهزيمتها المنكرة في تلك الملحمة العشقية، لقد خسرت الحرب.

جاهدت لتقف وقالت وعيناها تحملقان بالأرض:

- "خذني إليه وسأقنعه بأن يطلقني".

***

بينما كان الخَفر يسحبونه من ساقيه حتى الزنزانة، انشغلت عيناه المتورمتان في مراقبة السقف الملآن بأعشاش العناكب، ومصابيح الضوء الخافتة التي لا تنير شيء يذكر.

يبدو المكان أشبه بدور سُفلي داخل معتقل ما، فرائحتا التربة والرطوبة منتشرتان بالهواء، كما أنه ما من نوافذ، ولا شيء سوى الزنازين المصطفة على جانبي الرواق ودرج طويل شاهده منذ لحظات وهو يُجر.

توقف الحراس وبدأ أحدهم ينزع سلسة مقاليد كبيرة عن حزامه قبل أن يفتح زنزانة سالم، فاستغل الأخير الفرصة وألقى نظرةٍ على المكان الذي يشغله، ولكنه لم يبتهج برؤيته، فلقد فاض بالجرذان.

تمتم أحد الحراس وهو يسحبه للداخل:

- "لقد جلبنا رفقة لتسلي وحدتك، استمتع".

دفعوه نحو الأرضية المبتلة بالبول البشري، ووسط براز الفئران، وأغلقا باب الزنزانة وغادرا، فحاول بكل جهده أن ينظر حوله ولكن المكان مظلم للغاية.

تعالت أصوات الفئران حوله، وشعر بعد لحظات بأجسادهم التي تنتقل فوق جسده، حاول النهوض وهو يصرخ بذعر وبقي يتحرك بالأرجاء ليبتعد عنهم ولكنه كانوا كثر لدرجة أنه كان يخطو فوقهم بكل خطواته، وكان صوت تهشم أجسادهم وتفجرها بسبب وزنه المستغل في الضغط يرعبه حد الجنون.

سمع صوت الباب يفتح بعد حين فهرول نحو الضوء ولكن أحد الحرس لكمه بقوة ليوقفه وقال بفظاظة بينما يلوح بالهراوة:

- "إن لم تهدأ يا ابن العاهرة سأجعلك تهدأ بطريقتي".

توقف سالم وبقي يتأوه بسبب اللكمة وبسبب عجزه عن الرد سواء على الإيذاء الجسدي أو المعنوي، فاستهل حارس آخر بوضع الأصفاد في يده، وبدأوا يقتادوه من ثيابه فيما يركلوه حتى أدركوا الدرج المؤدي للأعلى، وهناك استلمه حارسان آخران وصعدا به حيث واجهة السجن التي لا تعارض حقوق الإنسان في أي شيء.

وقعت عينيه على أميرة، ورغم أنه لا يعرف عاصم تيقن أنه الرجل الواقف لجوارها، حاول أن يركض نحوهما ولكنه تلقى ضربه قوية بالهراوة على ساقه فسقط أرضًا، واندفعت أميرة نحوه بينما تصرخ ولكن عاصم أمسكها قبل أن تدركه، فأخذت تنظر له بألم لا يوصف فيما يداها تحاولان بلوغه.

قال عاصم للرجل المسؤول وكان يبدو بريطاني الشكل بسبب زيه الكاكي المألوف وملامحه الإنجليزية:

ـ "أحضره لمكتبك الآن".

امتثل مدير السجن لأمره وأشار للعساكر المرتدين الأسود فقاموا بجره نحو المكتب القريب، وكان عاصم يتقدمهم بينما يمسك أميرة بعنف، وحينما دخلوا وأغلقوا الباب خلفهم تركها بهدوء وقال آمرًا:

ـ "لديكِ دقيقة واحدة لا غير لتقنعيه، وإلا سأقنعه أنا".

ركضت أميرة نحو سالم الممدد على الأرض وتمتمت بينما تمسك يده:

ـ "سالم، أرجوك لا تسأل عن شيء ولا تتحدث، فقط استجب لرجائي".

وسكت صوتها هنيهة وجاهدت طويلًا لتخرج تلك الكلمة عبر شفتيها حتى سمعها تقول:

ـ "طلقني".

بهت وجهه أكثر مما هو باهت، وفغر فمه وهو يتساءل:

ـ "ماذا؟ أطلقك؟ هل قلتِ هذا حقًا؟"

ردت بسرعة وهي تضغط على يده وتبكي:

ـ "طلقني يا سالم وإلا فالكل سيتأذى، أرجوك".

امتدت يد عاصم نحو رقبتها وقال وهو يضغط بكل قوته:

ـ "انتهى الوقت".

صرخت أميرة من الألم، فتحرك سالم لينجدها، ولكنه تلقى لكمة أخرى من الحرس قبل أن يمسكوه بقوة، وبدأ عاصم يجذبها لتنهض، وقال وهو يلقي بها نحو الأريكة:

- "أنت لا تريد تطليقها؟ حسنًا، سأغتصبها أمام عينيك".

تحرك عاصم بجدية نحو جسد أميرة الممدد فوق الأريكة، وكان يخلع سترته بسيره فيما عيناه تلمعان بالمجون والجنون، فتحفزت أميرة وحاولت الفرار ولكنه جذبها من ثيابها ليعيدها للأريكة وأخذ يتحسسها بيديه، وكان سالم يحاول بكل قوته التملص من الحراس لينهشه بأسنانه ولكنه لم يستطع، فهتف بصوت باكٍ:

- "توقف، توقف أيها اللعين!!"

لم يكن عاصم مباليًا بما يسمعه وكان يحاول تقبيلها فيما هي تدفع وجهه بينما تصرخ، وكان الضابط الإنجليزي يراقب ما يجري بينما يدخن عبر غليونه ويقهقه، فهتف سالم مستسلمًا وهو يتوقف عن التملص من الحراس:

- "سأطلقها، توقف، توقف".

استجاب عاصم وبدأ يتراجع تاركًا أميرة تبكي بمرارة وقال للضابط:

- "أحضر المأذون الموجود بالخارج".

فتح الضابط باب الحجرة وأشار لاثنين من العساكر يقفان لجانب المأذون المجلوب غصبًا فتحرك الرجلان به وأدخلاه للغرفة، وكان سالم يطالع أميرة بتلك اللحظات وهو لا يستطيع التقدم منها ليعانقها، أو حتى يودعها، وحينما جلس المأذون وفتح دفتره الكبير نهضت أميرة بغتة وتحركت نحو سالم المحاط بالحرس، وقالت بصوت مرتجف ووجهٍ محمر:

- "سأسافر لإستانبول ولن أعود لمصر أبدًا فمن اليوم يجب ألا نتقابل ولو صدفة، لقد حاولنا قدر الإمكان أن نجتمع ولكن الظروف أقوى منا، دعنا نرضخ لها وإلا فسنتأذى جميعًا، عدني أنكَ ستنساني، عدني أرجوك".

قال سالم بحرقة الألم بينما دماؤه تسيل من ضروسه التي تلقت اللكمات وضربات الهراوة:

- "لن أتمكن من متابعتك ولن أتمكن من نسيانك، سأحيا على بقاياكِ حتى نلتقي، لقد خسرنا كل شيء الآن واستسلمنا لأننا أضعف من الظروف، ولكن يومًا ما سترضخ الظروف لنا إن بقي حبنا قويًا، لن أستطيع نسيانك أو كرهك، لن أستطيع".

أجهشت أميرة بالبكاء وهي تطالع هيئته المتألمة التي لا تتمكن من احتوائها، وهتف عاصم الواقف قرب المأذون:

ـ "أتتركونهما يتحدثان يا حمقى بدلًا من منعهما، اجلبوهما إلى هنا".

تقدم الحرس بسالم وأميرة وقربوهما من المأذون فبقيت تودع وجهه بعينيها طوال وقت الطلاق، وكان سالم مترددًا بين مطالعتها، وبين إخفاء وجهه عنها بسبب الخزي والهوان اللذين حطما عزة نفسه، وحين قضي الأمر نهض عاصم بأميرة وتحركا نحو الخارج بينما يهمهم:

ـ "أطلق سراحه بعد أن نرحل بساعة".

مشيت أميرة معه ببطء والدنيا تدور بها، وكان توالي المصائب أكبر من قوتها فسقطت أرضًا فاقدة للوعي، فوقف عاصم يطالعها ولم يأبه بحملها فعاد للغرفة كي يجلب أحد الحراس ليقوم بنقلها حتى السيارة، واستغل الضابط البريطاني الفرصة، فسأله وهو يقترب منه:

ـ "هل أعيده لبيته كما جلبته كي لا يعرف مكان السجن؟"

ابتسم عاصم بدهاء وهو يعقب:

ـ "تعيد من؟ إنه ليس موجود بالسجن فلا يوجد قضية باسمه، كيف تعيد إنسان غير موجود؟ الأفضل أن تفكر بتهمة تبقيه هنا للأبد".

فهم الضابط المغزى من جملته فأشار للحراس وقال آمرًا:

ـ "أعيدوه للزنزانة".

تحرك عاصم نحو الخارج رفقة الحارس الذي سيحمل أميرة، وأخذ سالم يصرخ وهم يعيدوه لزنزانته المظلمة والمقززة، لقد تزوجا رغمًا عن عاصم، وتفرقا رغمًا عنهما بواسطته.

****

استفاقت أميرة من غيبوبتها وكان أول فعل تؤديه هو التعجب ولا شيء آخر، فلقد وجدت نفسها ممددة بفراشها الضخم داخل قصر والدها، وتطلب الأمر ما يقارب الدقيقتين حتى استعادت بذهنها ما وقع سابقًا، وبنهوضها المتراخي فطنت لكيفية وصولها للمكان، فصوت عاصم يتردد بالأسفل ولا بد أنه جلبها بسيارته من الإسكندرية كما ذهب بها صباحًا.

تحركت نحو الخارج ووجها مُصفر وكظيم، واستندت على جدران الردهة طيلة تحركها للدرج، وحين أدركته رأت عاصم يتحدث لوالدها بالبهو ورغم كل ما يجري بها انتابتها بعض السكينة لأن رُستم بخير حال، وصوته المرتفع يدل على هذا.

كان يهتف بصوت حانق وبلغته التركية محدثًا عاصم:

- "لا يُمكن، لن أغفر لها أبدًا، وبمجرد استيقاظها سأطردها بنفسي، لقد هربت ووضعت وجهي بالوحل، لا تترجاني يا ابن أخي".

لمحها عاصم وهو يتحرك بالأرجاء فعاد يقول بنبرة هادئة ومهذبة:

- "كانت غاضبة يا عمي، ولا تريد الزواج مني، ولذا هربت وبقيت عند تلك الصديقة الشركسية، ولكن اطمئن فلقد فكرت بكل شيء هناك، ولقد سويت معها الأمور كافة، وهي الآن موافق كليًا على الزواج، إنها حتى تريد أن نستقر بإستانبول".

اتسعت عينا رستم وهو يتمتم:

- "هل تريد هذا حقًا؟ أأخبرتك بهذا؟"

أحنى رأسه وبسط يده نحوها وهو يجيب بثقة:

- "بلى، ويمكنك أن تسألها".

التفت رستم نحوها فانتابتها القشعريرة، وشعرت أنها ستسقط إن لطمها أو فعل شيء من هذا القبيل ولكنها فوجئت به يقول برقة بينما يبسط يديه:

- "كنت أعلم أنك ستقتنعين بقراري لأنه الأفضل بالنسبة لك، وأنا لست غاضبًا منك أبدًا، لقد اشتقت لك يا ابنتي".

ارتمت على صدره ليس لأنها تشتاق لعناقه بل لكونها بحاجة لأي ذراع تبكي عليه فجائعها المتتابعة، وحينما تراجعت أردف رستم:

- "أصحيح ما يقوله عاصم؟"

نظرت نحو عاصم فوجدته يحدق فيها بعينين متسعتين ومحذرتين فغمغمت باكية:

- "بلى يا أبي، لقد وافقت أن أحيا عمري بأسره مع عاصم".

أمسك رستم يدها وربت فوقها وقال بينما يهبط بها:

- "ولم تبكين إذن يا أميرة؟ أهناك عروس تبكي؟"

همهمت وحدة البكاء ترتفع رغمًا عنها تصاعديًا:

- "إنها... إنها دموع الفرحة، الفرحة التي سأنالها لبقية عمري".

تقدم عاصم منهما وعرض بلباقة:

- "لنتزوج إذن مع بداية العام".

حدق به رستم للحظات وهمس ببعض التردد:

- "ثلاثة شهور تقريبًا لن تكون كافية".

ضحك بصوت جلجال وقال:

- "صدقني لا نحتاج سوى ثلاثة شهور، أليس كذلك يا أميرة؟"

شعرت أميرة بالألم لأن تلك الشهور الثلاثة تمثل شهور العدة خاصتها فأجابت بصوت خفيض:

- "هو كذلك، سأترككما تتحدثان الآن وسأعود لغرفتي، فأنا منهكة".

لم يلاحظ رستم مقدار الألم المتفجر منها فهو في أوج سعادته بسبب علاقتها بعاصم التي تحسنت وحين انتبه لجملتها كانت قد غادرت بالفعل فأوقفها قائلًا:

- "سأجعل الخدم يعدون العشاء لأجلك".

رفعت يدها دون أن تلتفت وقال قبل أن تكمل السير:

- "لا داعِ يا أبي، لست جائعة".

ارتقت الدرج الطويل بمثابرة وعناء كأنها تتسلق جبلًا، وحين أدركت الطابق العلوي انزوت قرب الحائط الجانبي وبقيت تلهث وتبكي، وبعد مرور دقيقة ويزيد عادت تسير لغرفتها، وبينما هي تفعل، شعرت بالغثيان، ولم يكن المرحاض على مقربةٍ منها، فالتقطت إحدى المزهريات وتقيأت بها، وظلت تسعل بقوة حتى كادت روحها تغادرها.

***

انتصب روبرت أمام مذبح إحدى الكنائس الكاثوليكية بالإسكندرية، وبقيت يده ترج خاتم الزواج كما النرد بينما عيناه ترنوان لفيرونا الواقفة قبالته تُطالع الأرضية الخشبية بحياء وبهجة.

لقد عرض أن يتم الزواج اليوم ثم الفرار، وهي وافقت بكل ترحاب فذاك الخبر جاهدت كثيرًا لتسمعه، وأمضت أسابيع طويلة تعمل على اللغة اليونانية حتى تصدع ذهنها فقط كي تُسرع قدومه.

لم يكن روبرت مرتديًا حُلة سوداء فاخرة، ولم تكن فيرونا تجر الفستان الأبيض بدخولها، لقد أتيا بالمعاطف لا أكثر، ولم يرتدياها سوى لأن الطقس بارد، وسيكون أبرد وهما بالمياه.

تنحنحت فيرونا وهي تنظر بعينيها خلف روبرت، فالتفت الأخير ليرى الأب القادم من غرفة الاعتراف، وسرعان ما بادره:

- "كنا نتساءل إن كان بإمكانك تزويجنا أيها الأب؟"

اقترب الأب وطالعهما للحظات حتى همهم بهدوء:

- "يمكنني بالطبع إن كنتما مسيحيين كاثوليكيين".

أجابت فيرونا بسرعة البرق:

- "نحن كذلك يا أبتي".

هز الأب رأسه بينما يبتسم وقال فيما ينظر لأقنوم المسيح المجاور لهم:

- "الزواج رباط مقدس يا أبنائي، والرب يباركه، أخبراني باسميكما لنبدأ".

سارع روبرت بالرد هذه المرة وأجاب بصدق وتعجل:

- "روبرت فيلد، وفيرونا جوهان".

سحب الآب نفسًا طويلًا وأشار لهما ليقتربا منه قيد خطوتين وقال بصوتٍ جهوري:

- "الحب يا أبنائي شجرة وارفة الظلال، وفي أصعب مواقف الحياة..."

- "عذرًا للمقاطعة ولكن انتقل رجاءَ للنهاية!"

قالت فيرونا، فتنهد الأب لتسرع شباب اليوم، وعاد يقول:

- "روبرت، هل تقبل بفيرونا جوهان لتكون شريكتكَ في الصحة والمرض، وفي العجز والقوة، وفي السراء الضراء..."

قاطعه روبرت هذه المرة بينما يتبادل معها الخواتم سريعًا:

- "أنا موافق، وهي موافقة كذلك، فدعنا ننتقل مباشرة للجزء الذي تقول فيه يمكنك تقبيل العروس فنحن متأخران بالفعل، وخطة هروبنا من تلك الحرب اللعينة قد تتوقف على دقيقة!"

لم تتمالك فيرونا نفسها وضحكت، وبينما الآب ينتقل لنهاية المراسم ويعلنهما زوجين تقدم روبرت ليقبلها بشغف قبل أن يحملها ويمضي للشارع عابرًا باب الكنيسة وهابطًا الدرج الطويل بطريقه.

توقفت لهما سيارة أجرة بعد دقيقة فوضعها بداخلها ثم جلس جوارها وعلق عينيه على ساعة اليد خاصته، تعلقت فيرونا بذراعه وتمتمت بينما تضحك من جديد:

- "لقد حظينا بأغرب زواج على الإطلاق، وها نحن نفر لنقضي شهر العسل، بدأت أشك في أن علاقتنا مبنية على الجنون".

هز روبرت رأسه مؤكدًا بينما يقبض على يدها الأخرى:

- "إنها كذلك يا حبيبتي، ولذا هي أكثر قوةً وجمالًا، الجنون هو ما يجعلنا نقدم على المخاطر مهما كانت مخيفة لكي نكون معًا".

نامت على ذراعه وهي تعقب برقة بينما تطالع الخاتم بعينين ناعستين:

- "أنا مسرورة للغاية، وأتحرق شوقًا لنحط بقبرص".

- "سنلتقي برجلي الخاص قريبًا، وسيتولى نقلنا حتى قبرص".

هامت أحلام شتى بعقل كليهما حتى غادرا السيارة وتوجها نحو رمال الشاطئ القريب، وكانت الرياح القادمة عبر المتوسط بأواخر نوفمبر من هذا العام لا تحمل رائحة الشتاء ولا البحر، كما حملت رائحة البارود، ودخان الاحتراق وعفن الجثث ورغم أن الأمور بمصر هادئة نسبيًا إلا أن تلك الروائح استمرت في الانبعاث وخصوصًا كلما أشتد الهواء.

كان روبرت الواقف لجوار جسد فيرونا المتمدد على الساحل؛ يدري مصادرها جيدًا ولا يتعجب من وصول الرائحة حتى مصر، فالصواريخ التي تتبادلها ألمانيا مع بريطانيا والجيوش الفرنسية وروسيا، مضافًا لها تلك المتبادلة بين اليابان وأميركا يمكنهم صنع مقابر جماعية تقدر بالآلاف كل يوم وروائح تحللٍ تلك الجثث التي لا يجد أغلبيتها قبر، لن تختفي من الهواء بسهولة، وخاصةً أن الرقعة الخضراء التي تعمل على إنتاج الأوكسجين تتقلص كل مدى مع استمرار الحرب.

هتف بعد وقت وهو يشير بإصبعه:

- "إنه قادم، استعدي".

فركت فيرونا عينيها الناعستين وهمهمت بينما تنهض بضيق:

- "لقد نعست أثناء انتظاره".

نظر لها شزرًا وقال بهدوء:

- "لقد استيقظنا باكرًا ولا أنكر، ولكن يمكنك النوم بالزورق يا عزيزتي، وسأوقظك ونحن بقبرص".

وقفت لجواره وهمهمت بتثاؤب بينما تستخدم كتفه كوسادة:

- "المسافة قريبة إذن".

توقف الزورق قرب الشاطئ فحملها روبرت فوق ذراعيه وبدأ يسير في الماء وهو يعلن بيقين:

- "إن سارت الأمور بخير سنبلغها غدًا بعد الظهيرة".

وضعها داخل الزورق فنظرت بعينيها للشمس ووجدتها على وشك الغروب، فتنهدت بقوة وازدردت ريقها، المسافة ليست قريبة كما ظنت، وكلما اتسعت المسافة كلما ازدادت المخاطرة.

***

نقل سالم لزنزانة فوق الأرض بعدما لُفقت له تهمتي التجسس لصالح النازيين وتوزيع المنشورات ضد الملك، وكانت سعادة السجان البريطاني الذي اختار التهمتين عارمة فوجود مسجونه الخاص بات مُبررًا ولا يمثل أي مخالفة قانونية في حالة قدوم لجنة تفقد السجون، وكذلك يرضي عاصم فالتهمتين ستجعلانه يمكث لوقت طويل للغاية، وكان سالم يحيا بين جدران الزنزانة الأربعة في صمت وسكون.

التعذيب الجسدي توقف منذ واقعة الطلاق ولكن عذابه النفسي بدأ من يومها، فهناك شعور بالقهر لا يغادره ولا يولد بداخله سوى الحَزن والألم.

إنه منعزل عن الجميع ولا يتحدث للسجناء معه ولا للعساكر منذ انتهت قضيته صباح الأمس، حتى ظنوا جميعًا أنه فقد النطق من الصدمة، ولكنه في الحقيقة فقد القدرة على الحياة.

إنه يتمنى الموت كل لحظة لينتهي عذابه وليتوقف مشهد تطليقه أميرة عن التكرار أمام عينيه الشاردتين والغائرتين، إنه لا يلوم سجانه لأنه لفق له تهمتين خطيرتين ولا يلوم القاضي الإنكليزي لأنه لم ينصفه، ولكنه يبغضهم والبريطانيين جميعًا، لأن التهمتين لم ترسلاه للمشنقة حتى ينتهي بؤسه بل جمعوا له من عمر الحَبس ربع قرن مع الأشغال الشاقة.

عاد من شروده حين لكزه أحد المساجين، ولما التفت نحوه مستاءً وجده يشير للعسكري الواقف على الجانب الآخر من باب الزنزانة والذي هتف باسمه طويلًا.

نهض سالم وقد ظن أن موعد تكسير الحجارة قد حان ولكنه وجد العسكري يقول:

ـ "لديك زيارة".

تهدجت أنفاسه ومد يديه للعسكري بسرعة ليضع بهما الأصفاد وليقوده حتى الزائر، وتمنى طيلة الطريق أن يجد أميرة بغرفة مدير السجن ولكنه لم يجدها بوصوله، ووجد شقيقه الذي لم يكل من البحث، وكان توماس يرافقه.

هرول نحوهما ليحتضنهما وخرج صوته ضعيفًا ومحشرج بينما يقول:

ـ "الحمد لله أنني رأيتكما، كيف أنتما؟"

ابتسم حسين لمبادرته الغريبة وحبس دموعه قدر المستطاع بينما يجيب:

ـ "نحن بخير يا سالم، بل كيف حالك أنت؟ أنا لم أصدق حينما أخبروني أنكَ هنا، فكل يوم أسألهم ينفون وجودك".

تنهد سالم وهو يفسر:

ـ "لم يكن لدي تهمة ولكني بالأمس حوكمت على اثنتين".

ردد توماس غير مصدقًا:

ـ "حوكمت على اثنتين؟!"

ـ "جاسوس بالطابور الخامس، ومتآمر ضد الملك".

صُعق حسين وكادت عيناه تخرجان من محجريهما وهو يستدرك بانفعال:

ـ "كيف هذا؟"

ـ "لقد فعلها عاصم يا حسين، لقد أجبرني على تطليق أميرة كذلك، هذا اللعين، لو رأيته سأقتله بلا تردد، وإن ظللت هنا طوال العمر".

كان حسين يخشى أنه يسأله على أميرة، ولكنه وجد الإجابة لديه فلا بد أن عاصم وجدها بعد هروبها وفعل ما فعل، تحرك توماس خطوة للوراء وهو يقول:

ـ "اهدأ يا سالم، وأخبرنا بما حدث".

نظر سالم نحو الفراغ وهو يتمتم:

ـ "ما حدث هو أنني خسرت كل شيء ولن أغادر السجن قبل أن ينتهي الحكم المؤبد".

وسكن لبرهة ثم تساءل:

ـ "كيف كارلا؟"

اقترب حسين منه وهو يُجيب:

ـ "إنها بخير حال، وأبشر، فبعد شهور ستكون عم، أما أمر قضيتك فلا تقلق بشأنه فأنا سأجلب أفضل المحامين وسيبحثون في الأمر حتى يخرجوك".

وضع سالم يده على كتف حسين وهمس برجاء:

ـ "لن يفيد كل هذا، فقط اعتني بكارلا وكن لجوارها بتلك الأوقات، فهي تحتاجك أكثر مني".

ـ "ماذا تقول يا سالم؟ هل جننت؟! أنت شقيقي ولن أتركك مهما كلف الأمر".

عقد توماس حاجبيه وهو يقول:

ـ "ولا أنا، اطمئن يا سالم نحن معك".

دخل مدير السجن المرتشي للمكتب وقال بجمود:

ـ "لقد انتهت الزيارة، ومن اليوم يجب أن تجلبوا تصريحًا لكي تزوراه".

نظر حسين وتوماس نحو السجان بغضب واحتقار، وكانا يرغبان في الرد، ولكن سالم قال بهدوء وهو يربت على كتفيهما تباعًا:

ـ "عودا للمنزل الآن، يكفي أنني رأيتكما واطمأننت على كارلا".

تحرك نحو الخارج دون أن ينتظر تعقيبهما وحينما غاب عن ناظريهما أسهب الدموع التي حبسها طويلًا، ودام يئن طيلة عودته للزنزانة.

سيخرج من السجن وابن أخيه الذي لم يولد بعد، شابًا يافعًا.

****

في بدايات الأمر ظنت أن الغثيان سببه حالتها السيئة، ولكنها مع مرور الوقت وتوالي العلامات تيقنت من كونها حبلى، وهذا زاد في وعيها حدة الشعور بالخوف، فلو علم أحدهم بهذا ستكون كارثة وقد تُرغم على الإجهاض، ولكنها أقسمت على الموت قبل هذا، وقررت أنها لن تَضحي أبدًا بالجنين، ذلك لأنه آخر ما تبقى لها من سالم بعد الذكريات، ولعله منحة الله التي ستصبرها على فراقه لبقية الأمد.

وارت الأمر قدر المستطاع ولزمت صومعتها كما العذراء، ولكن علمها بأن سرها سيكشف بمجرد أن تكبر بطنها أو بحالة حدوث الزواج لم يجعلها تذق للراحة طعمًا، ورغم أنها تشعر بحالة من النفور تجاه الطعام حرصت على دسه بفمها كل بضعة ساعات كي لا يتضور جنينها جوعًا.

انبلجت الشمس رويدًا رويدًا وطفقت خيوطها البرتقالية تنتشر بالغرفة ولكنها لم توقظها من النوم، فهي لم تحظ به ولو لدقائق، إنها جالسة فوق الفراش منكمشة على نفسها، ومطوقةً ساقيها بكلتا ذراعيها النحيفين، وبدت عيناها السوداوان في حالة هيام مستعصي.

إنها تفكر بسالم كالعادة وتظن أنه بدأ يتخطى مرحلة الفراق بتلك الآونة بل يستعد بتلك الساعة ليبدأ العمل بالمطعم مع حسين.

مدت يدها نحو بطنها ولزمت تحسسها لبعض الوقت بينما تطالع ساعة الحائط ثم نهضت بتثاقل وتحركت ببطء نحو الطابق السفلي، ولحسن الحظ لم تلتق أحد بطريقها، ولما أدركت المطبخ فتحت المبرد المستورد والضخم الحجم، وانتزعت منه قنينة لبن لا أكثر، وبقيت تتجرعها مضطرة حتى أفرغتها كليًا.

عادت أدراجها، ووقفت بالشرفة تنظر يمينًا ويسارًا وكانت تفكر بشيء واحد وهو أن سالم لم يتبعها، فكلما طلت من الشرفة لا تبصره بالطريق الخارجي.

ربما حلل الأمر ورأى أنه بات ماضيًا وعله اعتبره قصة حُب لم يكتب لها التوفيق.

ليست متأكدة من أي شيء ولكن عقلها سيتولى تشكيل معتقدات مختلفة، فقط لتظل على قيد الحياة، فإن بقيت على تلك الحالة لفترة طويلة، فلن تبقى هي ولا جنينها.

***

تَمَرمُر جسدها مع الزورق لم يكن يزعجها، بل ساعدتها تلك الهدهدة على النوم كما لو أنها طفلةً بالمهد المتأرجح، ولكن روبرت مل الجلوس وحيدًا فمال على جانبه حينما فاض كيله ومد يده نحو الماء ليغترف منه، وأخذ ينثر الرذاذ فوق وجهها بصبيانية.

فتحت فيرونا عينيها وشهقت بسبب الماء البارد الذي لمسها وحين وجدت روبرت يطالعها مستاءً تمتمت متسائلة ببعض القلق بينما تتلفت:

- "ماذا هناك؟"

- "أنت نائمة منذ الغروب ولقد أشرقت الشمس منذ وقت ولم تستيقظي كذلك، لقد أصابني الضجر".

مالت عليه بدلال وهي تهمس:

- "أنا أعتذر، لم أكن على علم بأنك مستيقظ".

زم شفتيه وهو يفسر:

- "يجب أن يراقب أحدنا ما يجري بالمياه".

هزت رأسها مؤكدة وقالت:

- "يمكنك النوم لبعض الوقت وأنا سأراقب بيقظة".

أرخى رأسه على كتفها وراح يعقب بينما عيناه تنظران نحو الأفق:

- "لا أريد النوم كما أريد التحدث معك".

رفعت راحتها ومررتها على وجنته بينما تستدرك بحنو:

- "في أي موضوع يا عزيزي؟"

رفع يدها عن وجهه وقبلها برقة قبل أن يجيب:

- "لا يهم، فقط دعينا نتحدث، أخبريني مثلا عن رأيك بشعري، أهو جيد الآن أم أقصه كما السابق؟"

قهقهت لقوله ورأت أنه بحاجة للمجالسة فعلًا فهي نائمة منذ غروب الأمس، ولا شك أنه يشتاق لها بكل ما فيها، فأسهبت قائلة وعيناها تتخللان قامته الجالسة جوارها:

- "تبدو وسيمًا وشعرك طويل، وكنت وسيمًا وهو قصير، وبلا شك ستكون وسيم حتى لو أصابك الصلع، مهما تغيرت ملامحك سيظل حبي لك ثابت يا حبيبي".

ابتسم ببهجة وهو يمرر وجهه على كتفها وهمس بينما يطوق خصرها باستماتة:

- "هذا يعني أننا سنشيخ معًا".

همت بالإجابة ولكنه أضاف هاتفًا:

- "ها هي قبرص".

التفتت حيث ينظر بعينيه المتسعتين فشاهدت الجزيرة وهي تتجلى لهم كلما اقتربوا كما لو أنها تنبثق من البحر شيئًا فشيئًا، وسرعان ما فغرت فمها لفرط جمالها، وغمغمت بعد حين:

ـ "إنها أجمل مما ظننت، إنها رائعة!"

أضاف روبرت وهو ينتصب واقفًا ليتمطى بسبب جلوسه الطويل:

ـ "وما يزيد روعتها أن جنود الحماية داخل مساحتها قِلة وعادة يقضون الوقت بالسباحة أو بمعسكرهم يلعبون البوكر، ودعيني أذكرك بضرورة الهدوء في حالة قابلنا أحدهم، فنحن لسنا مجرمين أو غيره".

أكملت باليونانية وهي تمسك يده:

ـ "نحن زوجين ينتظران تحرير اليونان ليعودا لها".

ـ "تمامًا يا زوجتي الحبيبة".

هبطا من الزورق بعد دقائق وشرعا بتسلق المنحدر الحجري للجزيرة وكان زلقًا بسبب الطحالب والعشب فتطلب الأمر مجهود وحرص، ولما صعدا بالنهاية نظرا حولهما بافتتان بينما يلتقطان أنفاسهما اللاهثة.

البحر ممتد بزرقته الخلابة على طول البصر، وتداعب أمواجه بعض الطيور التي تحلق قرب سطحه، وبدت السماء رغم غيومها خلابة ورائعة، والأشجار المترامية على جوانب الجزيرة زادت الصورة جمالًا، حتى كاد المكان يشبه الفردوس.

تنهدت فيرونا وهي تُلمح:

ـ "إنه مكان لا يسأم المرء من رؤيته".

التفت نحوها وهو يتساءل:

ـ "على خلاف اليونان؟"

هزت كتفيها ووضعت يداها بجيبي المعطف وأجابت:

ـ "لم أر اليونان ولو مرة، وبعد رؤيتي لقبرص لا أبالي برؤيتها، دعنا نستقر هنا فالمكان هادئ ومريح للنفس".

امتثل لطلبها وقال بينما يسير معها:

ـ "لك ما تريدين يا عزيزتي، فالمكان لا يهمني كما يهمني وجودك فيه، دعينا نستكشف الجزيرة".

***

غادرت فرق الفيرماخت دولة اليونان في أكتوبر، ولكنه لا يُعد تحررًا فلقد تنافست الأحزاب اليمينية واليسارية على الحكم بعدما انقضت سنوات الاحتلال، تمامًا كما كانوا يتنافسون ويتقاتلون بوقت الاستعمار، وطوائف الشعب كانت متنوعة ومتعارضه للغاية، فهناك من يوالي الشيوعيين والبعض يدعم النازيين رغم رحيلهم، وهناك من وقف تحت راية اليونان الجديدة التي تساندها بريطانيا.

في ديسمبر من نفس العام خرجت مظاهرة شعبية تحت مظلة الشيوعية لتحتج على نزع السلاح الذي فرض على جميع الفرق المتشاحنة ما عدا القوى اليمينية، ولتطالب الحكومة اليونانية بتوقيع العقوبة على الموالين للنازية، ولكن المظاهرة انتهت بقتل وإصابة العشرات على يد الحكومة وقوات بريطانيا العظمى، وأدى هذا لقيام معركة بأثينا استمرت لنهاية العام تقريبًا وانتهت بهزيمة الموالين للشيوعية وقمعهم بشدة، وكانت تلك الأحداث المتمثلة في التفرقة بين الشعب الواحد هي الشرارة التي ستؤدي للحرب الأهلية اليونانية مستقبلًا.

***

ارتخت فوق مقعد الصالون، ومكثت تحيك سترة صغيرة من الصوف، ولما تشنجت أصابعها بعد وقت وأصيبت بالضجر، قررت أن تنهض للشرفة على أمل أن تبصر حسين وهو يسير في الشارع عائدًا.

كان الجو عاصفًا للغاية ويكاد الهواء أن يسقطها أرضًا، ولم تكن الرياح عاصفة وحسب بل بدت باردة وكأنها تنبعث من ثلاجة ضخمة، شعرت أنها ستتجمد إن وقفت لدقيقة إضافية، فعادت للداخل وقد تفاقم خوفها على حسين، لا شك أن المعطف لن يدفئه كفاية، والطقس بالصباح لم يكن يحتاج قفازات، أو شالًا.

همت بتشغيل المذياع لتشغل نفسها بأي شيء حتى لا تنساق للقلق، ولكنها تتلافى الاستماع له، ولو حتى بمرورها العابر من قبالة أي حانوت أو مقهى؛ كل الأخبار التي تبُثها الإذاعات المختلفة، تتوحد تحت راية بعث الاكتئاب وإثارة الخوف، وبظروف كالتي تمر بها مع حسين، لا يوجد متسع لقلق إضافي، أو حزن زائد.

فُتح الباب بعد لحظات ليرحمها من الجزع، وتجلى حسين أمامها، كان الإرهاق واضحًا عليه، فتوجهت كارلا صوبه بخطوات مسرعة فيما تبادر بشوق وتعجب:

- "لقد تأخرت الليلة يا حسين وأصبتني بالقلق، ماذا جرى؟"

ارتمى فوق المقعد بينما يشعل سيجارة بعصبية وأجاب:

- "ذهبت لأحد المحامين بعدما أغلقت المطعم، ولكنه لم يقل شيئًا مختلفًا عن سابقيه، كل المحامين يخشون التدخل في القضية، ومن يوافق اليوم يرفض غدًا وكأنهم يتعرضون للتهديد أو ما شابه، أنا أفكر في توكيل محامي أجنبي ذا صلات دبلوماسية ونفوذ، ولكنني أخشى أن يتم رشوته إن لم يرضخ للتهديد.

زفر بقوة وهو يمسك رأسه وأضاف:

- "أشعر أنني سأجن يا كارلا، أنا لا أحتمل رؤية سالم يعاني، ورغم أنه لا يقول شيء إلا أن معاناته مرسومة على وجهه".

جلست كارلا لجواره وقالت بشيء من اليقين:

- "سيخرج من السجن يا حسين، ولكن تحلى بالصبر، انهض الآن لتبدل ثيابك ريثما أعد العشاء لأجلنا".

فقدانه الشهية كاد أن يجعله يرفض، ولكنه عدل جملته باللحظة الأخيرة وتساءل مستنكرًا:

- "ألم تأكلي حتى الآن يا كارلا؟"

هزت رأسها بالنفي وهمست بحنو وهي تربت على يده:

- "لم أكن لأتناول الطعام وأنت تتضور جوعًا".

وضع يده الأخرى فوق يدها وقال بينما ينظر للسماء التي تسقط الزخات بترٍو:

- "الحمد لله أنك إلى جواري، وإلا كانت حالتي ستكون أسوأ، سأعد العشاء فلا ترهقي نفسك وانتظريني هنا".

نهض بهمة رغم تعبه اللا متناهي فتبعته كارلا بخطى ضيقة وهي تعقب:

- "سآتي معك ولو لأشاهدك فأنا مشتاقة لك كثيرًا".

وقف حسين بالمطبخ لا يدري بم يبدأ، وكانت حركاته متذبذبة بين المبرد، وحامل الأطباق والموقد وتدل على عدم استقراره الذهني والنفسي، وحين طفح كيله ألقى سيجارته بنفور وترك كل هذا ووقف بمنتصف المطبخ كالضائعين وشرع يدمع بتألم وكلل.

هرولت كارلا نحوه لتعانقه حتى يستمد منها القوة، وبقيت تربت فوق ظهره كما لو كان طفلها فيما تسهب الدموع لتألمه.

ـ "تعال معي يا حسين".

امتثل لطلبها وغادر المطبخ بخطوات متعثرة، وحين وصلا لغرفة النوم أجلسته على الفراش، وقالت بينما تمرخ دموعه:

ـ "ما زلت بأشهر الحمل الأولى ويمكنني التكفل بأمر العشاء، ارتح أنت ولا تفكر بشيء حتى أعود، هيا اهدأ الآن".

دفع ريقه نحو حلقه الجاف وهز رأسه موافقًا، فتحركت كارلا نحو الخارج ببطء، وتركته جالسًا فوق الفراش يطالع المطر المنهمر بالخارج عبر زجاج الشرفة المغلقة.

لا بد أن سالم الممدد على بلاط الزنزانة يرتعش الآن بسبب الصقيع.

****

١٩٤٥

"ما زلت خلف القضبان، أحاول عبثًا أن أقايضَ القدر، وفي الأحشاءِ فؤادٌ كان نجمًا ولكنه اليومَ اِندثر، كما سماء بلا أقمار، وكما سحابةٍ لا تحمل المطر، أدرك القلب بوجودك جنةً، ولما مضيتِ ما عاد فيه زرعٌ ولا ثَمر".

من مذكرات سالم عبد الحق

بين التوجه للبوفيه الذاخر بما لذ وطاب، ومطالعة فقرات العُرس، قَضى المدعوون وقتهم، بينما ظلت أميرة فوق مقعدها، ساكنة كما تماثيل الشمع، وواجمة كالجالسة بعزاء، وحين تعالت أصوات موكب السيارات الذي سيزفها، وهدأت الموسيقى التركية، وتوقف حاملو المشروبات عن الطواف بين الجمع، وشُخصت الأبصار نحوها، نظرت حولها لتتفقد ما طرأ، وسرعان ما انتابتها القشعريرة.

كان والدها يقترب مع أخوتها الكُثر ليقودوها نحو محرقتها دون فهم، أو مبالاة، وزادت حدة خوفها حينما نهض عاصم من جوارها ومد يده لينهضها، ومع تحذيرات عينيه المحمرتين التقطت يده مضطرة ونهضت بتراخٍ لفرط انحلال أعصابها.

مكثت تجر ساقيها وفستانها الأبيض حتى الشارع، وفيما كان الجميع يصفق ويهلل رياءً، شعرت بالدموع تنهمر عبر عينيها لفرط الألم والكمد.

جلست في العربة المزينة بالورود لجوار عاصم، وسريعًا انطلق الموكب نحو مطار ألماظة وسط وداعات العائلة، وكانت الوجهة الأولى هي فلسطين، ذلك لأنها البلد الوحيد الذي تمضي له خطوط الطيران الخارجية، ومن هناك ستصعد على متن السفينة التي ستنقلها لإستانبول.

طالعت كل ما تمر عليه بعيون مودعة، وكان الأسى يخنقها كأنشوطة، في هذا الشارع مشت رفقة سالم بلقائهما الأول، وفي ذاك الدرب كانت تسير بطفولتها لتقصد المدرسة، وعند ذلك المنعطف كانت تنتظر الحافلة الخاصة بالمرحلة التوجيهية، ومن ذلك النيل شربت طيلة عمرها.

كم هو صعب أن تودع كل هذه الأشياء التي سكنت بقلبها، وتمضي لبلدٍ، يقال إنه موطنها.

لزمت الصمت طيلة الطريق كمن أعلنت الصوم، وحين صعدا للطائرة، وشغلا كرسيهما، قال عاصم وهو يربط حزامه:

- "تحدثي فصمتكِ يزعجني".

التفتت نحوه بمرارة وهمست بصوت محشرج:

- "لا أريد التحدث الآن، فأنا أشعر بالنعاس".

هز رأسه وهو يهمهم:

- "النعاس أم الحنين؟"

التفت نحوها وأضاف بعينين تشعان سخطًا وكراهية:

- "أتظنين أنني أحمق يا أميرة ولا أعلم أنك ما زلتِ تفكرين بهذا البائس، الأفضل أن تنسيه لأن تذكره لن يزيدكِ سوى ألمًا، لقد تزوجنا وانتهى الأمر".

صححت ويديها تفركان بعضهما البعض بتوتر وشرود:

- "تذكره هو ما يحييني حتى اليوم، ولا أظنني سأنساه أبدًا، لقد أخرجته من حياتي، ولكنك لن تستطيع إخراجه من قلبي ولا أي إنسان غيرك".

استمع عاصم لجملتها وهو يكبح غضبه ولكنه لم ينجح في النهاية فهوى على وجهها بيده فور انتهائها، وصاح بنفور:

- "أنت بحاجة لتعلم الأدب، وسأعمل على هذا لدى وصولنا".

تحسست وجنتها التي تلقت اللطمة ولم تتألم، فهي تدري أن صراحتها المعتادة سببت له ألمًا أكبر، وبقيت ترسم الهدوء حتى أقلعت الطائرة، وبعد دقيقتين من الطيران نهض عاصم نحو المرحاض وتركها، إنه بحاجة للتدخين وبعض الخمر حتى يهدأ مزاجه.

****

استيقظت على صوت شقشقة الطيور المحلقة بسماء الجزيرة، فنظرت عبر نافذة البيت المستأجر فيما تتثاءب لتجد الشمس قد أشرقت على قبرص.

انقلبت على الجانب الآخر لتنظر نحو روبرت الغارق في النوم، وأيقظته بطريقتها المعتادة وهي تهمس:

- "هيا استيقظ، فلدينا أعمالٌ كثيرة".

فتح عينيه بخمول، ودام جفناه يرتعشان بسبب الضوء بينما يطالع وجهها الجاثم أمامه وخصلاتها المنهمرة على جسده، وحين استفاق قليلًا همهم ببعض الخمول:

- "صباح الخير يا عزيزتي، أتمنى أن تكوني نمتِ جيدًا".

هزت رأسها وقالت بتراجعها لمكان نومها:

- "بالطبع فعلت، في الحقيقة أنا أشعر بالطمأنينة الآن أكثر مما مضى، فقط لأنك هنا دائمًا ولا تغيب عن ناظري، أنا ممتنة للرب بصدق".

قالتها ورشمت الصليب فعقد روبرت حاجبيه متعجبًا وهمهم وهو يمضي للخارج:

- "أنت تندمجين بشخصية السيدة ماليني يا عزيزتي".

نهضت فيرونا خلفه وصححت وهما يتوجهان للمطبخ الصغير:

- "كلا يا روبرت، أنا أعني ما أقوله، الرب باركني بالعديد من الأشياء بعدما كنت أبيع الصحف بلندن، أنت لدي الآن ولدي منزلنا، وكذلك..."

لم تكمل، فرفع روبرت رأسه ليطل عليها من وراء باب المُبرد وتساءل وقطعة الخبر بين أسنانه:

- "وماذا يا عزيزتي؟"

سحبت نفسًا عميقًا وقالت ببطء:

- "وكذلك سيكون لدينا طفل عما قريب، أنا حامل منذ شهرين وأكثر".

فغر فاه فهوت قطعة الخبر، وبدأ يسير نحوها تاركًا المبرد مفتوح، وحين بلغها همهم مستفسرًا وملامح الصدمة تكسو قسماته:

- "أحقًا سيكون لدينا طفل؟"

تلعثمت فيرونا بينما تفسر:

- "لقد حرصت على تناول الحبوب ولكن الأمر حدث، أنا..."

قاطعها قائلًا بينما يحتضنها بحنو وبهجة عارمين:

- "أنت رائعة، الآن أنا أيضًا ممتن للرب، بل سأحضر قداسًا أو اثنين قبل مرور الشهر!"

ضحكت فيرونا وهي تربت على كتفيه وتساءلت ببعض الشك:

ـ "ألست غاضبًا؟"

تراجع للوراء وهمس وهو يعيد خصلاتها خلف أذنيها:

ـ "بتاتًا، فلا شيء بعد الزواج سوى تكوين أسرة صغيرة، وتلك الأسرة يجب أن يكون لديها منزلها الخاص، المهمات تتوالى علينا يا فيرونا، ففي البداية أردنا إيجاد بعضنا، ثم رغبنا بالبقاء، ثم الفرار والاستقرار، والآن ظهرت مهمة جديدة وهي توفير كل سبل الراحة لهذا الطفل، ولدينا وقت محدود ينتهي بولادته".

صمت برهة ثم تطرق:

ـ "أخاف أن تكوني مرهقة ومشغولة البال جراء كل هذا".

أمسكت يده وقالت بينما ترتخي فوق صدره:

ـ "أنا كذلك فعلًا، فتحقيق الغاية يتطلب مجهود شاق، ولكن لحظة تحولها لواقع كفيلة بأن تنسينا كل التعب، ولا تترك لنا سوى الغبطة وعنفوان الانتصار لبقية الحياة".

سحبت نفسًا ولمعت عينيها:

ـ "سيكون هناك منزل لتلك العائلة يا روبرت، ثق بهذا، فالفرق بين تحقيقك للشيء وعدم تحقيقك إياه، يكمن في تسميتك له، هل ستعتبره حلم، أم هدف".

ـ "إنه أهم هدف بحياتنا".

قالها ومرر يده فوق خصلاتها ثم وضع رأسه فوق رأسها وتبسم بقوة.

لا شك أنها تجيد إلقاء الخطابات الحماسية قبل الحروب العنيفة، فلقد لمعت عيناه بالحماسة والجنون. سيخوض الحرب مرة أخرى وستكون هي حليفته كما كانت دائمًا، ولكن الحرب الآن ضد الظروف والعقبات الاجتماعية، فأغلب المال الذي جمعه بعد الخدمة وبيع شقة لندن تم صرفه في الفترة المنصرمة، ولم يتبق سوى القليل.

إنه بحاجةٍ لعمل يكون رائجًا، وبحاجة للتفكير، ووضع خطة لا تتعدى نسبة فشلها خمسة بالمائة، وكلما كانت أقل، كلما باتت أفضل.

- "سأتطوع لإعداد الفطور".

قالها وعاد للمُبرد، وعقله لا ينفك يحلل ويفكر، ويقيم.

****

تدفق اليهود نحو فلسطين كان يثير ريبتها، فهي لم تر أعدادًا كتلك من قبل، ولم تتصور أبدًا أنهم باتوا بتلك الكثرة، ولكن زال عجبها حينما علمت من أحد البحارة فوق السفينة أنهم جاؤوا للبلاد بصورة عشرات وحسب منذ وعد بلفور ثم هربًا من المحارق الجماعية وخوفًا من سياسات هتلر بصورة بضعة آلاف كل شهر ومنذ بداية الحرب.

تركها ذلك التفسير واقفة في خشية كمن ينساب من قبضته حبلًا سميكًا نحو هوة مظلمة، وبقيت تطالع ما يظهر من معالم القدس الدينية، لأنها لا تدري ما إن كانت ستتمكن من دخولها مرة أخرى.

ظلت المدينة تتضاءل وتتضاءل، حتى بدا لها أن البحر ابتلعها، فالتفتت لتطالع ظهر السفينة وسرعان ما شعرت بالغثيان.

"تماسكي، ليس الآن!"

تنفست بقوة، ودارت بعينيها في الأشخاص الجلوس لتتناسى أمر التقيؤ ولكنها لمحت عاصم يقترب وبيده مفتاح الغرفة الخاصة بهما.

التفتت لجانب السفينة وتقيأت رغمًا عنها، فبلغها عاصم وقال ببرود:

- "لقد أصبت بدوار البحر، دعينا نذهب للغرفة".

ابتلعت ريقها ونظرت نحو السماء قبل أن تمتثل وتمضي معه، وحينما أدركا الغرفة وجدته قد طلب فطورًا رومانسيًا وجلب قنينة شمبانيا، فشعرت ببعض التقزز بمجرد التفكير فيما قد يحدث لاحقًا.

أغلق باب القمرة الخاصة بهما، وأشار للمرحاض المرافق وهو يقول:

- "يمكنك تبديل ثيابك هناك".

مشيت أميرة نحو المرحاض بتثاقل وحين عاد الغثيان هرولت لهناك بسرعة، فانتصب عاصم واقفًا ولاح الشك على وجهه ثم تبعها بعينين متفحصتين، وحين بات أمام الباب قال بمكر:

- "تبدين بحالة مزرية، يبدو أنك لستِ من هواة الإبحار".

أغلقت الصنبور وعبرت من جواره ولما باتت أمام المائدة قالت بكل هدوء ما يؤكد ظنونه:

- "بل أنا حامل".

هرول نحوها كثور هائج وأمسكها من معصمها وصاح بينما يرجها بعنف:

- "أيتها اللعينة، منذ متى وأنت توارين الأمر".

صاحت وهي تجذب معصمها من قبضته:

- "منذ الطلاق".

أشار نحو بطنها وقال بجنون:

- "ستجهضين هذا الطفل، يجب أن تجهضيه".

تقدم نحوها خطوة فالتقطت سكين الخبز ولوحت به بينما تقول محذرة:

- "إن فكرت بالأمر سأقتلك يا عاصم، لن تسلبني طفلي كما سلبتني زوجي، سأموت قبل هذا".

اللمعة في عينيها جعلته يشعر بالتردد في مهاجمتها فهي واثقة ومجنونة، ولا تبالي بأي شيء، ولكنه رغم هذا أراد أن يجرب حظه فتقدم قليلًا، ولكن لوحت أميرة بالسكين قرب وجهه حتى كادت تشطره فتراجع بينما يصيح:

- "أتريدين قتلي؟ أتكرهيني لتلك الدرجة؟ لماذا؟ لقد فعلت المستحيل لأتزوجك، ألا تفكرين بهذا قليلًا!"

صمت لحظة وقد شعر بالخمر يتأرجح بعقله من الصدمة واليأس ثم همهم:

- "لقد أحببتك منذ صغرنا وحتى الآن، لقد فعلت كل شيء لتنظري لي بابتسامة واحدة، ما الذي يجعلك تحبيه ولا تحبيني؟ ما عيبي؟"

- "لم أرك يومًا كزوج ولا حتى ابن عم حقيقي، لقد أفسدتك العولمة والثروة يا عاصم وبت تظن أن كل شيء يتعلق بالمال والهيمنة، الحب يمنح ولا يسلب ولذلك أحب سالم، إنه الوحيد الذي يستحق حبي، يستحق أن أفني له كل نفس من أنفاسي".

دمعت عينيه حين شعر بأنه لن يحظى بقلبها مهما حدث، ونهض بترنح نحو القنينة وانتزعها من وسط مكعبات الثلوج بيد ترتعش.

بتلك اللحظات، هوت كل أحلامه بخصوص مشاركتها الفراش، فهو من الآن سيعاني من الوساوس كلما اقترب منها حتى وإن لم تكن تشهر سكينًا، وإن حدث وسلمت نفسها إليه، فقد تخطيء بوقت جماعهما وتناديه باسم زوجها السابق، أو حتى تتخيل أنها تعاشره هو.

وقف بباب الغرفة وقال بصوتٍ ذابل:

- "أنا لم أتزوجك لأجل ثروة والدك، فأنا من يضمنه بكل صفقاته، وأيضًا لم أفعل كل هذا لأظفر بجسدك، فهناك العشرات من الفاتنات يتقن أن أرضى بهن، يمكنني أن أساوم كل شيء أملكه مقابل أن تحبيني كما تحبي هذا السائق، ولكني أعلم أنك لن تحبيني وإن فعلت هذا".

هم بإغلاق الباب والرحيل ولكنها استوقفته بينما تنزل يديها القابضة على السكين:

- "غيري ستفعل، وستحبها لدرجة أنك لن تفكر بغيرها، ما زال بإمكانك تصحيح الخطأ يا عاصم، دعني أعود لسالم، دعني أعود للحياة".

لم يعقب بحرف ورفع القنينة نحو فمه، ومشي يترنح بالردهة حتى انعطف بنهايتها.

***

في ماراثون التسليح الدولي، عملت ألمانيا التي خسرت أغلب مصانعها على تصنيع صواريخ باليستية تزن طنًا تقريبًا وزودتها بشحنة متفجرة، كانت قادرة على الطيران لمسافة تقارب الثلاثمائة كيلو متر، ولقد تذوقت العاصمة لندن، وبلجيكا حيث يتقدم الحلفاء طعم تلك الصواريخ.

وعليه رد الحلفاء الضربة، وحملوا الطائرات بالقنابل الفسفورية وأطلقوها نحو مدينة دريزدن، العائدة للقرون الوسطى، وجنة الخالق على الأرض كما دعاها الألمان، حتى حولوها جحيمًا مستعرًا.

ولكن القنابل الفسفورية، والصواريخ الباليستية لا يقارنوا بقنابل النابالم التي ألقيت على طوكيو بشهر مارس، في واحدة من كبري الصراعات الدائرة بين اليابان وأميركا، ولم تتوقف الأمور عند هذا الحد فلقد بدأت الولايات المتحدة في

العمل على السلاح النووي، لتنهي به ألمانيا كليًا قبل الروس اللذين أظهروا تقدمًا ملحوظًا، وهمجية لا تضاهى في الجبهة الشرقية حتى اجتاحوا حدود ألمانيا.

إنها الأسابيع الأخيرة للنازية والكل ينشد برلين الآن.

المؤسف في الأمر، ليس اقتراب سقوط النازية فكل أنظمة الحكم تسقط مع الوقت، بل سكان ألمانيا، الذين سيسقطون مع هتلر، المؤيد منهم، والمعارض على حدٍ سواء، فحتى المهاجرين الألمان الذين فروا، لم يقابلوا بترحاب كبير في أي مكان مضوا له.

***

إنها أصعب فترة عاشتها فيرونا منذ بداية الحرب، وهلعها بلغ أوجه مما سيحدث تاليًا، ليس بسبب خوفها على ألمانيا، بل لأجل التطور المريع الذي حدث بمنظومات السلاح، العالم يحترق هذا العام أضعاف ما احترق بالسنوات الماضية مجمعة، ونسبة القتلى والضحايا، تم إحصاءها بالملايين حول العالم، وما زال العد مستمر.

بهذا الصباح، بدت غير واعية تمامًا بينما تسير بصينية الشاي في فناء المنزل، وكان روبرت الذي قرر أن يعمل بمجال تصليح الزوارق، عاكفًا على تصليح محرك ما، فلم يلاحظها إلا حينما أدركت السياج الخشبي.

صاح مندهشًا حين لمحها:

- "ماتيلدا، أين تذهبين؟"

التفتت فيرونا صوبه وبدأت تتفقد مكانها، وحتى لا تزعجه قالت مبتسمة فيما تعبث بالباب:

- "أنا فقط أتفقد الباب فلقد خيل لي أنه يُصدر صريرًا".

التقط روبرت منشفة برتقالية ترقد فوق الطاولة بحركة خاطفة، وبدأ ينظف بها يديه المكسوتين بالشحم والزيت فيما يسير لها، وحين بات قريب، همس بروع:

- "وهل تنتظرين مني تصديق هذا! لا تخبئي عني شيئًا يا عزيزتي ولا تترددي في إخباري بكل ما يزعجك، دعيني أحمل تلك".

قال جملته الأخيرة وهو يمد يديه نحو صينية الشاي فسلمتها له دون تردد وأطلقت تنهد طويل ومختنق وارتمت فوق المقعد.

- "العالم هو ما يزعجني، أنا لا أصدق أننا أصبحنا بربريين هكذا، سنشطر الذرة بعدما أنفقنا ميزانيات مهولة على السلاح، وكل هذا لكي نتفوق في الحرب ولكن حينما يتعلق الأمر بتعمير الصحاري وتمهيد الطرق ندعي العجز الاقتصادي، نحن لا نسير نحو التقدم بل نتراجع نحو العصور المظلمة من جديد. هؤلاء الأبرياء الذين يموتون ويشردون بكل مكان ليس لهم ذنب فيما يحدث، فلم يعاقبوا بسبب قرارات حكامهم الذين يريدون تغيير خريطة العالم من جديد؟"

وضع روبرت يده فوق كتفها وقال بهدوء:

- "اصنعي الإرهاب ومن ثم قاتليه وسيمدحك العالم ويرضخ لكي، العالم يحكم الآن بالإرهاب، وسيتم إنهاك تلك الشعوب حتى لا تعارض ما سيحدث بعد الحرب".

بدأ يصب الشاي بالفناجين وهو يضيف:

- "ماذا عن بعض السباحة؟ ستريح أعصابك صدقيني!"

عقدت فيرونا حاجبيها وتمتمت وهي تلتقط فنجانها:

- "الوقت ليس مناسب للسباحة، كما أن الماء بارد".

نهض بغتة وراح ينظر للمنحدر المؤدي للمياه وألح بعد حين:

- "دعينا نخرج بنزهة إذن، لقد أصلحت المحرك وسأقوم بتجريب الزورق قبل أن أسلمه للعميل، الإبحار سيساعدك على الاسترخاء وسيبث بك طاقة إيجابية".

نهضت فيرونا وهمست بصوت متقطع:

- "أرى أن تصليح الزوارق يسير بصورة جيدة".

رفع روبرت المحرك بكلتا يديه وبدأ يسير نحو الخارج بينما يقول:

- "لقد خدمت بسلاح المهندسين في بداية التحاقي بالجيش، ولذا تصليح الأعطاب شيء سهل بالنسبة لي، والمبهج أنه لا يوجد احترافي تصليح على الجزيرة".

تبعته فيرونا بخطى ضيقة وحين أدركا المنحدر، وضع المحرك أرضًا وحرص على النزول بها أولًا، وحين أصبحت داخل الزورق عاد أدراجه ليجلب المحرك، وقال فيما يعيد تركيبه:

ـ "هناك مرأب يبعد عنا مسافة شارعين وهو مزود بمرسى صغير للقوارب، أفكر في تأجيره وبدء العمل الرسمي، عملي في المنزل مربح ولا بأس، ولكن البعض يجد صعوبة في معرفة مكانه، والمرأب الذي أحدثك عنه يجاور سوق الأسماك، مما يعني أن الجزيرة بأسرها ستعلم عنه بسرعة، ما رأيك؟"

راقبت فيرونا صفحة الماء لوقت طويل حتى أجابت وهي تهز كتفيها:

ـ "أرى أنها فكرة جيدة ولكنني مللت المنزل، أنا أرغب في العمل كذلك يا روبرت فمنذ نعومة أظافري وأنا أعمل بكد لدرجة أن الراحة أصبحت تمرضني".

رفع روبرت عينيه من فوق المحرك وطالعها بتعجب، وحين وجدها لا ترمش وتنتظر رده عرض بلين فيما يكمل تثبيت المحرك:

ـ "أليس الأفضل أن تنتظري حتى الولادة لتكوني قوية؟"

هزت رأسها بالنفي وقالت حاسمة:

ـ "عملي في المشفى لن يتعبني بل سيريحني كثيرًا، أن تداوي أحدهم أو أن تساهم في إنقاذه هو أكثر الأعمال نبلًا ومدعاة للفخر، أنا أشعر بالحياة حينما أفعل هذا".

ـ "حسنًا يا عزيزتي، ما دام هذا سيسعدك فأنا موافق، ولكن عديني أن تتوقفي عن العمل بحالة التعب والإرهاق أو اقتراب الولادة".

اقتربت منه في سعادة وقالت بينما تقبل وجنته:

ـ "شكرًا لك، ولا تقلق أبدًا فأنا سأكون بالمشفى على أية حال!"

ضحك روبرت لجملتها وهمس وهو يعيد مسح يديه:

ـ "لقد دبرتي للأمر باحتراف يا عزيزتي، أبحري بنا الآن قبل أن تغرب الشمس".

وقفت فيرونا أمام الدفة وبدأت تدير المحرك ببراعة، وحين انطلقت بالزورق لزمت تشمم هواء البحر بسعادة وحماس، إنها تتحرق شوقًا لتزاول عملها من جديد، وهذا يجعلها تشعر بحرارة متفجرة رغم الهواء البارد.

أوقفت الزورق بعد حين، والتفتت نحو روبرت وهمست بينما تفك سحاب فستانها:

ـ "ماذا عن بعض السباحة؟"

***

صنعت كوبًا من العصير كما حَث الطبيب المتابع لحملها ومشت الهوينا نحو حسين الجالس بالردهة لتنذره باقتراب موعد صلاة الجمعة، ولكنها وجدته مرتديًا جلبابه الأبيض ومنشغلًا بقراءة القرآن الكريم فوقفت على مسافة كي لا تقاطعه وبقيت ترتشف وتراقب شفتيه اللتين تتحركان بهمهمة لا تُبين في مزيج من الحب والرثاء، إنه يبدو متماسكًا أمامها، ولكن غمغمته بوقت نومه تكشف حقيقة ما يعانيه.

مرت دقيقة ويزيد حتى لمحها حسين بينما يَقلب صفحة المصحف، فَنهض نحوها بسرعة بينما يتساءل:

ـ "أكنتِ ترغبين في شيء يا كارلا؟"

هزت رأسها بالنفي بينما تبتسم بعذوبة:

ـ "أبدًا، كنت سأنبهك لموعد الصلاة لا أكثر".

أمسك يدها بحنو وعاد بها للأريكة وهمس بينما يجلسها:

ـ "لقد تأهبت وأنت بالمطبخ، ورأيت أن أقرأ سورة يوسف قبل مغادرتي للمسجد، سالم كان يقول إنها أكثر سورة تهدئه وتصبره وتملؤه رضا وإيجابية".

وسكن للحظة ثم أضاف ببعض الغم:

ـ "حتى النبي يوسف سُجن ظلمًا".

لم تشعر كارلا بالتعجب فالنبي يوسف من الأنبياء المذكورين في العهد القديم وهي كمسيحية بدأت تقرأ الكتاب المقدس، تعلم عن أمره ما يكفي وإن اختلفت التفاصيل بين السردين، فهمهمت ببعض المواساة:

ـ "أتدري يا حسين؟ الجميع كان يقول إنني متفائلة أكثر من اللازم وآمل بالأفضل دومًا، والحقيقة هي أن هذا صحيح فعلًا، ولكن ليس لأنني غير واعية بالواقع بل لأنني متيقنة أن الرب سيغير كل شيء بلحظة حين يريد، وأنا دومًا أتطلع لتلك اللحظة".

أخذها حسين تحت كتفه وعقب برقة ورضا مطلق:

- "ولذلك أحببتك يا كارلا، سأغادر الآن فصلاة الجمعة ستبدأ قريبًا".

ربتت على ساقه وهمست بينما تتراجع:

- "وأنا سأنتظر عودتك".

ودعها بحب ومضى للخارج فجلست تفكر بكل ما يدور بينهما، وكيف أن حياتهما ما زالت متماسكة رغم القذائف الموجهة نحوهما من قبل الحياة، ورغم اختلافاتهما الكثيرة.

لقد أحسنت الاختيار رغم معارضة الجميع لقرارها، ولكنها لا تلومهم فهؤلاء لا يرون ما تراه عينيها، وحدها تستطيع رؤية الجانب الإيجابي بأي أمر حتى السلبي.

ارتفعت أصوات المساجد بنداء الصلاة فمكثت تستمع بإنصات، وتبتسم بهدوء فيما يديها تتحسسان طفلها، فالأذان بالنسبة لها لا يختلف عن نواقيس الكنيسة من ناحية القداسة.

اتكأت بيدها على جانب الأريكة وأراحت رأسها، وبقيت تنظر في الأرجاء بضجر، منذ طفولتها باليونان وهي تعمل بدأب ولكن لم يعد هناك شيئًا تفعله، الطعام المجلوب من المطعم ما زال بالمبرد، والشقة مرتبة، ولا يوجد بالراديو ما قد يبهج، والأخبار الكئيبة هي آخر شيء تريده.

وقعت عيناها على القرآن الكريم فالتقطته من باب الفضول والتسلية كما فعلت مع الكتاب المقدس، وفتحته على الصفحة التي تركها حسين، وحاولت أن تقرأ بجهد ملحوظ، فأغلب الجرائد بالبلاد حتى المصرية منها تكتب باللغة الإنجليزية، والعرب لا يتحدثون سوى بالعامية ولذا إمكانياتها في فهم الفصحى لا تتجاوز العشرين بالمائة، ولكن رغم هذا بدأت تقرأ.

***

دام العرق ينساب على أنفه وذقنه لفرط الحر، فوضع الهراوة أرضًا لجوار الصخرة التي يعمل على تكسيرها، ومشى بخطى ضيقة نحو برميل المياه الذي تغطي الطحالب الخضراء حوافه الداخلية، بتلك اللحظات يبدو له هذا الماء شبه العفن، عذبًا سلسبيلًا.

يجب أن يروي ظمأه وينعش نفسه فالعمل بالشتاء قبل أسابيع كان يدفئه، ولكن الآن، مع تلك الرمال الحارة ودرجة حرارة تتجاوز الأربعين، لا يزيده سوى تعبًا.

قاطعه أحد العساكر بينما يشرب، وجذب منه الكوب الخشبي وطرحه أرضًا فيما يأمره:

- "عد للعمل فوقت الراحة بعد ساعتين".

نظر سالم نحو الماء وكان فمه مفتوحًا، وحلقه جافًا لفرط هيافه فتمتم متوسلًا:

- "كوب واحد فقط، ضرسي يؤلمني كثيرًا ويشتعل من الحرارة".

- "عد للعمل يا ابن الكلب".

دفعه العسكري بقوة وجمود، فحاول أن يوازن نفسه، ولكن السلاسل الحديدية المتدلية من ساقيه منعته عن تحقيق ذلك المبغى فوقع أرضًا فوق الرمال والحصى الحاد.

شعر بالحصى يخترق كفيه وركبتيه، وكاد العسكري أن يعود لضربة لولا أنه اعتدل بسرعة، وجر الأغلال والخيبة نحو الصخرة ليتأوه هناك جراء سقطته المؤلمة.

انسابت دموع حارقة على وجنتيه الشاحبتين والغائرتين، فوقف يراقب الهراوة الثقيلة للحظات، وكانت صور ما جرى بالسجن تمر عليه تباعًا، من صعق، جلد، معاملة بربرية، نوم بالظلام وسط الفئران والبول، إهانة تنتهي بإرغامه على تطليق زوجته.

شعر بأنفاسه تتضاءل، وبقامته تترنح حين مرت صور أميرة بذهنه، ترى ماذا تفعل الآن؟ هل نسيته؟ بالتأكيد لا وهذا يؤلمه أكثر، فبلا شك هي الآن زوجة لعاصم النذل ولكن قلبها ليس ملكه.

علها تذرف الدموع كمن تغتصب حين يشاركها الفراش، وربما تكون قتلت نفسها من الحزن وقلة الحيلة، وشعور الهوان الذي يستبد بها كل لحظة ترغم فيها على رؤية زوجًا لم تختره.

كاد أن يصرخ من القهر واليأس، ويلتقط الهراوة ليقتل كل هؤلاء الأوغاد الذين يحيطون به، ولكنه تماسك ككل مرة، والتقطها ليضرب الحجر، عساه يفرغ عليه

حنقه وثورته فيما شفتيه تهمسان بدعوات صابرة، وانتظر رغم عطشة، ودواره، مرور الساعتين حتى يشرب ماءً غير صالح للشرب من الأساس.

***

هبطت من حجرتها وطفقت تتمشى بالحديقة كما قال طبيبها المتابع، فالحركة المستمرة ستجعلها تضع جنينها دون صعوبة، غير أنها ضجرت من الجلوس بالمنزل، ولا تشتهي الخروج كذلك.

لقد شعرت أميرة بصدمة ثقافية حينما وصلت إستانبول قبل شهور، فالطعام والثقافة، وأشكال المنازل والشوارع لم يكونوا مألوفين بالنسبة لها، ولكنها مع الوقت تجاوزت الصدمة واعتادت على أغلب الأمور، ولم يساعدها على هذا سوى أنها تحيا في غرفة منفردة مع جنينها.

أما عاصم فهو عادة لا يبيت بالفيلا حتى يتفادى رؤيتها، وحينما يأتي، فهو يشرب حتى الثمالة، وينام أمام البار، أو فوق الأريكة الأقرب إليه، وحتى نومه يكون متقطعًا بسبب الكوابيس التي تنتهي بمشهد موته على يدها.

كانت الحيرة تعلوها بسبب سلوكه، فهي لا تعلم لماذا لم يطلقها ما دامت الأمور تسير هكذا، ولكنها اعتادت أن تفسر الأمر بكونه يعلب دور البائس النبيل، حتى تأتيه طائعة، وتشكره بخصوص عدم إرغامها على النوم معه، وتقول له بنفسها: اقبلني زوجة، ولكنها تبقى محض ظنون، فهو لم يطلقها لأنه بعدما فشل في الحصول عليها فوق السفينة، قرر أن سالم لن يفعل، ولن يفعل أي أحد.

ستبقى في هذا السجن المرفه حتى يموت الأعجل منهما.

نظرت لساعة يدها، ووجدتها الثالثة فهمت بالتراجع للفيلا لتطلب من مدبرة المنزل أن تعد لها قهوتها، ولكن الأخيرة كانت قد صنعتها بالفعل وخرجت بها عبر أبواب الفيلا المرتفعة بينما تقول بتهذيب:

- "سيدتي، إنه موعد قهوتك، أتحبين أن تشربيها بالداخل أم في الحديقة؟"

نظرت أميرة نحوها بابتسامة مصطنعة وقالت بتركية سليمة:

- "شكرًا لكِ، لقد جلبتيها في الموعد تمامًا، سأشربها هنا".

توجهت مديرة المنزل بفنجان القهوة نحو مستراح الحديقة، كان يضم منضدة بيضاء من الخيزران تحيطها بعض المقاعد، فيما يظلهم مربع سياجي، تغلفه بعض النباتات المتسلقة، كالياسمين، وطربوش الملك، والأنتيجون، والجهنمية.

وضعت القهوة فوق المنضدة، وغادرت كي تعد الغداء، فجرت أميرة ساقيها حتى أقرب المقاعد، وجلست ترتشف قهوتها وتتذكر سالم.

كلا، سيكون رياءً إن وُصفت حالتها بالتذكر فهي لم تنسه لبرهة واحدة، إنها تستحضره ليشاركها قهوتها مع طفلهما الذي لا تنفك تلامسه بشوق جارف.

إنها تنتظر قدومه أكثر من أي شيء، ولا تتمنى سوى أن يكون شبيهًا لوالده حتى تراه بوجهه كلما ناحرها الشوق، وكلما غلبتها الأحزان.

***

يُمكننا تسمية أبريل من هذا العام بخريف القادة، لأنهم تساقطوا واحدًا تلو الآخر، وكان أولهم الرئيس الأميركي فرانكلين روزفلت، الذي توفي في بدايات الشهر بعد صراع مع المرض، والثاني كان موسوليني الذي قبض عليه الشعب الإيطالي أثناء محاولة فراره وأعدمه رميًا بالرصاص، ولم يكتف الإيطاليون بقتله ليطفئوا الحريق في صدورهم فوضعوه مع خليلته وجثث المقربين له بأحد الميادين ولزموا البصق عليهم والركل فيهم حتى علقوهم من أرجلهم كما الخنازير على واجهة محطة وقود تقع بنفس الميدان.

وفي ألمانيا كان هتلر لاجئًا بقبو الفوهلر القريب من الرايخستاغ -مبنى البرلمان النازي- مع بعض المقربين وعشيقته إيفا براون التي صورت أغلب الأفلام الوثاقية التي نراها اليوم عنه.

لقد تزوجا في التاسع والعشرين من أبريل، ولكن زواجهما لم يدم سوى ستة وثلاثين ساعة، فلقد انتحرا في اليوم التالي حينما دخل الروس برلين وبلغوا القبو.

وجدت الجثتين على مقعدين متقابلين لا يوجد بينهما سوى طاولة صغيرة، وذكر المؤرخون أن إيفا انتحرت بسم السيانيد رفقة هتلر، ولكن يذكر شهود العيان أنهم شاهدوا جرحًا بجانب جمجمته، ومسدسًا واقعًا أسفل جثته الغارقة في الدماء، ولا يمكن تفسير قتله لنفسه بالرصاص بعد تناوله السم، إلا بشيء واحد، وهو أن إيفا ماتت قبالته أولًا بعدما فتك بها سم السيانيد، فعجل موته بالطلق الناري حتى لا يشاهد جثتها.

قاطع الروس عملية إحراق جثته التي جاء طلبها في الوصية الموقعة بواسطته قبل الانتحار، ولكن أعيد إحراقها، ونثر الرماد بنهر إدلب كي لا يقام لجثته ضريحًا يزوره النازيون بعد ذلك.

في الثاني من مايو، ارتفع علم السوفييت فوق الرايخستاغ، والتقطت الصورة الشهيرة التي تصور هذا الحدث، وفي الثامن من مايو وقعت ألمانيا استسلامها غير المشروط.

***

وضع قنينة الجعة فوق حامل العِدد، والتقط مفك البراغي وبعض المسامير، وتوجه بهم صوب الزورق الراسي بالمرفأ الخاص بورشة العمل، حري به أن يسرع في تصليح العطب، فلا بد أن يلتقط فيرونا من المشفى بعد قرابة الساعة، وآخر شيء يريده هو أن تقطع تلك المسافة حتى المنزل في حالة تأخره، فلقد أصبحت بشهور الحمل الأخيرة وكل مجهود زائد سينهكها كثيرًا.

نهض بهمة، وفرك خصلاته الطويلة بواسطة المفك حتى لا يتسخ شعره الأشقر، ثم تخير بين مفاتيح الربط المتنوعة القياسات حتى وجد ضالته، تناوله بإسراع ثم أنهى القنينة، وشرع يشعل لفيفة تبغ ليعود للعمل ولكن دوى رنين الهاتف.

التقط السماعة بينما يضرم النيران بسيجارته:

- "هنا مرأب ماليني".

رد الصوت بسرعة ووجل:

- "سيد ماليني أنا أتصل بك من المشفى، لقد أغشي على زوجتك، والأطباء يفحصونها الآن، احضر رجاءً".

لم يعقب روبرت بكلمة ولم يغلق حتى الخط، وهرول عبر مخرج المرأب تاركًا السماعة تتأرجح كبندول الساعة بين الهاتف والأرض.

ركض نحو المرسى الخاص بالجزيرة كما جواد سباق، وبوصوله تفحص المكان بحثًا عن زورقه الخاص، ثم أداره وشق المياه بسرعة.

سيدور حول الجزيرة ليبلغ المشفى، فهذا أفضل من انتظار سيارة على اليابسة.

لبث يدير الدفة ويزيد السرعة غير مبالٍ بالهواء الذي يضرب صدره ويكاد يمزق قميصه، وكان تفكيره منصبًا على فيرونا لا غير، موعد وضعها لم يحن بعد، وفقدانها الوعي قد يكون ناجمًا عن حزنها وصدمتها من أخبار الحرب الأخيرة، وهذا قد يضر الجنين بتلك المرحلة، وربما يؤدي لإجهاضها.

"تبًا، تبًا، اللعنة على الحرب!"

رأى المشفى يلوح أمامه، فبدأ يهدئ السرعة تدريجيًا، ولكن ثورته لا، ثم قفز لدى توقفه وشرع يصعد المنحدر بسرعة بالغة، مستعيدً أيام زحفه، وركضه فوق الخطوط الترابية الشاهقة، حتى بلغ بوابة المدخل وهناك، وجد المسعف الذي نقل إليه آخر الأنباء.

- "لقد دخلت غرفة العمليات، يقولون إنها ستلد".

جحظت عينا روبرت وشعر أن نبضه يرتفع مع قلقه وخوفه، فهرع نحو الداخل كما دبابة بشرية، لا تتردد في دهس ما يقابلها حتى بات أمام غرفة العمليات.

رأى الحركة في ذروتها، فبقي يستفسر من الداخلين والخارجين حتى طمأنته إحدى الممرضات قبل دخولها للغرفة.

- "لا تقلق يا سيد ماليني، ستكون المدام بخير، إنها تتجاوب معنا".

لم يتلاش قلقه كاملًا ولكنه اطمأن على حالة فيرونا، إنها مقاتلة عنيدة، وفتاة صعبة المراس، تلك الولادة لن تنهيها بكل تأكيد، فالدبابات والقذائف، والحرب نفسها لم تقو على ذلك.

بقي يدخن بتوتر فيما يطمئن نفسه بهذا، حتى شاهد ذات الممرضة، تخرج مبتسمة، وتبسط كفها أمامه كما الملاك بلوحة البشارة لدافينشي.

- "زوجتك بخير حال، والجنين سيمكث بالحضانة لبضعة أسابيع، إنه صبي، مبارك لكما".

تهللت أسارير وجهه وغمغم بعينين تدمعان:

- "شكرًا لكِ، هل يمكنني رؤيتها؟"

همت الممرضة بالتعقيب، ولكن روبرت شاهد سرير فيرونا المتحرك يندفع عبر باب غرفة العمليات، فهرول نحوها وهي تحت تأثير المخدر وقال بصوت محشرج:

ـ "أنت بخير يا عزيزتي، لا تقلقي من شيء".

تساءلت بتمتمة تكاد لا تفهم وجفنيها يرتعشان:

ـ "أأنت هنا فعلًا؟"

ـ "لقد أخبرتك أنني لن أتركك أبدًا مهما حدث".

دخل المسعفون بفراشها لإحدى الغرف، فجذب روبرت أحد المقاعد وأدناه من الفراش ثم وضع يده فوق يدها الموصولة بأنبوب مغذي، وأضاف بحنو:

ـ "لقد أصبحنا أبوين يا فيرونا، الآن صرنا عائلة مكتملة".

نظرت نحوه بخمول وغمغمت بابتسامة:

ـ "ألا تريد أن تذهب لرؤيته بالحضانة؟"

قبل جبهتها بحب وهمس بينما يمسد خصلاتها:

ـ "بلى أريد، ولكنني أنتظرك لنراه سويًا".

ابتلعت ريقها وجاهدت في رفع أجفانها:

ـ "لقد حُقنت بمخدر يكفي ليُنيم ثور هائج، أنا بالكاد أراك".

ترك المقعد بحركة صبيانية، وتمدد لجوراها بينما يصرح:

ـ "لا بأس، حين تستيقظي سنمضي لرؤيته".

نقلت رأسها بمثابرة، ووضعتها فوق صدره الصلب عوضًا عن الوسادة اللينة، وبدت رغم ذلك مستكينة وهادئة، وجاء صوتها يهمهم:

ـ "ماذا ستسميه يا حبيبي؟"

أحاطها بيده اليسرى، وأمسك بيمينه قبضتها الواهنة التي ترتكز فوق معدته، وقال بلطف:

ـ "ستكون فظاظة إن سميته أنا، لقد تعبتِ في حمله وولادته، وستتعبين أكثر في تربيته، لذا أفضل أن تسميه أنت، ولن أعترض على الاسم مطلقًا".

مررت وجنتها فوق صدره بينما تعلن بسعادة:

- "كم أنت نبيل، لقد فكرت في اسم أندرو، ما رأيك؟"

- "أندرو ماليني، همم، يبدو اسمًا موسيقيًا، أنا موافق بلا شك".

استسلمت للمخدر وأغمضت عينيها، وبقي روبرت محتضنها فيما يرسم بذهنه حياتهم المستقبلية، إنه لم يكن يومًا أكثر سعادة كما الآن، ولسوف يحرص ألا تزول سعادته مهما حدث.

سيحارب بمليون معركة دون تردد، حتى تبقى تلك العائلة بأفضل حال.

***

مشى بالطرقات ساهمًا ومتألمًا كمن يخطو فوق النيران، حسين لم يعد يحتمل ما يحدث لسالم، وإن كان الأخير متماسكًا أمامه، ففي كل مرة يقابله يشعر ببريق عينيه ينطفئ، ورغم كل جهوده في إخراجه من السجن، لم يوفق في شيء.

بلغ المنزل الكبير، فظل يرمقه بألم فيما يدخله، وتضاعف ألمه بمروره على الشقة التي سكنها شقيقه وأميرة، لقد انقطعت أخبار الأخيرة تمامًا منذ سفرها لتركيا، وكلما سأله عليها سالم حين يزوره، لا يملك سوى قلب يديه ونفي معرفته بحالها.

وصل للشقة ففتح بابها ولاذ بها، وسريعًا تعجب أن كارلا لم تقابله كالعادة فطفق يبحث عنها بالأرجاء، طرق باب غرفة نومهما مرات متتالية، وبوتيرة لا تنفك ترتفع ولكنها لم تجب بشيء رغم أن المصابيح مضاءة ما أثار قلقه وخوفه، قد يكون جاءها المخاض وهو بالخارج، ولم تجد من يحملها للمشفى.

فجا الباب واقتحم الغرفة بهلع، فوجدها تنظر للا شيء ولم تكن منتبهة لما يجري تمامًا، تقدم منها وهو يتفحص الكتابين المفتوحين على الفراش بطرف عينه، وحين بلغها تعرف عليهما بسهولة.

كانا نسخة من القرآن الكريم مترجمة لليونانية، والكتاب المقدس.

مد يده ووضعها على كتفها فانتبهت مصدرةً شهقة صاخبة، وتراجعت للوراء حتى كادت تسدح على السرير، وكمن استفاق من النوم لتوه حملقت به للحظات وعيناها ترتعشان، وحين ألفته، قفزت لتختبئ بين ذراعيه ومكثت ترتعش بقوة كما عصفور بلله المطر.

ربت عليها مطمئنًا فيما يقول:

- "لا بأس، كل شيء على ما يرام".

ابتلعت ريقها وحين تراجعت للخلف أشارت نحو الكتابين وهمهمت بانفعال:

- "كنت أقرأ وأقارن، ولكن... ولكن شعرت بشيء، شيء كما تيار يتخللني، أنا لا أعرف ماذا حدث!"

أمسك كتفيها مجددًا وهمس بصوت خفيض:

- "اهدأي يا كارلا وتنفسي".

أخذت تسحب الأنفاس بقوة مصدرة صوت شهيق وزفير مرتفع، وكانت عيناها من الحين للآخر تنظران نحو القرآن الذي عكفت على مطالعته من فترة لتفهم السر في جعله يهدئ جنينها، الأمر الذي أدخلها بمرور الوقت في صراع مع معتقداتها وأفكارها، لفرط بيانه وقوة حججه.

طيلة شهور منصرمة كانت تقارن، بلا كلل، بين الكتابين، وكانت كلما توغلت في عمقهما، ملأت الأسئلة رأسها حد الانفجار، وكي لا تصاب بالخبل جراء غياب الإجابات، كانت تقضي بعض الوقت، عقب كل قداس أحد في محادثة الأب وسؤاله عن كل ما هو مبهم بالنسبة لها في الكتاب المقدس، بداية من سفر التكوين، وحتى سفر الرؤية، وتسأل الجارات كل مساء حول ما تجده ملتبسًا في القرآن، بداية من سورة الفاتحة، وحتى سورة الناس.

في النهاية لم تكن متيقنة سوى من شيء واحد، وهو أن القرآن الذي ظنته طوال حياتها مكتوبًا من قبل بشري، ليس إلا كلام الخالق نفسه، فلا يمكن أن يعرف إنسان عاش وسط الصحراء منذ ما يقارب ثلاثة عشر قرنًا ونصف، أي شيء بخصوص ما أثبته العلم حتى تلك اللحظة بخصوص الإعجازات، بل ما أكده الزمن بخصوص النبوءات.

إن كان الإسلام هو الدين المصطفى والنهائي للبشر مهما مرت القرون، فلا بد أن يتمكن من الثبات مهما تغير الزمن، وأن يوافق، رغم الفارق الزمني وغياب التقدم الحضاري إبان ظهوره، كافة ما يكتشفه العلم بعد ذلك، ومن الجلي أنها تيقنت من هذا، ولم تعد مذبذبة بشأنه.

- "أريد أن أكون مسلمة يا حسين".

نظر حسين نحوها ولم يصدق ما تقوله، فهو لم يعد يسمع أخبار مبهجة منذ فترة، ولا يلتمس بصيص سعادة سوى نادرًا، فتمتم ليتيقن فيما يمسك يديها:

- "ماذا تقولين؟!"

ضغطت على يديه وفسرت بينما تدمع:

- "أنا مؤمنة بكل حرف قرأته ولم يزدني التفكير والشك إلا يقينًا، هذا كلام الرب فعلًا".

أمسك جبهته ولبث يفركها للحظات، حتى قال بصوتٍ عذب:

- "إنه أفضل خبر سمعته بحياتي يا حبيبتي، أنا لا أستطيع وصف سعادتي".

ابتسمت كارلا رغم الدموع وبقيت تمرخها حتى همت بمغادرة الفراش فأضاف متسائلًا:

- "أين تمضين؟"

أجابت دون توقف عن السير:

- "سأحضر لك العشاء ثم ستخبرني بما يجب عليَّ فعله لأعتنق الإسلام".

تابعها حسين بعينين دامعتين، ثم نظر نحو السماء عبر نافذة الغرفة، كم أن الله رحيم به، ولا ينفك يلقي إليه البُشر الطيبة حتى يهدأ قلبه المفطور بسبب معاناة شقيقه.

الآن هو لا يأمل بشيء سوى خروج سالم من السجن ومعاقبة الجائر.

****

بعد سقوط ألمانيا وإيطاليا انتهت الحرب في أوروبا، ولم يبق من دول المحور سوى اليابان ومقاومتها الدائرة في منطقة المحيط الهادئ، فجاء إعلان بوتسدام من قبل الحلفاء ليحذرها من العواقب الوخيمة إن لم تمض على استسلامها غير المشروط، ولكن رئيس الوزراء الياباني لم يعر الإعلان أي اهتمام ولم يحسب المهلة المعطاة، ولدى انتهائها، ردت أميركا التي انشغلت بتصنيع القنابل الذرية طيلة الفترة الماضية بقصف ذري لمدينتي هيروشيما وناغازاكي في يومي الثامن والتاسع من أغسطس، ما قتل وشوه ما يزيد عن مائة ألف قبل نهاية العام فيما بقي الإشعاع النووي خطرًا على اليابان وشعبها لسنوات تالية.

استسلمت اليابان مرغمة كي تتفادى المزيد من الخسائر، ووقعت الوثيقة في الثاني من سبتمبر لتنتهي بذلك الحرب العالمية الثانية بعد صراع عالمي استمر لستة سنوات ويوم واحد، قتل خلاله ما يزيد عن خمسين مليون نسمة، أغلبهم من المدنيين الأبرياء، وبعدما سجلت فظائع شتى، تبدأ من القتل والتشريد والتمثيل بالأسرى الأحياء، وإجراء الاختبارات عليهم، وتنتهي بالاضطرار لأكل لحوم الجرذان والحيوانات الأليفة والبشر، كما حدث في لينيغراد، إبان محاصرتها من قبل الألمان، وكما سجُل في اليابان بعد أسرها لجنود أمريكيين، وفي معتقلات السوفييت.

بشاعة الحرب لا تتجلى بأحداثها فقط، بل بما ترتب عليها من تقسيم وإضعاف لصفوف الشعوب الواحدة، فألمانيا مثلًا قسمت لأربع أجزاء حسب اتفاقية يالطا وتقاسمتها أميركا وفرنسا وإنجلترا وروسيا، وشرعوا في العمل على جدار برلين.

أما اليونان فلقد بدأت بها حربًا أهلية استمرت لسنوات، ولأن التنافس على العظمة لا ينتهي إن بدأ، تناحرت روسيا وأميركا لسنوات طويلة، ودارت بينهما الحرب الباردة، فيما تراجعت بريطانيا بسبب خسائرها الفادحة ولم تعد قوى عظمى، وتم تغيير اسم منظمة عصبة الأمم إلى الأمم المتحدة، وكانت مهمتها كما السابقة، حفظ الحريات وضمان الحقوق.

وعن الأمور في إفريقيا فقد كانت سيئة للغاية لأن أغلب الدول العربية لم تكن حظيت باستقلالها بعد، وتلك التي فعلت كانت تكابد مرارة الكفاح لتتخطى خسائر الحرب، وفي خلال ثلاث سنوات وأقل، قامت دولة إسرائيل فوق الأراضي الفلسطينية بعدما انتهى الانتداب البريطاني، ورغم كفاح وعناء قامت به بعض الدول العربية، لم تُعد الأرض المقدسة للفلسطينيين لا بالقتال، ولا بواسطة الأمم المتحدة، حتى وقتنا هذا.

٢٠٠١

"السرطان الحقيقي والأخطر على الإطلاق، هو أن نفقد الأمل بأن الغد سيكون أفضل، لأننا حينها سنكون قد قبلنا بمرارة الواقع المحيط دون أن نهتم بتغييره، سنكون أموات يسيرون".

جُزء من كلمة سلمى أثناء مؤتمر لندن لمكافحة السرطان

التقط سالم فنجانه وبدأ يرتشف بتلذذ، ولم يمض كثيرٌ من الوقت حتى أقبل على طاولتهم رجل خمسيني العمر، يرافق والدته المسنة، وأبناءه الثلاثة إضافة لزوجته، وتساءل برجاء بالغ بينما يشير للمقعد الثالث أمام الطاولة:

ـ "هل يمكن لوالدتي الجلوس هنا؟ أعلم انني أزعجكم ولكن المقهى ممتلئ كما تعرفون، وساقيها تعبتا بسبب السير".

نظر سالم إلى قامتها المنحنية بإمعان وسرعان ما وضع فنجانه وقال بتهذيب:

ـ "بالطبع يمكنها، فأنا أعرف هذا الشعور جيدًا، تفضلي".

جلست المرأة وتنهدت بارتياح، وهمست بينما تومئ برأسها:

ـ "أشكرك جزيلًا، أتمنى أنني لم أقاطعكما".

ـ "على الإطلاق، لقد كنا نحتسي القهوة، ولقد شاءت الأقدار أن تنضمي لنا".

نظرت له مليًا بوجه ملائكي يبث السكينة رغم تجاعيده الجلية، ثم قالت بتوتر وهي تلتفت لأسرتها:

ـ "يمكنكم إكمال التسوق دوني، لن أفوت تلك الدعوة اليوم".

غادرت العائلة ممتثلة فشبكت أصابعها الرفيعة والمُجعدة فوق الطاولة وبسطت ساقيها المتورمتين من السير وطالعت جليسيها بتفحص، ودون حرف حتى عاد النادل بقهوتها.

وضعها أمامها بابتسامة ناصعة البياض وغادر بخفة فمكثت تنظر لفنجانها ولسالم حتى همهمت بصوتٍ محشرج:

ـ "لقد مر وقتٌ طويل للغاية يا سالم، ملامحك تغيرت كثيرًا، ولكني ألفتها رغم أنني لا أحمل نظارتي".

ابتسم سالم وهو يومئ برأسه وأضاف مبتسمًا:

ـ "لقد مر القرن بأسره ولكن ماذا أقول، أنت دومًا تأتين متأخرة".

ضحكت أميرة ببهجة وأسهبت الدموع بينما تضيف:

ـ "أن آتي متأخرًا أفضل من عدم مجيئي على الإطلاق، ماذا تفعل هنا؟"

ـ "لقد ظننت أنني قادم لأموت في بلاد الإنجليز، ولكنني اكتشفت أن الله جلبني إلى هنا كي أنال الحياة التي سلبت مني دون إرادتي".

تابعت سلمى في صمت حتى استفسرت وقد شعرت بالبلاهة:

ـ "أتعرفان بعضكما البعض يا جدي؟"

نظرت أميرة نحوها بعينيها السوداوين وأجابت بصوتٍ محشرج:

ـ "أنا أعرف جدكِ جيدًا، أعرفه أفضل من أي أحد".

ثم التفتت نحوه وأضافت ببعض الدهاء المتواري:

ـ "لديك حفيدة جميلة الوجه".

نظر سالم صوب سلمى وهمس بصوت خفيض:

ـ "لقد ورثت جمال كارلا وتفاؤلها".

جحظت عينا أميرة وتمتمت بينما يداها ترتعشان:

ـ "أتعني أنكَ..."

قاطعها بصوتٍ هادئ بينما يداعب فنجانه:

ـ "لم أستطع، فذكراك لم تغادر عقلي ولو للحظة ولقد عشت عليها بالسجن، وحتى هذه اللحظة".

مالت برأسها جانبًا وقالت ببعض الألم:

ـ "كنت ستبقى في السجن إن لم أكن فعلت ذلك يا سالم، وكان سيؤذي العائلة".

ضرب سالم المنضدة وهو يعلن بانفعال:

ـ "لقد بقيت في السجن يا أميرة، ولم أغادره إلا عندما نشبت ثورة الضباط الأحرار وتم خلع الملك، لقد بقيت مسجونًا لسنوات لا أفكر بأحد سواك، كنت أصاب بالجنون كل لحظة ولم تكف الوساوس عن ضرب عقلي، كنت لا أعلم حتى ما إن كنتِ حيةً".

كانت الدموع تنهمر من عينيها الغائرتين كما الشلالات لعلمها بخسة عاصم حينذاك، ولكن سعادة اللحظة أنستها مرارة كل ما مضى وإن كان أغلب العمر، فهمست وهي تمرخ دموعها:

ـ "لقد فكرت بقتل نفسي كثيرًا لينتهي كابوسي هذا، وطفلنا هو الذي صبرني، ولكن عاصم لم يتحمل الأمر وانتحر عقب ولادتي بشهور بعدما فشل في الحصول على أي شيء مني".

فغر سالم فمه وتساءل بعينين محمرتين:

ـ "طفلنا! أتعنين أن الرجل الذي كان هنا لتوه ليس إلا..."

لم يتمالك نفسه وتحشرج صوته فهزت رأسها بالإيجاب، ووضعت يدها فوق الطاولة بينما تضيف:

ـ "والثلاثة صغار أحفادك، بعد وفاة عاصم وورثي له ربيت طفلنا وراقبته يومًا بعد يوم بعيدًا عن أسرتي، وكنت دومًا أراك بوجهه وأبتسم، من الحين للآخر كنت أفكر بالعودة للبحث عنك، ولكني ظننت أنكَ أكملت الطريق".

صمتت لبرهة قبل أن تضيف بدموع غزيرة:

ـ "ولكن ها نحن نلتقي بالبلد الذي تفرقنا على يد أحد مواطنيه، بعدما توقفت الرحلات كافة!"

شعر أن قلبه سيتوقف لفرط سعادته فها هي حبيبته تأتيه ومعها عائلة كاملة لم يكن يدري بوجودها، ولم يظن يومًا أنه سيحصل عليها.

وضع يده فوق يدها والأخرى فوق قلبه وأغمض عينيه بينما يعقب:

ـ "لقد رضخت الظروف يا أميرة وها نحن نشرب قهوة الثالثة سويًا".

قالت سلمى وهي تطلق تنهد طويل:

ـ "أنا لا أفهم شيئًا!"

رفع سالم سبابته وقال برجاء:

ـ "لحظات يا طفلتي، فالكبار يتحدثون".

ضحكت أميرة ببعض السخرية وهي تفكر بحالهما الغريب وغمغمت:

ـ "التقينا بعدما مر العمر يا سالم".

ـ "كلا، لقد بدأ عمرنا الفعلي الآن، ولن ينتهي أبدًا، سأدرك الخلود معك".

وضعت يدها الأخرى فوق يده وقالت ببعض الرجاء:

ـ "كن معي طيلة هذا الوقت إذن".

هم بالتعقيب ولكن سلمى عادت تكرر باستياء:

ـ "أنا لا أفهم شيئًا!"

رفعت أميرة سبابتها وقالت برجاء:

ـ "لحظات يا عزيزتي".

قاطعهم صوت التلفاز المعلق بالمقهى، والذي نقل خبر تفجير برجي التجارة العالميين، فسرت بالأرجاء موجة من الشهيق المتفاجئ، والامتعاض تجاه تنظيم القاعدة المزعوم وناحية الإسلام عمومًا وعلموا هم سبب توقف الرحلات عن العمل، فنظر سالم نحو أميرة وقال:

ـ "لن يكون هذا القرن دمويًا كسابقة، بل سيكون أكثر فظاعة، ففيه سيحكم الإرهاب مرة أخرى ولكن تلك المرة ستلصق الأفعال بنا نحن".

نظرت أميرة للأشخاص المحيطين والذين بدأوا يراقبونهم بحرص بسبب ملامحهم المسلمة وتساءلت ببعض القلق:

ـ "ماذا سيحدث الآن؟"

ـ "الآن سنظل معًا حتى نغادر هذا الكوكب الوضيع".

قالها بثبات ووضع يده فوق يدها من جديد وعلق عينيه على أسرته التي تتسوق على مسافة بعيدة، إنه يراهم وكأن قوة حواسه تضاعفت، ويخيل له أن يستطيع الركض دون عكازه الآن.

إنه محق، لقد عاد للحياة حينما التقى بها، وعاد للصراع كذلك بعدما أمضى العمر لا يبالي بما ستؤول إليه الأمور.

"تمت بحمد الله"



تواصل معنا :

01067000701

E-mail:-Fasla.Pub@Gmail.com

Facebook .Com/Fasla .Pub